تشارلز ديكنز

مغامرات مستر بيكويك

رواية

ترجمة

نظمي راشد

مراجعة وتحرير

خالد سليمان

الكتاب: مغامرات مستر بيكويك (رواية)

الكاتب: تشارلز ديكنز

ترجمة: نظمي راشد

مراجعة وتحرير: خالد سليمان

الطبعة: ٢٠٢٣

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

ديكنز، تشارلز

مغامرات مستر بيكويك / تشارلز ديكنز، ترجمة/ نظمي راشد، مراجعة وتحرير/ خالد سليمان

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٩٠ ص، ١٨*٢١ سم.

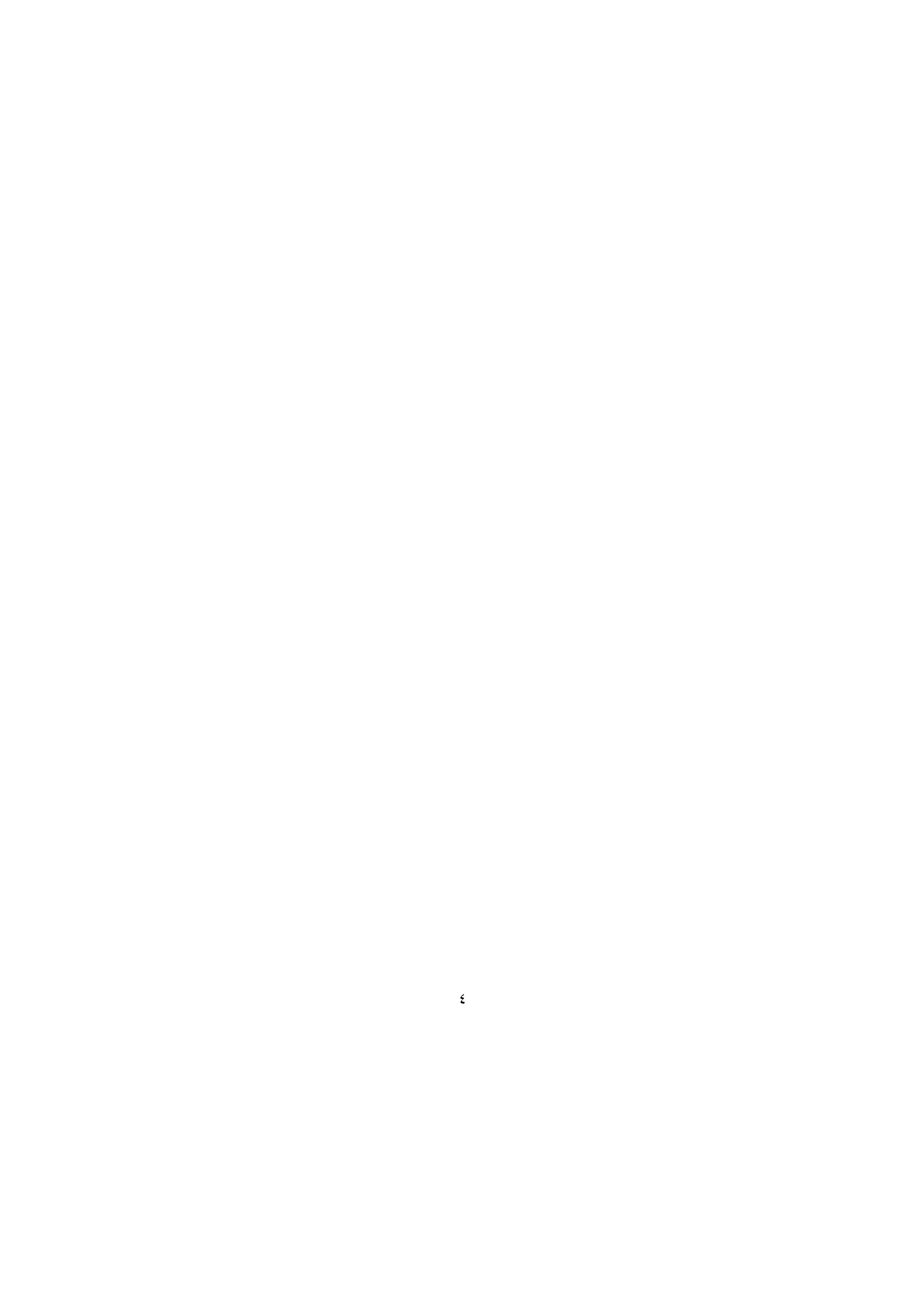
الترقيم الدولي: ٦ – ٧٠١ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان   رقم الإيداع: ٥٦١٤ / ٢٠٢٣

مغامرات مستربيكويك

رواية





هذا المؤلف .. وهذه الرواية

تشارلز ديكنز، واحد من أعلام القصة العالمية، ومن أفضل كتابها في اللغة الانجليزية،ولد في بلدة لاند يورت قرب ميناء بورتسماوت في ٧ فبراير سنة ١٨١٢، وتوفي بمقاطعة كنت قرب بلدة روشتر في ٦ يونيه ١٨٧٠ وقد كانت روايته هذه التي تقدمها للقراء فاتحة شهرته في سنة ١٨٣٧ لأنها في اعتبار كثير من النقاد من أروع إبداعاته .

ومن العجيب أنه لم يذهب إلى المدرسة غير مدة لا تتجاوز أربع سنوات، ومع هذا فقد كتب قرابة عشرين رواية من أروع روايات العالم، وهي تمتاز على السواء بالتصوير الخالق، والتحليل الشائق، والسخرية اللاذعة، والفكاهة البارعة.

وقد صدق فولتير حين قال: إن السخرية سلاح الأعزل المغلوب على أمره؛ ولهذا نرى تلك الملكة أقوى ما تكون في الشعوب المستضعفة والطبقات التي يقسو عليها الدهر، وفي الأفراد الذين شددت عليهم الحياة النكير، وثم مع هذا من خيار الناس حضور بديهة وصفاء قريحة وذكاء فؤاد.

وقد سلخ كاتبنا العظيم طفولة مليئة بالآلام والمتاعب، فكان استقبال الدنيا لذلك العبقري الفذ استقبال عداء لا يبشر بالخير، ولولا القوة الكامنة التي ركبتها الطبيعة في فطرة أبنائها الممتازين، لألقى تشارلز

السلاح واستنام – ولا سيما بعد أن تراكم الديون على والده فزج به الدائنون في السجن وتشارلز من العمر يومئذ عشر سنوات لا تزيد.

ووجدت أمه نفسها عاجزة عن إعالة أطفالها الأربعة، فحملتهم إلى السجن كي تعيش على نفقة الدولة مع زوجها الحبيس، أما الولد الخامس تشارلز فقد شق طريقه بعد جهد جهيد إلى وظيفة في مصنع للصق البطاقات على زجاجات الدهان الذي يستخدم لتلميع الأحذية،؛ وقد خلد ديكنز فظائع تشغيل الأحداث في المصانع والقسوة عليهم في الإصلاحيات في روايته الخالدة "أوليفر تويست" ويرجع توفيقه العظيم في ذلك، بعد عبقريته الفطرية، لطول معاشرته للأطفال المشردين، فكم من ليلة قضاها نائماً معهم في جحر واحد، فلمس خفايا نفوسهم عن كثب.

ولم يكن دافع السخرية عند ديكنز هو شقاء طفولته فحسب، بل أيضا شقاء رجولته، فمن سخرية الأيام أن ذلك الكاتب الذي أبدع تصوير مناعم السعادة الزوجية، مني في حياته الزوجية بفشل ذريع أليم، فقضى ثلاثة وعشرين سنة مع زوجة لا يحبها أدنى حب. بيد أن غياب الحب عن خدع تلك الأسرة لم يحل دون انجابها عشرة أطفال بالتمام والكمال!

ولم ينجح إنجاب الأطفال في تخفيف حدة الشقاء الزوجي الذي راح يتفاقم بمرور الوقت سنة بعد سنة، ففي الحين الذي كان العالم المتحضر راكعاً عند قدمي الكاتب العظيم، كان بيته مثالاً تاماً للتعاسة.

ومرة أخرى ترسبت المرارة في أعماق الكاتب العظيم، ويصدق لديه بالتجربة أن متاع الدنيا غرور، وأنه "باطل الأباطيل، الكل باطل وقبض الريح".

* * *

وإن فحولة ديكنز لتتراءى واضحة في كل ما تركه من آثاره الأدبية، فما أشبهه في ذلك بالقديس الذي تتمثل بركته وكراماته في كل جارحة من جسمه، بل في الهين الذاتي من أهداب ثوبه!

وليس أدل على ذلك من أن هذا الكاتب الكبير اشتغل ردحا من حياته بالصحافة اليومية والأسبوعية، فكانت هذه المهنة تقتضيه في كثير من الأحيان أن يكتب موضوعات غفلا من التوقيع.

وهنا أيضا تظهر سخرية الأيام في حياة شارلز ديكنز بالغة الأثر، لأنه كان المؤسس لأكثر من صحيفة قوية حظيت باسمه بإقبال الجمهور وتأييده، ومن هذه الصحف صحيفة الديلي نيوز التي تعد إلى اليوم من أقوى الصحف البريطانية، ومن عجب أنه ما إن كان يفرغ من تأسيس صحيفة من تلك الصحف ونفخ روحه فيها إلى أن تستوي قوية فتية، حتى تتآمر الجريدة على إخراجه، لأنه كان بعبقريته وامتيازه أقوى من أن يغتفر له الأحلاس والإغمار غضة من شأنهم، لا بعمل إيجابي، بل بالفرق الواقعي الهائل بن حضيضهم وارتفاعه الشاهق.

وكذلك لاحقه جابي الدهر في كل ميدان من ميادين حياته ليستأديه ضريبة الامتياز!

وإن شغل النقاد الشاغل في الوقت الحاضر أن يفتشوا في هذه الصحف عن الموضوعات الغفل التي كتبها ديكنز يوماً ما، ولا دليل لهم عليها إلا تلك القوة الخاصة في إنتاجه الأدبي التي تترك على خليقته الفنية مثل طابع الصانع على صناعته، وهي دلالة أقوى وأقطع من كل توقيع صريح.

وأكثر من هذا، هناك موضوعات كان يكتب تشارلز جزءً منها، ثم يضيق وقته عن إتمامها، فيترك ذلك لأحد سواه من المحررين المجيدين، ومع هذا فالناقد يميز بسهولة الموضع الذي انتهت عنده عبارات ديكنز لتبدأ كلمات مساعده المجهول.

وذلك هو دليل الأصالة والشخصية القوية وذاتية الأسلوب، وهذه هي أهم مميزات الفنان، لأن الفنان وأسلوبه شيء واحد لا يختلط بغيره من الأساليب، كما لا تختلط سريرة إنسان فذ بسرائر غيره من الناس، أفذاذاً كانوا أم غير أفذاذ.

* * *

وهذه الرواية — التي بين أيدينا — من النوع الضاحك، وقد أضحكت قراءها كثيراً إبان صدورها منذ أكثر من مائة سنة، وأضحكت أجيالاً كثيرة متعاقبة بعد ذلك التاريخ، لا في انجلترا وحدها، بل في كل ركن

من أركان العالم نفذت إليه الآداب الانجليزية الرفيعة، بلغتها الأصلية أو منقولة إلى ألسنة العالمين في الشرق والمغرب.

والشخصية الأولى في هذه الرواية هي شخصية مستر بيكويك، وهو رجل طيب القلب إلى حد كبير، كان تاجراً من كبار تجار الشاي، أثرى ثم تقاعد عن العمل، وتفرغ للوجاهة وخدمة الإنسانية ببحوثه الاجتماعية التي تقوم على الملاحظة المباشرة لأحوال الناس، وبخاصة في الطبقات الدنيا.

ويجب أن يتصور القارىء ذلك الرجل المسن، وإن ظل في استواء العافية – فهو قد جاوز الخمسين – على حقيقته الواقعة، كي يتمتع بما في الرواية من صور ضاحكة، فإن لشكل مستر بيكويك نصية كبيرة في إثارة المرح في أقواله وأفعاله، وإن كان هو في أعماق نفسه جاداً كل الجد، فهو مضحك وليس ضاحكاً، أي أنه مثير للضحك من حيث لا يقصد ولا يريد.

ومستر بيكويك رجل بدين إلى حد ما، في استواء العمر، على عينيه منظار ذهبي، وفي قدميه حذاء له "طزلك" طويل الذي يلبسه الفرسان. وهو رجل شديد الجد، شديد الاعتزاز بنفسه، شديد التمسك بأهداب الوقار. ولباسه هو لباس "الموضة القديمة"، بالنسبة لمائة وعشرين سنة خلت!

وهو إلى هذا رجل رقيق القلب، سريع التأثر، يصدق كل ما يقال له وأن كان لا يدخل في معقول غلام غرير! لا يشك في شيء، ويثق بكل انسان اعتباطا، ويتطوع للخدمة والنجدة والمروءة ارتجالا، ما وجد إلى ذلك سبيلاً.

وقد كان ذلك كله سبباً في تورط السيد بيكويك في مواقف عسيرة ومحرجة له غاية الحرج ولكنها مضحكة للقارئ ممتعة له كل الامتاع.

ولئن ضحكنا من متاعب هذا السيد الطيب القلب، تلك المتاعب التي يبدو كأنه يبحث عنها وينقب عليها ويتحراها، فإننا خليقون أن نشعر في الوقت نفسه بعطفنا عليه، وحباً له، لأنه رجل حبيب إلى النفس قريب إلى القلب.

وقد أسس مستر بيكويك بعد تقاعده ناديا، أصر الأعضاء على أن يسمي باسمه اعرابا منهم لتقديرهم لفضله ونبله وشرف سمعته، فسموه "نادي بيكويك"، وجعلوه رئيساً دائماً للنادي مدى الحياة.

وكان الهدف الأكبر لذلك النادي الطريف "تقدم المعرفة الانسانية ونشر العلم" وكان أعضاء النادي جميعاً على شاكلة رئيسهم الفاضل في طيبة القلب والسذاجة، فكانوا يعتقدون أن مناقشاتهم وبحوثهم الساذجة على أكبر جانب من الخطورة بالنسبة لتقدم العلوم والمعارف، وأن العالم ينتظر هذه البحوث بكل لهفة واهتمام!

والواقع يخالف ما كان يتصوره هؤلاء السيادة كل الحالة، لأن مناقشاتهم كانت تدور حول أمور من التفاهة بحيث تشير ابتسام الاشفاق أو الخبث لدى من يسمع بها.

ومن أبرز أعضاء "نادى بيكويك" حواريون ثلاثة من أنماط مختلفة، يتفقون جميعاً في حب رئيسهم وتجيله، وفي الاقتداء به، وفي الادعاء العريض لما يجهلون على اختلاف في موضوع إدعاء كل منهم

وقد جمع شمل هؤلاء وألف بينهم انهم كانوا يرون في مستر بيكويك رئيس ناديهم أنه أعظم إنسان عاش على وجه الأرض! ولا يفتأون يقررون أنه "عظيم حقاً" و"نابه" و"خالد".

وقد استعمل ديكنز هذه الصفات بأسلوبه الساخر، كي يبين مدى إغراق هؤلاء السادة في الإعجاب بشيخهم واحترامه ..

وهؤلاء الحواريون الثلاثة هم "مستر تابمان" ومستر وينكل" و"مستر سنودجراس".. ونبدأ بالسيد "تابمان" فنقول إنه رجل بدين مثل مستر بيكويك، ولكنه متقدم في السن ويجب ألا ننسى تقدمه في السن، وأن ذلك التقدم في العمر لم يغير من روحه ومن قلبه، فهو عجوز متصاب، مولع بالجنس اللطيف أينما لاح له، ولهذا سنضحك منه كثيراً حين نراه يتقدم لخطبة سيدة نصف، فيكون جزاؤه الخداع والخيبة.

وأما مستر "وينكل" ومستر "سنودجراس" فأصغر من تابمان سناً، ونقطة الضعف في "وينكل" هي ولعه الشديد بأن يظنه الناس من أبطال الرياضة بأنواعها، ولاسيما ركوب الخيل والصيد واصابة الهدف. ولا حد لدعاواه العريضة في هذا الميدان .. فهو خليق أن يبدو مضحكاً في ارتباكه

حين وضعت تلك المزاعم موضع الامتحان، فإذا به يجهل كل شيء عن صهوات الجياد واصابة الهدف بالرصاص!

وأما السيد "سنودجراس" فشاعر، وحواري مخلص كل الاخلاص لأستاذه بيكويك العظيم. وفي ذات يوم من أخريات مايو سنة ١٨٢٧ اجتمع نادي بيكويك، برئاسة زعيمه العظيم وقرر توسيع دائرة نشاط النادي، نشراً لمنافعه الجزيلة للعلم، وذلك بتأسيس شعبة النادي "بالمراسلة"، أي أن الأعضاء المراسلين يطوفون الريف، ليبحثوا أحواله، ويغذوا النادي بنتيجة بحوثهم وملاحظاتهم المباشرة، تعميما للفائدة، ويدخل في نطاق ملاحظات الأعضاء على الخصوص السلوك البشري، والعادات والتقاليد.

وقد وقع الاختيار للقيام بالرحلة الأولى، وذلك لأهميتها الكبرى، على السيد المحترم الرئيس الدائم مستر بيكويك، وعلى الحوار بين الثلاثة "تا بمان" و"وينكل" و"سنودجراس".

وهذه الرواية إن هي إلا سجل لتلك الرحلة الطريفة الأولى الحافلة بالمفارقات .

الناشر

فاتحة الرحلة

برزت من خدرها شمس النهار، تلك الخادم الصادقة الوفاء بما تتعهد به من أمور الخلق كافة، وشرعت ترسل أشعتها على صباح ذلك اليوم الصحو من أيام الربيع من سنة ١٨٢٧ فبرز ببروزها من خدره مستر "صامويل بيكويك"، وكأنه شمس أخرى نشاطاً وإشراقاً، فنفض عنه أغطية فراشه وستاره، ثم فتح نافذة مخدعه على مصراعيها، وراح –كقرص الشمس– يلقي على العالم من تحته نظراته المستطلعة.

وكان شارع "جوزويل" من تحت قدميه، وعن يمينه شارع جوزيل أيضاً، وعن يساره شارع جوزويل كذلك، ومن أمامه شارع جوزول بعينه، فقال مستر بيكويك في نفسه مستعبراً:

– ما أضيق عقول أولئك الفلاسفة الذين لا يعدو اهتمامهم ما يقع تحت أنظارهم فعلاً، فلا يتجاوزونه إلى ما وراءه من الحقائق الخفية عن الأنظار، فما أحراني إلا أفعل فعلهم فأبقى حبيس شارع جوزويل، ولا أنفذ إلى ما وراءه من غوامض الكون الشائعة في الأقاليم النائية.

ورضي عن نفسه لما فتح الله عليه به من ذلك الخاطر البديع، فدخل الغرفة وانصرف إلى الدخول في ملابسه، ثم أدخل ملابسه – وهو من داخلها– في معطفه الكبير.

ولما كان عظماء الرجال لا يهتمون كثيراً بملابسهم وقيافتهم، لم تستغرق منه حلاقة ذقسنه وارتداء ملابسه واحتساء القهوة إلا أيسر الوقت، وبعد ساعة واحدة كان مستر بيكويك في الشارع وفي يده حقيبة ملابسه، وفي جيب سترته منظاره المكبر، وفي جيب صدارة كراسة مذكراته، على أتم استعداد لتلقي أي اكتشاف جدير بالتسجيل.. وعلى هذه الصورة وصل إلى موقف العربات في ميدان القديس مارتن.

وصاح مستر بيكويك:

– عربة!

فانبرى نموذج غريب من الجنس البشري، عليه سترة من الخيش، ومريلة من القماش نفسه، وحول عنقه سلسلة تتدلى منها لوحة نحاسية مرقومة، فكأنه قطعة معروضة في متحف وعليها رقمها في الكتالوج، وكان هذا الرجل هو ساق الخيل، وصاح هذا المخلوق العجيب بالمستر بكويك:

– لبيك يا سيدى! العربة رقم واحد.. "البرنجي" يخرج!

وأسرع بعضهم فنادى "البرنجي" وجاء به من أقرب خمارة، حيث كان يدخن غليونه الأول في بكرة الصباح على عادته اليومية، واستقر مستر بيكويك وحقيبة ملابسه في العربة، ثم قال للسائق "البرنجي":

– جولدن كروس!

فقال السائق في اشمئزاز للساقي وهو يلهب جواده:

– شلن واحد لا غير يا تومي!

وتحركت العربية، فراح المستر بيكويك يحك أرنبة أنفه بالشلن الذي أعده في يده أجراً للسائق ينتقده إياه عند نهاية الشوط، ثم شرع يفتتح مهمته التي من أجلها قرر تجشم مشاق الإرتحال، ألا وهي استجواب الناس وتسجيل مسالكهم ونمط حياتهم، ولم يضيع وقتاً فسأل سائق العربة:

– ما عمر هذا الحصان يا صاحبي؟

فأجابه السائق وهو ينظر إليه شزراً:

– اثنان وأربعون سنة

فصاح مستر بيكويك، واضعاً يده على كناشة مذكراته بسرعة:

– ماذا تقول؟!

فكرر السائق عبارته السالفة الذكر، فحدق مستر بيكويك بشدة في وجه الرجل، فوجد ملامحه جامدة جمود الجد، فلم يتردد في تسجيل هذه الحقيقة في دفتره على الفور، ثم راح مستر كويك بعد ذلك يبحث في تلافيف دماغه عن أسئلة أخرى يستكمل بها تحقيقه الاجتماعي رقم (١) فسأل السائق هذا السؤال:

– وكم من الوقت تبقيه خارج الإسطبل في كل مرة؟

– أسبوعين أو ثلاثة أسابيع.

فصاح مستر بيكويك في دهشة، وقد خرج الدفتر من مكمنه مرة أخرى:

– أسابيع ؟!

فقال السائق يجيبه في هدوء تام:

– إننا لا نذهب به إلى الإسطبل إلا نادراً، وذلك بسبب ضعفه الشديد.

فزادت حيرة مستر بيكويك وأعاد السؤال:

– بسبب ضعفه؟!

واستطرد السائق دون اكتراث بدهشته:

– إنه يسقط دائماً على الأرض من الأعياء كلما حللنا وثاقه من العربة، أما وهو مربوط إليها ربطاً محكماً للغاية، فلا يستطيع السقوط، ولا يسعه إلا أن يمكث واقفاً على قوائمه، وقد عنينا بأن تجعل للعربة عجلتين كبيرتين متينتين كما ترى، فحينما يتحرك الحصان تجرى العجلتان وراءه فيضطر إلى الجري أمامهما، فلا تسمحان له بالتوقف.

وقد سجل مستر بيكويك كل كلمة من هذا القرار الثمين والاعتراف الخطير في دفتره، بقصد توصيل هذه المعلومات الثمينة إلى النادي بمثابة مثال بارز ودليل قاطع على قوة الحيوية في عالم الخيل وشدة صمودها للظروف مهما بلغ من شدتها.

واستغرق ذلك التسجيل الدقيق مدة كانت كافية لوصول العربة إلى جولدن كروس، فقفز السائق من فوق منصته، وترجل أيضا مستر بيكويك، فتجمع مستر تابمان و مستر سنودجراس ومستر ويشكل الذين كانوا ينتظرون بصبر نافذ وصول عميدهم العظيم، ورحبوا به في احترام ومودة.

وقال مستر كويك للسائق وهو يمد إليه يده بالشلن:

– هذا أجرك.

فما كان أعظم دهشة هذا الرجل العالم حين رأى ذلك الشخص الوضيع المكانة يلقي بالنقود على الأرض، ويطلب إلى مستر بيكويك في عبارة عجيبة أن يتفضل بمصارعته بقيمة ذلك المبلغ!

فصرخ مستر سنود جراس:

– أنت مجنون !

وصاح مستر وينكل:

– أو سكران!

أما تابمان فقال:

– أو كلاهما !!

فما كان من الحوذي إلا أن تصدى لهم جميعاً قائلاً:

– هيا هيا! أنا لكم أنتم الأربعة!

وفي هذه اللحظة تصايح حفنة من حوذية ذلك الموقف وقد تجمعوا في بهجة وحبور في حلقة من حولهم:

– مرحى مرحى! أرنا مهارتك يا سام واشدد عزمك.

وسأل سيد عليه سترة لها كمان من البفتة السوداء:

– ما المسألة يا سام ؟

– مشاجرة! فلماذا سجل هذا رقمي؟

فقال مستر بيكويك في دهشة شديدة:

– أنا لم أسجل رقمك.

– لماذا إذن كتبته في كراستك ؟

– أنا لم أكتبه في كراستي..

فاتجه الحوذي إلى الجمهور الذي التف حول المشاجرة وقال:

– هل يصدق إنسان أن هذا الجاسوس ركب عربتي، فلم يكفه أن يأخذ رقمي، بل راح فضلاً عن هذا يسجل كل كلمة تخرج من فمي؟

فقال حوذي من الواقفين:

– هل فعل هذا حقاً ؟

– أجل فعله، ثم تحرش بي كي أهاجمه، وقد تجهز بثلاثة شهود كي يثبتوا على تهمة الاعتداء، ولكن سأذيقه أفانين العذاب، ولو كلفني هذا ستة أشهر في غيابة السجن.. هيا!

ثم خلع الحوذى قبعته وألقى بها على الأرض في غير مبالاة، وبأسرع من لمح البصر أطار عوينات مستر بيكويك عن واجهة محياه، وثنى ذلك بلكمة قوية على أنفه، ثم بأخرى تماثلها قوة في صدره، ثم بثالثة على عين مستر سنود جراس، ثم برابعة في بطن مستر تابمان، وانتهى بعد ذلك فمسح بمستر وينكل أرض الشارع من الإفريز إلى الإفريز، وقد فعل ذلك كله في بضع ثوان.

وصاح مستر سنود جراس:

– ألا يوجد في هذا المكان شرطي؟

وقال أحد المتفرجين:

– هيا نضعهم تحت الماء ليفيقوا.

وتأوه مستر بيكويك ثم قال:

– ستندم على ما صنعت..

فهتفت الجماهير المحتشدة:

– جواسيس! جواسيس!

وسرت هذه الصيحة بين الناس، فكانت لها نتيجة قوية أوشكت أن تنتهي باعتداء جمعي على الفضلاء الأربعة، لولا تدخل قادم وصل لتوه، يمتاز بطول قامته، ونحافته، وهو في مقتبل العمر، عليه سترة خضراء، فسأل الواقفين:

– ما الموضوع ؟

فصاح الجميع من جديد:

– جواسيس!

فزأر المستر بيكويك بصوت يحمل سامعه على التصديق بقوته وارتفاعه:

– لسنا جواسيس!

فشق الشاب طريقه بين الجمهور المحتشد بحركات عنيفة من ساعديه، ثم واجه مستر بيكويك وسأله عن حقيقة الموقف، فلخص له ذلك العالم الفاضل الموضوع في بضع كلمات، فأخذ ذراع مستر بيكويك في يده وجذبه وراءه بقوة، قائلاً:

– تعال معي إذن.

ثم صاح في الحوذى قائلاً:

– اسمع هنا يا رقم ٩٢٤، خذ هذا أجرك، وانصرف من هنا –هذا رجل فاضل محترم– أعرفه تمام المعرفة واكفنا حماقتك.. من هنا يا سيدي

الفاضل ..أين أصحابك؟ المسألة كلها خطأ أو سوء فهم ..مثل هذه الأمور تحدث دائماً.. في أعرق العائلات.

وعلى هذا النسق من الجمل المنفصلة المتقطعة، يقذفها متلاحقة من فمه كأنها جملة واحدة، استمر الغريب يتحدث وهو يقود مستر بيكويك وحواريه الثلاثة إلى قاعة الإنتظار المعدة للمسافرين في محطة عربات البريد في جولدين كروس.

وما إن استقر بهم المجلس حول مائدة هناك، حتى صاح الشاب الغريب وهو يجذب حبل الناقوس في عنف بالغ:

– هنا أيها الساقي! هات دورة من الكؤوس.. كونياك، ساخناً قوياً عذباً ووفيراً..

ثم نظر إلى سنود جراس نظرة خاطفة وقال:

– هل تؤلمك عينك يا سيدي! اسمع أيها الساقي! هات قطعة كبيرة من اللحم النيء ليضعها هذا السيد على عينه الموجعة، فليس ما هو أحسن من اللحم النيء العلاج الكدمات يا سيدي، ولولا ضيق الوقت ومعاكسة الظروف لنصحتك بعلاج آخر أحسن من هذا، أن تلصقها بعامود النور البارد من الغروب حتى الصباح في أي شارع من شوارع المدينة، ولكني أخشى أن يتجمع حولك الصبيان العفاريت!

وبدون أن يتوقف عن الكلام ليأخذ نفسه اللاهث، ابتلع في جرعة واحدة نصف كوب كبير من الكونياك الممزوج بالماء الحار، ثم ارتمى فوق مقعد كأنه لم يفعل شيئاً خارقاً.

وفي حين كان الحواريون الثلاثة مشغولين بازجاء التحيات والتشكرات إلى الشاب الغريب، أتيحت لمستر بيكويك الفرصة لمواصلة مهامه العلمية والاجتماعية، وكان موضوع هذه المهام في هذه المرة ليس الحوذي، بل ذلك الشاب الذي أنقذه من الحوذي، وبذلته العجيبة التفصيل الخضراء اللون.

وقد أسفرت هذه الدراسة عن الملاحظات الآتية:

فقد كان ذلك الشاب أميل إلى الطول، بيد أن نحافته الشديدة، بالإضافة إلى طول ساقيه، جعلته يبدو للعين أطول من حقيقته، وكانت سترته الخضراء شيئاً محترماً في زمن مضى، حيث كانت فيه هذه الطريقة في التفصيل الزي سائدة، ولكن مما لا شك فيه أنها كانت في ذلك العهد السعيد فوق جسد مخلوق أقصر قامة من صاحبنا هذا بكثير، ذلك أن طرفي الكمين القذرين كانا قصيرين جداً لا يصلان إلى معصميه، وكانت السترة محكمة الأزرار إلى الرقبة، وكان قميصه فيما يبدو بغير باقة أو رباط عنق، ولكنه كان مستتراً عن الأنظار تحت السترة، أما سرواله الأسود فكانت تنتشر فوق أديمه تلك البقع اللامعة التي تنم عن طول الخدمة، ومن تحت السروال زوج من الأحذية تحتل الرقع الجانب الأكبر من

مساحته، ويحاول هذا الحذاء المتداعي أن يحجب عن الأنظار الجورب الأبيض، أو التي كان أبيض فيما مضى قبل أن تلح عليه القذارة، ولكن عبثاً كان يحاول لأن الجورب كان يصر إصراراً شديداً على الظهور للعيان.

وأما شعر هذا الشاب الغريب فطويل أسود، ينتثر في تموجات مهملة من تحت جانبي قبعته العتيقة، كما تتراءى من فجوات في قفازيه بقع بيضاء في معصمه العاري الأبيض اللون.

وكان وجه الفتى نحيلا هزيلا، ولكن تبدو عليه الجسارة ورباطة الجأش والثقة العظيمة بالنفس.

هذا هو الشخص الذي كان مستر بكويك ينعم فيه النظر من خلال عويناته، التي أسعفه الحظ باستردادها سليمة من فوق أرض الشارع، وإليه راح يوجه عبارات الشكر والإمتنان على نجدته وشهامته، بعد أن هدأ الحواريون الثلاثة وفرغوا من شكره ذلك الشكر الحار، فقال الغريب قاطعاً حبل هذا الثناء:

– دعونا من هذا إذا سمحتم، والله إني لمعجب بذلك الحوذي، فقد أحسن لعمري استخدام قبضة يده وأنامله الخمس.

وفي هذه اللحظة دخل سائق عربة بريد روشستر إلى قاعة الاستراحة، وأعلن أن العربية أصبحت على أهبة الرحيل، فرفع الغريب رأسه و حلق فيه وقال:

هذه عربتي، مكاني فيها محجوز – مكان على السطح – أترك لكم دفع حساب هذا الكونياك.. أريد باقي خمسة جنيهات.

ولكن اتفق أيضاً أن روشستر كانت مقصد المستر بيكويك وأصحابه الثلاثة، لأن هذه المدينة كان قد وقع عليها اختيارهم كي تكون مركز بحثهم الأول خارج أسوار العاصمة..

وقد سر هؤلاء السادة غاية السرور لتلك المصادفة التي جعلتهم يختارون البلدة التي يقصد إليها صاحبهم الجديد ومنقذهم الأريب، وأفضوا إليه بخبر هذا التوفيق.. وأبدوا استعدادهم الجلوس معه على المقعد الطويل الكبير الكائن فوق سطح العربة من الخلف، حتى يكونوا جميعاً في مكان واحد للسمر طول الرحلة.

وصاح الشاب الغريب وهو يدفع بمستر بيكويك إلى سقف العرية في عجلة وقوة، بحيث تأثر من ذلك وقار هذا السيد الذي يقام له وزن كبير، قال:

– هيا اصعد!

ثم انثنى ليواجه الحوذي الذي كان قد سأله:

– هل معك حقائب يا سيدي؟

فقال له في غير اكتراث، وبلهجته السريعة:

– من؟ أنا؟ ليس معي إلا هذه اللفافة في ذلك الورق البني اللون، أما حقائبي الأخرى فقد أرسلتها بطريق الشراع، فهي صناديق ضخمة ثقيلة مقفلة يقترب حجمها من حجم بيت كامل! ثقيلة جداً، لا قبل لهذه الجياد بجرها..

وراح وهو يتكلم يدس اللفافة البنية محاولًا إدخالها في جيبه، وفي لفافة ينبئ حجمها عن احتوائها على قميص ومنديل على أكثر التقدير.

وانطلقت العربة في طريقها إلى بوابة الخروج من محطة عربات البريد، فصاح الشاب ذو السترة الخضراء:

– احترسوا لرؤوسكم! رؤوسكم !رؤوسكم! فهذا مكان فظيع، كم حدثت فيه من مآس بسبب إغفال الاحتراس للرؤوس، فمنذ بضعة أيام كان على هذا المقعد الذي نجلس نحن عليه الآن خمسة أطفال، ومعهم أمهم، وهي سيدة طويلة القامة، كانت تأكل شطيرة من «الساندويتش» فنسيت رأسها في غمرة الاهتمام ببطنها، ولم تنحن عند عقد الباب، فوقعت الواقعة، وتلفت الأطفال حولهم فرأوا أمهم بلا رأس، والساندويتش مرفوع في يدها تريد أن تدسه في فمها، ولا فم هناك! فظيع!.. هل تنظرون إلى «هوايت هول»؟ إنها مكان بديع، طاحت فيه رأس ملك من ملوكنا الميامين فيما مضى، ولأنه – مثل هذه المرأة التي كانت تأكل الساندويتش– لم يعرف كيف يحترس لرأسه، فيحنيها في الوقت المناسب!

فهز مستر بيكويك رأسه وقال:

– لقد كنت أفكر فعلًا في تفاهة مصائر الناس وهوانها على القضاء والقدر..

– بديع يا سيدي! بديع! هل أنت فيلسوف يا سيدي؟

فقال بيكويك في تواضع مصطنع:

– أنا يا سيدي ممن يراقبون الطبيعة الإنسانية ويلاحظونها باهتمام.

– وأنا كذلك يا سيدي، وكذلك أيضًا معظم الناس، إذا قل ما يشغلهم من العمل، وكان محصولهم من ذلك العمل القليل أجرًا أقل؛ وهل أنت شاعر أيضًا يا سيدي؟

فقال بيكويك في وقار:

– إن صديقي مستر سنود جراس لديه ملكة شعرية نامية؟

– وأنا أيضًا شاعر، فقد نظمت ملحمة ضخمة، في عشرة آلاف بيت من الشعر الفخم، في ثورة يوليو، وقد نظمت هذه الأبيات جميعًا في التو واللحظة، وفي مكان الثورة نفسه، فكنت كأنني في النهار «مارس» إله الحروب، حتى إذا هبط الليل كنت «أبولو» إله الفنون وصاحب الناي..

فقال مستر سنود جراس:

– وهل كنت حاضرًا هذه المعمعة يا سيدي؟

– ومن إذن سواي كان خليقًا أن يحضرها؟ لقد كنت أطلق النار من بندقيتي مرة، ثم أشعر بانطلاق خاطر في وجداني بعد ذلك فألق بالبندقية جانبًا، وأهرع إلى أقرب خمارة فأدونها شعرًا، ثم أسرع إلى الحرب مرة أخرى، حتى يأتيني خاطر جديد، فأعود إلى الحانة، وأطلب القلم والقرطاس، وأسجل درري في سرعة البرق الخاطف، كي أعود إلى الأعداء..

ثم التفت فجأة إلى مستر وينكل وسأله:

– هل أنت من رجال الرياضة يا سيدي؟

– إلى حدٍ ما..

– إنها فن جميل، جميل جدًا، أتقتني كلابًا يا سيدي؟

فقال وينكل على استحياء:

– ليس في الوقت الحاضر يا سيدي.

– بل يجب أن تقتنيها يا سيدي، فالكلاب حيوانات عظيمة الفائدة، جليلة النفع، عارمة الذكاء، بارعة الحيلة، على قدر من الحصافة عظي؛ لقد كان عندي في وقت من الأوقات كلب صيد عجيب في بابه، خرجت به ذات يوم للصيد، ورأيت سياجًا في طريق فنفذت منه وصفرت بفمي للكلب كي يتبعني، بيد أن الكلب وقف خارج السياج ولم يتبعني، فصفرت مرة أخرى، وناديته باسمه، ولكنه أصر على البقاء حيث هو ولم يتحرك من

موضعه، فذهبت إليه وحاولت أن أجره جرًا، فتشبث بمكانه وراح يزمجر وينظر إلى أعلى، فنظرت إلى حيث نظر، فإذا لافتة مكتوب عليها:

«يعلن حارس الصيد أن لديه أوامر بإطلاق الرصاص على جميع الكلاب التي توجد داخل هذا السياج».

فعرفت السر في امتناعه عن الدخول، أليس هذا الكلب أحكم من بني آدم ؟

فصاح مستر بيكويك، وقد لمعت عيناه:

– هذا والله من أعجب العجب! أتسمح لي يا سيدي بتسجيلها في كراستي؟

– طبعًا طبعًا يا سيدي! فلدي مئات ومئات من النوادر الغريبة عن هذا الحيوان بالذات، إذا شئت سردتها على مسامعك.

ثم التفت إلى مستر تراسي تابمان، ورآه يحدق مشدوهًا في فتاة واقفة في طريق العربة، كانت آية في الملاحة والفتنة، فقال له:

– فتاة مليحة يا سيدي..

– للغاية !

– صحيح، ولكن أين ملاحة الإنجليزيات من فتنة الإسبانيات؟ فهن مخلوقات رائعات، شعر غزير كثير، وعيون سوداء، وقد ممشوق، وحلاوة، وفتنة، وجاذبية، وما شئت قل!

فقال له مستر تراسي تابمان:

– وهل كنت في إسبانيا يا سيدي؟

– بل عشت فيها دهرًا طويلًا

فعاد تراسي تابمان يسأله باهتمام:

– وهل اتفقت لك «غزوات» نسائية كثيرة؟

– غزوات نسائية بالآلاف يا سيدي! بالآلاف!

– إلى هذا الحد ؟

– طبعًا يا سيدي طبعًا.. مثلًا الدون، «بولارو فزجيج» من كبار الأشراف، كانت له ابنة واحدة وحيدة، كالبدر بهاء وسنى، واسمها دونا كريستيانا، وقد أحبتني هذه الحسناء الفاتنة، فاشتعلت غيرة والدها النبيل، وأخذته العزة بالإثم.. ولكن ماذا يصنع والفتاة الفوارة الحيوية مشغوفة بالإنجليزي الوسيم؟ لقد منعها أبوها من الزواج من حبيبها فأهلكها اليأس وتجرعت مادة سامة، وكانت في حقيبتي آلة غسل المعدة، فقمت بإجراء هذه العملية لها حتى أفاقت من غشية السم، فكاد والدها الدون بولارو يخرج من ثيابه فرحًا، ووافق على زواجنا، ووضع يدها في يدي وغسلهما بدموعه الغزيرة.. آه! يا لها من حادثة عاطفية مؤثرة!

فلما فرغ من هذا السرد السريع لقصته المؤثرة جدًا، سأله مستر تابمان بلهفة:

– وهل هذه السيدة معك في إنجلترا في وقتنا الحاضر؟

فالوصف الرائع الذي جلاها به الشاب الغريب قد أسال لعابه، ولكن الشاب الغريب هز رأسه أسي وقال وهو يمر على عينيه المغمضتين بما كان يومًا ما منديلًا قرمزي اللون:

– لقد ماتت هذه السيدة يا سيدي، ماتت! فإنها قد نجت من السم، ولكنها لم تنج من الإجهاد الناشئ عن غسل المعدة، فقد كانت رقيقة التكوين جدًا، فمرضت على الأثر وتوفيت..

فقال سنود جراس ذو المزاج الشاعري:

– ووالدها يا سيدي، ماذا جرى له؟

فقال الشاب في أسى بالغ:

– لقد عضه الندم بنابه، وأثر فيه فادح مصابه، فاختفى ذات يوم من المدينة وذهبت الجهود في البحث عنه عبثًا.. إلى أن تنبه الأطفال اللاعبون في الميدان ذات يوم إلى توقف النافورة النائمة في وسطه عن قذف الماء على جاري عادتها، فأبلغوا البلدية لإصلاحها، فأرسلت مجموعة من العمال لهذا الغرض، ونزحوا منها المياه، فإذا بهم يجدون جسد المفقود مغروسًا في أنبوب النافورة، رأسه إلى أسفل، ورجلاه إلى أعلى، وفي حذائه الأيمن خطاب يعترف فيه بانتحاره ويخلى من مسئولية موته كل إنسان.. فأخرجوه..

فقال سنود جراس في لهفة:

-ثم ماذا يا سيدي؟

– ثم عادت النافورة سيرتها الأولى في قذف الماء!

فقال سنود جراس وقد جالت الدموع في مجاري خياشيمه:

-أتسمح لي ياسيدي أن أسجل هذه المأساة العاطفية الرائعة في كراسي الخاصة الذكرى والاعتبار!

– طبعًا طبعًا يا سيدي! سجل كل ما تشاء، فلدي خمسون قصة أخرى تضارعها تأثيرًا، حدثت كلها لي تحت سماء إسبانيا الرائعة!

وعلى هذا النسق البديع من رواية الأعاجيب والطرائف، التي كان أصحابنا يصدقونها بغير تردد، استمرت الرحلة الممتعة، ولم تتوقف إلا لحظة قصيرة لتبديل خيل المركبة في بعض المحطات المتوسطة، فكانت فرصة انتهزها الغريب لشرب كأس من الخير–دفع بيكويك ثمنها طبعًا– ليجدد نشاطه في الرواية، وهو نشاط –والحق يقال– يضارع نشاط خيل المركبة في الركض!

ومر الوقت بفضل هذا المحدث البارع مرور السحاب، فوصلت المركبة إلى قنطرة روشستر، وقد حفل دفترا سنود جراس وبيكويك بكل مطرب ومعجب من ذكريات هذا الصاحب الفذ.. ووقفت للركبة عند

خان في الشارع الأكبر اسمه «خان الثور» فقال مستر ناتانيال وينكل يسأل الشاب الغريب ذا السترة الخضراء:

– هل ستقيم هنا يا سيدي ؟

– كلا، لن أنزل هنا، ولكن يحسن بكم أن تنزلوا هنا، فالسكن طيب، والإقامة مريحة، والأسرة لينة، والأجر مناسب، أما الخان المجاور، فغالي الثمن جدًا، فاحش الغلاء فإذا نظرت إلى الساقي أضاف إلى الحساب ثمنًا لهذه النظرة نصف ريال! وإذا تعشيت عند صديق في الخارج، كلفك ذلك في فاتورة الحساب أكثر مما لو تعشيت في الخان!

التفت مستر وينكل إلى مستر بيكويك وغمغم ببضع كلمات، فانتقل الهمس من مستر بيكويك بعد ذلك إلى مستر سنود جراس، ومن مستر سنود جراس إلى مستر تابمان، ثم تلاحقت من الجميع هزات الموافقة، تبادلوها في صمت، وأخيرًا توجه مستر بيكويك إلى الغريب بالخطاب؛ قال:

– لقد أديت لنا يا سيدي خدمة جليلة هذا الصباح، فهل تسمح لنا أيها السيد بأن تقدم لك آية هينة على اعترافنا بجميلك، وذلك بالتوجه إلى سيادتك بالتنازل بقبول دعوتنا إياك لتناول العشاء معنا هنا هذه الليلة؟!

– بكل سرور.. ولست طبعًا أفرض رغبتي، ولكن شيئًا من الطيور المحمرة وعيش الغراب سيكون ولا شك وفق المرام.. وفي أي ساعة هذا العشاء؟

فأخرج مستر بيكويك ساعته ونظر فيها مليًا ثم قال:

– الساعة الآن الثالثة، فهل نجعل موعدنا في الخامسة؟

فقال الغريب:

– هذا يوافقنا جدًا..سأكون هنا في الخامسة تمامًا.. وأرجو، حتى ذلك الوقت، أن تحسنوا المحافظة على أنفسكم أيها السادة!

رفع قبعته البالية المعقوفة الأطراف عن رأسه بضع بوصات، ثم أعادها في غير اكتراث فاستقرت في وضع مائل، ثم هرول مخترقًا فناء الخان إلى الخارج، والربطة البنية تطل من جيب سترته الخضراء.

وقال مستر بيكويك معلقًا على الأثر:

– هذا ولا ريب رجل كثير الأسفار في بلاد العالم المختلفة، وله نظر ثاقب في أحوال الإنسان والحيوان وسائر الموجودات..

فقال سنود جراس:

– كم أتحرق شوقًا إلى رؤية جانب من أشعاره..

أما وينكل فقال:

– وكم أتمنى أنا لو رأيت كلبه هذا الذي يجيد قراءة اللافتات!

وأما مستر تابمان فلم يقل شيئًا، لأنه كان منصرفًا بأفكاره جميعًا إلى تخيل «دونا كريستينا» الحسناء، ومعدات غسل الأمعاء، والنافورة التي توقفت حينًا من الدهر من قذف الماء.. وقد غامت بالدموع عيناه.

واهتم السادة الأربعة بعد ذلك بحجز حجرة للجلوس، وحجرات نوم، كما أمروا بإعداد عشاء طيب، وخرجوا بعد ذلك للتجول في المدينة وما جاورها إلى أن حن الموعد المضروب مع الغريب.

مغامرات الليلة الأولى

وفي الساعة الخامسة تمامًا أقبل الشاب الغريب في حلته الخضراء الغريبة، وفي أعقابه أقبل طعام العشاء. وكان الشاب قد تخلص من اللفافة البنية اللون التي كانت تزحم جيبه فيغص بها. وكأنما ساعده ذلك على أن يكون أذلق لسانًا وأطلق جنانًا، لو أن ذلاقة لسانه الأولى تركت زيادة لمستزيد.

ورأى الشاب الغريب الساقي وهو يكشف عن طبق من الأطباق، فسأله:

– ما هذا ؟

– سمك موسى يا سيدي.

– سمك موسى! هذا سمك العاصمة، لأنه يأتينا من لندن؛ ولهذا ينتهز أصحاب المسارح المتنقلة فرصة قدومهم من لندن فيحضرون كميات كبيرة منه معهم، بل عربات بأسرها، في عشرات السلال، ويبيعونها بربح كبير هنا؛ ما أحذق هؤلاء الممثلين!

ثم التفت إلى مستر بيكويك وقال له بسرعة:

– ألك في كأس من النبيذ يا سيدي؟

– بكل سرور.

فصب الغريب لنفسه كأسًا شربها مع مستر بيكويك، ثم أخرى شربها مع مستر سنود جراس، ثم ثالثة شربها مع مستر تابمان، ثم رابعة شربها مع مستر وينكل، ثم خامسة شربها مع المجموعة كلها دفعة واحدة..

وكانت سرعته في ابتلاع الخمر تباري -والحق يقال- سرعته في الكلام! فلما فرغ من شرب هذه الكؤوس، نظر إلى الساقي الذي كان يخدم المائدة وقال:

– ما كل هذه الجلبة التي أسمعها في السلم يا ساقي؟ فثمة تصاوير صاعدة، ونجارون هابطون، ومصابيح وزجاج وآلات طرب، فماذا هناك؟

فقال الساقي:

– إنه حفل راقص يا سيدي..

– أهو مهرجان؟

– كلا، بل حفل خيري لمساعدة الفقراء يا سيدي.

وهنا تدخل مستر تابمان فسأل الغريب في اهتمام:

– ألك دراية بهذا البلد يا سيدي؟ وهل فيه نساء مليحات؟

– كثيرات، مليحات غاية الملاحة؛ فهذه مقاطعة «كنت» وكل إنسان يعلم ما هي مقاطعة «كنت» المشهورة بتفاحها، وكرزها، وملاحة نسائها.. ألك في كأس يا سيدي؟

فقال تابمان الذي سال لعابه لذكر محاسن نساء كنت:

– بكل سرور يا سيدي.

فصب الشاب الكأسين، ثم أسرع بشرب قدحه شرب الهائم، أما تابمان فشرد ببصره قليلًا، مفكرًا في موضوع الحفل الراقص، ثم قال:

– كم أحب أن أذهب إلى هذا الحفل.. وأتنمى ذلك من كل قلبي.

فقال الساقي بسرعة:

– التذاكر في البار يا سيدي، وثمن الواحدة نصف جنيه.

فعاد تابمان يؤكد رغبته الشديدة في شهود ذلك الحفل البهيج، ولكنه لم ير استجابة في عين مستر بيكويك الشاردة، ولا في عين مستر سنود جراس المعتمة، فانصرف إلى احتساء الخمر، الكأس تلو الكأس، يخالف بينهما بالحلوى والفاكهة التي وضعها الساق على المائدة منذ برهة وجيزة ثم انسحب ليترك للمجموعة فرصة التحدث بحرية مدة الساعتين التاليتين للعشاء، وتولى الشاب الغريب تنشيط حركة الشرب، حتى فرغت زجاجات النبيذ التي على المائدة، فطلبوا كمية أخرى.. وراح الغريب يتحدث، وأصحاب بيكويك يصغون إليه باهتمام عظيم.

وكان تابمان يشعر مع مضي الوقت إنه أشد رغبة عن ذي قبل في حضور ذلك الحفل الراقص الذي اجتمعت فيه جميع حسان البلدة ؛ أما مستر بيكويك فظهرت على وجهه من أثر الخمر علامات الأريحية وحب

الإحسان؛ وأما مستر وينكل ومستر سنود جراس فغلبهما النعاس! وقال الغريب لتابمان:

– أراهم قد بدأوا الرقص في الدور العلوي، ألا تسمعهم؟ إن المزمار يعزف تارة، والناي تارة أخرى.. ما أبدع هذا..

وكانت الأصوات تصل فعلًا من الطابق العلوي إلى الطابق الأرضي، دالة على ابتداء أدوار الرقص على نغمات الموسيقى.. فقال تابمان في تحسر:

– كم كنت أحب أن أذهب!

فقال الغريب في تحسر كتحسره:

– وأنا كذلك، ولكن لعنة الله على هذه الحقائب الثقيلة التي اضطررت لإرسالها في سفينة فتأخرت، وليس عندي ما أرتديه لو ذهبت.. أليس هذا مزعجًا؟

ولما كان التسامح والسخاء من أهم صفات أعضاء نادي بيكويك الأماثل، ولما لم يكن بين هؤلاء الأعضاء من هو أشد حرصًا على تلك المزية الخلقية النادرة من مستر تراسي تابمان، حتى إن مساعداته المالية والأدبية لغيره من أعضاء المجتمع أكثر من أن تحصى، لذلك قال للشاب الغريب:

– كم كان يسعدني أن أعيرك ثوبًا من ثيابي لرتديه في هذه المناسبة، ولكنك رجل نحيف القوام، وأنا..

– سمين جدًا.. كأنك الإله باخوس.. ها ها.. هات زجاجة النبيذ!

ولسنا ندري على التحقيق هل استاء مستر تابمان من هذا التصوير الساخر اللاذع أم لا، وهل استنكر في أعماق نفسه طريقة طلب الغريب منه أن يعطيه زجاجة النبيذ أم لم يستنكرها، ولكن المقطوع به إنه أعطاه زجاجة النبيذ، ثم حدق في وجهه بضع لحظات وسعل مرتين، والشاب الغريب يقابل هذه النظرات الفاحصة هدوء وثبات.. إلى أن قال تابمان:

– لقد كنت أتكلم عن ذلك الحفل الراقص، وكنت بصدد أن أقول لك إنه إذا كانت ملابسي واسعة جدًا بالنسبة لك، فإن ملابس صديقي مستر وينكل يمكن أن تكون أشد موافقة لك.

فنظر الغريب ناحية مستر وينكل الغارق في نومه، وقاس قامته طولًا وعرضًا بعينيه، ثم لمع في هاتين العينين بريق الارتياح وهو يقول:

– إنه وفق المرام فعلًا!

ونظر مستر تابمان حوله، فرأي مستر بيكويك قد لحق بالزميلين الآخرين في عالم الأحلام السعيدة، ولكن على نغمات موسيقية خاصة تختلف عن موسيقى الرقص التي تعزف في الدور العلوي، فقد كانت تنبعث

من أنفه أصوات غطيط عميق، وقد مال رأسه فوق صدره، وراح جسده يهتز كأنه يرقص بحركات توافقية مع ارتفاع الغطيط وهبوطه!

واشتدت وطأة الإغراء على تابمان، فهو يريد من كل قلبه أن يحضر هذا الحفل الراقص كي يسجل خواطره الأولى عن مستوى الجمال بين نساء مقاطعة كنت؛ وهو كذلك شديد الرغبة في اصطحاب الشاب الغريب الظريف معه، لأنه يجهل المكان وعاداته المرعبة، وتقاليد المنطقة، كما يجهل المكان ومراكزهم الاجتماعية في حين أن الغريب يعرف عن هذا كله ما يوحي بأنه قضى حياته منذ نعومة أظفاره في هذه الجهة من بريطانيا.

هذا كله، ومستر وينكل نائم مستغرق في نومه، ولدي مستر تابمان من التجارب في هذا الصدد ما يجعله يوقن بأنه إذا انتبه من نومه، فلن يفكر إلا في الذهاب فورًا إلى فراشه ليستأنف النوم بكل همة ونشاط..

وأخرجه من خواطره هذه صوت الضيف الذي لم يمل من تكرار هذه العبارة:

– املأ كأسك، وأعطني الزجاجة!

فصدع تابمان بالأمر، فكان هذا الكأس فضل حسم الحيرة، فقال:

– إن حجرة نوم وينكل من داخل حجرتي، ولو أني أيقظته الآن لما استطاع لغلبة النوم عليه أن يعي ماذا أريد منه، بيد أني أعرف أن لديه بدلة

جديدة زرقاء في حقيبته، فإذا لبستها هذه الليلة لتحضر بها الحفل الراقص معي، ثم رددتها قبل الصباح إلى مكانها، لما كان هناك أدنى ضير.

فقال الضيف في حماسة:

– هذه فكرة نيرة! وإنها والله لمهزلة، أن يكون عندي أربع عشرة بدلة جديدة في حقائبي واضطر إلى ارتداء بدلة جديدة رجل آخر؟! ولكنها فكرة بديعة.

فقال تابمان يستحثه:

– هيا إذن نشتري التذاكر..

– لا أرى داعيًا لاقتسام الجنيه بيننا، فلنقترع عليه، اقذف الجنيه الذهبي في الهواء، وأنا أراهن على التنين.. ها ها! كسبت أنا! ادفع ثمن التذاكر!

جذب تابمان حبل الجرس، وطلب التذكرتين من الساقي بعد أن نقده الثمن، كما طلب شمعة وصعد إلى حجرته، التي من داخلها حجرة وينكل، ليعود بعد ربع ساعة ببدلة كاملة تخص السيد ناثانيال وينكل المحترم!

وراح الضيف يجربها أمام مرآة جديدة، وهو ظاهر السرور، فقال تابمان:

– إنها بدلة جديدة يا صاحبي، وقد صممها وينكل بنفسه لتكون الزي الرسمي المقترح لنادينا، وها هو شعار النادي "زر ذهبي كبير فوق رسم رأس مستر بيكويك" وعلى جانبيه حرفًا «ن. ب» أي نادي بيكويك.. أليس هذا بديعًا؟

– ها ها! أرى البدلة قصيرة شيئًا ما عند الخاصرة، وما أشبهها ببدلة ساعي البريد، لولا لونها الأزرق الفاتح، ولكنها مثل بدلة ساعي البريد في اختلال مقاييسها، لأن بدل سعاة البريد تفصل بالجملة، دون حساب للمقاييس، ويشاء العليم الخبير أن ينال القصار البدل الطويلة، وأن ينال الطوال البدل القصيرة!

ولكن هذا لم يمنع صاحبنا من إتمام اللبس، ومحاولة التأنق، حتى صلح شأن البدلة، فلما تم له ذلك، تأبط ذراع مستر تابمان وأسرع يصعد معه السلم، ينهب درجاته نهبًا إلى الطابق العلوي حيث الحفل.

وقال الحاجب الواقف عند الباب كي تعلن أسماء الداخلين:

– الأسماء يا سيدي!

وهم مستر تابمان أن يدلي إليه باسمه، بيد أن رفيقه منعه بإشارة من يده وقال للحاجب.

– ليست هناك أسماء يا هذا!

ثم همس في أذن تابمان المبهوت:

– لا فائدة من أسمائنا هنا، لأننا غير معروفين في هذه الناحية من العالم، وإن كانت أسماؤنا ذات قيمة في حد ذاتها، إلا أنها ليست أسماء رنانة، فلا بأس بها في مجموعة صغيرة محدودة، أما في وسط جمهور حافل مثل هذا، فلن تترك أي أثر.. فدعهم يعتقدون فينا التنكر.

-سيدان من وجهاء لندن متنكران، أو أجنبيان من الأوساط الراقية جدًا.. أي شيء يا صاحبي إلا الحقيقة.

وفتح الباب على مصراعيه، ودخل الغريب ومستر تراسي تابمان قاعة الرقص الكبرى، وهي قاعة طويلة جدًا، تنتشر حولها مقاعد مكسوة بالحرير الأحمر القرمزي، وتضيئها شموع ركبت في مصابيح من زجاج منقوش؛ أما العازفون والضاربون فقد خصص لهم مكان مرتفع في صدر القاعة.. وفي وسطها حلقة الرقص التي كان يدور فيها زوجان أو ثلاثة من الحاضرين.

وفي غرفة مجاورة أعدت مائدتان مربعتان، عليها شمعدانات، وأوراق اللعب، وجلست إليهما سيدتان عجوزتان ونفر من الرجال البدناء ذوي الكروش، يلعبون الويست.

وكانت الرقصة قد قاربت ختامها، والراقصون يذرعون القاعة في بطء، فوقف مستر تراسي تابمان وصاحبه الغريب في ركن من أركانها يراقبان جماعة الحاضرين ويجيلان فيهم الأنظار ثم أدلى مستر تابمان بحكمه قائلًا:

– نسوة حسان فاتنات..

فقال الغريب في لهجة العارف ببواطن الأمور:

– رويدك لحظة، فإن الجانب البهيج لم يبدأ بعد، لأن كبار القوم لم يحضروا حتى الآن، وكبار القوم في هذه البلدة هم رجال ترسانة بناء السفن وكبار موظفيها، وكبار موظفي هذه الترسانة يجهلون صغارهم أو هم

يتجاهلونهم وكذلك صغار موظفي الترسانة يتجاهلون التجار وصغار الملاك، فإذا نزلنا في سلم المجتمع حتى نصل إلى المسار في السوق وجدناه يتجاهل جميع الناس أو هو لا يتجاهل أحدًا، لأنه ليس هناك من هو أقل منه! فالناس هنا كما تري متزمتون جدًا ويعتزون إلى درجة الغطرسة بالحدود الاجتماعية الضيقة.

فقاطعه مستر تابمان سائلًا في دهشة:

– من هذا الغلام الصغير ذو الشعر الخفيف والعينين الحمراوين، في هذا الزي التنكري الغريب؟

– هس، صه من فضلك! عينان حمراوان! زي تنكري! غلام صغير! هراء! فهذا حامل علم الفرقة السابعة والتسعين، رايت أونرابل ويلموت سنايب، من أبناء البيوتات الكريمة، فآل سنايب عائلة عريقة، عريقة جدًا.

وفي هذه اللحظة صاح الحاجب الموكل بالباب في صوت جهوري:

– سير توماس كلبر، والليدي كلبر، والآنستان كلبر!

فسرت في القاعة همهمة قوية حينما دخلها رجل طويل القامة يرتدي حلة زرقاء لامعة الأزرار، وسيدة عظيمة الهامة ترتدي ثوبًا من الحرير الأزرق، وآنستان شابتان متماثلتان في القد والاعتدال، مع ميل إلى الطول كوالديهما، وعليهما ثوبان من الحرير الأزرق الذي ترتديه والدتهما، فقال الغريب همسًا في أذن مستر تابمان:

– هذا عضو مجلس الإدارة المنتدب، ومدير الترسانة، رجل عظيم، عظيم جدًا!

وفي هذه اللحظة كانت لجنة تنظيم هذا الاحتفال الخيري قد استقبلت أسرة كلبر وعلى رأسها عميدها، فوضعتها في صدر القاعة الأعلى، وتهافت الرايت أونرابل ويلموث سنايب وغيره من علية الحاضرين على الآنستين يقدمون لها التحيات والمجاملات.

أما السير توماس كلبر العظيم الشأن الرفيع القسام فوقف منتصب القامة كأنه عمود نور في الطريق العام، وراح يرمق الحاضرين بنظرات الاستعلاء الاستشرافية التي يرمق بها أيضًا مصباح النور في الشارع رعاياه من عابري السبيل.

ودوى في القاعة صوت الحاجب مرة أخرى:

– مستر سميثي، ومسز سميثي، والآنستان سميثي.

فسأل مستر تراسي تابمان صاحبه:

– وما هو مستر سميثي؟

– من كبار موظفي الترسانة.

وانحنى مستر سميثي انحناء الإجلال أمام السير توماس كلبر.

فأجاب سير توماس كلبر على هذه التحية بإيماءة من رأسه كان يبدو عليها ما بذله السير توماس كلبر من جهد مشكور لإظهار التواضع.

أما الليدي كابر فقد ألقت نظرة تلسكوبية من خلال منظارها اليدوي الذهب على السيدة الفاضلة مسز سميثي، وكذلك رمقت المسز سميثي بهذه النظرة عينها مسز مخلوق آخر أقل في الدرجة الاجتماعية من جناب زوجها الموقر، لأن هذا المخلوق الآخر ليس من رجال ترسانة البحرية وصاح الحاجب بعد ذلك معلنًا:

– الكولونيل بلدر، والمسز عقيلة الكولونيل بلدر، والآنسة بلدر.

فقال الغريب مجيبًا على نظرة تابمان الاستفهامية:

– هذا قائد الحامية العسكرية..

وكانت الآنسة بلدر موضع ترحيب حار من الآنستين كلبر، أما التهليل والحفاوة التي نشبت بين المسز عقيلة الكولونيل بلدر والليدي كليبر فكانا –والحق يقال– يجلان عن وصف الواصفين؛ وبلغ الترحيب الودي مداه بين الكولونيل بلدر والسير توماس كليبر، وكان ذلك على صورة تبادل علب النشوق، ثم وقفا في تفاهم صامت يرمقان جميع الحاضرين بنظرة كنظرة الملك المتوج إلى رعاياه الخاضعين.

وفي الوقت الذي كان فيه كبار سادة المدينة، أعني آل بلدر، وآل كلبر، وآل سنايب، مستغرقين في المحافظة على وقارهم من أن يفلت زمامه من أيديهم، كانت الطبقات الأخرى من مجتمع مدينة روشستر تقلد سادتها في الجانب الأدنى من القاعة، فيحاول كل شخص أن يستعلي على من يستطيع الاستعلاء عليه.

وقد تفرغ الضباط الأقل أرستقراطية من رجال الفرقة السابعة والتسعين للإلتفاف حول أسر الموظفين المتوسطين من رجال الترسانة، كما كانت زوجات المحامين وتجار النبيذ يتزعمن الطبقة الثالثة، ولا سيما زوجة الصيدلي التي كانت تحظى في بعض الأحيان بزيارة بيت آل الكولونيل بلدر، أما مسز توملينسن، زوجة وكيل مكتب البريد، فقد انعقد الإجماع على زعامتها لفريق عائلات صغار الموظفين المدنيين والتجار.

وكان من أكثر الشخصيات تمتعًا بالإستلطاف والمودة المشتركة، في حدود درجته الاجتماعية طبعًا، رجل قصير القامة بدين، حول جمجمته سياج شبه منتظم من الشعر الفاحم يحيط بمساحة متوسطة لامعة عارية تمامًا من كل ما ينبت في فروة الرأس، وهذا الشخص هو الدكتور سلمر جراح الفرقة السابعة والتسعين.

وأكبر دليل على محبة الجميع الدكتور، إنه كان يتناول النشوق من صندوق كل شخص تقريبًا، ويثرثر مع كل إنسان، ويضحك ورقص ويمازح ويلعب الويست، ويفعل كل ما يخطر باله، ويتنقل حتى لكأنه في كل مكان في آن واحد. ولكن هذا كله لم يشغله عن شيء بدا ظاهرًا للعيان في تلك الحفلة ظهورًا واضحًا جدًا، وذلك إنه كان لا يكل ولا يمل من حف أرملة نصف دقيقة التكوين برعاية لا نظير لها، وكانت ثياب هذه الأرملة فاخرة، وكذلك مجوهراتها، مما يدل على أن لديها ثروة طيبة هي أحسن صيد تضاف إلى دخل محدود، كدخل الدكتور الضابط.

وقد تركزت نظرات كل من مستر تراسي تابمان وصاحبه على الدكتور والأرملة برهة من الزمن، ثم هتك الغريب حجاب الصمت قائلًا:

– ثروة كبيرة، امرأة عجوزة، طبيب مختال، فكرة لا بأس بها، سيضحك كثيرًا.

فالتفت مستر تابمان إليه وحملق في وجهه متسائلًا عن معنى هذه الكلمات المقطعة، فقال الغريب:

– سأرقص مع هذه الأرملة.

فسأله تابمان:

– ومن مع هذه الأرملة؟

-لا أدري، فإني لم أرها في حياتي كلها من قبل، عن إذنك، فسوف أقطع عنها الطبيب في وسط الرقص.

ثم انتقلت الغريب فعبر القاعة، وانحنى فوق رف المدفأة، وشرع يحدق في مزيد من الإحترام والإعجاب الحزين المترفق بالسيدة العجوز المتصابية، وراح مستر تابمان ينظر إليه في دهشة صامتة، فإذا بالغريب يتقدم بسرعة، لأن العجوز كانت قد انتهزت فرصة انشغال الطبيب الضابط عنها لحظة مع سيدة أخرى، فأسقطت مروحتها على الأرض، فأسرع الشاب الغريب بالتقاطها وقدمها إليها، مشفوعة بابتسامة وانحناءة، وكان الجواب من

ناحيتها إيماءة شكر ثم بضع كلمات تشعب بعدها الحديث، ثم نهضا معًا ونزلا حلبة الرقص مع الراقصين.

ولاشك أن دهشة مستر تابمان كانت كبيرة جدًا، بيد أن دهشة الطبيب كانت تفوقها مراحل، والواقع أن نجاح الغريب السريع راجع إلى شبابه، فقد أحست العجوز بزهو لوقوع مثل هذا الشاب الملح الناضر في حبائل فتنتها، فتناست تمامًا كل ما حاطها به الدكتور سلمر من عناية ورعاية والتفات أمام قوة الشباب الذي يفترض فيه أن يجتذب الشباب، فما بالك بالشيخوخة التي بعد عهدها به.

ولكن كل هذا لم ينهض عذرًا لدى الدكتور سلمر الذي ملكه الهياج، فهل بلغ به الهوان، وهو جراح الفرقة السابعة والتسعين، أن يكسف نوره في لحظة واحدة شاب نكرة لا يعرفه أحد، ولم يره أحد من قبل، الدكتور سلمر جراح الفرقة السابعة والتسعين يرفض من أجل أي شخص؟ هذا مستحيل! هذا لا يمكن أن يكون! ولكنه كان، حصل ووقع، وها هما أمام عينيه، ماذا أيضًا؟ إنه يقدم أيضًا صاحبه، معنى هذا أن المودة توثقت وأن الصلة سارت بهذه السرعة العجيبة شوطًا بعيدًا، فهل صدقته عيناه؟ إنه لينظر، ثم يعيد النظر فيرى نفسه مضطرة إلى تصديق ما يرتسم على شبكية عينيه، فها هي الأرملة أمامه تتمايل وتتمايس هنا وهناك في نشاط مصطنع، وهذا هو الشاب ينظر إليها والبشر يملأ وجهه.

وتحمل الدكتور الضابط الموقف ما يجدر بأي جندي شجاع يعمل في خدمة صاحب الجلالة، وصبر على مضض مدة الرقص، وراح يتشاغل بتوزيع الشراب والبسكويت، الذي كانت تقوم به سيدات الجمعية الخيرية في رشاقة وتدلل.

وبعد لحظات اختفى الغريب خارج القاعة، ومعه الأرملة، لتوصيلها إلى عربتها؛ فأسرع سلمر وراءه كالبرق الخاطف، وقد بلغت ثورته المكظومة غايتها، حتى لقد كان جسمه كله ينتفض بالهياج والإستنكار، فراح يتصبب عرقًا.

ورأى الغريب يصعد السلم عائدًا بعد توديع مسز بادجر، ومعه مستر تراسي تابمان. وكان الغريب يتحدث إلى تابمان بصوت منخفض وهو يضحك، فأحس الطبيب بظمأ شديد إلى دمه ورغبة قوية في افتراسه، لأنه تجاسر بالانتصار عليه، وهو الضابط الباسل الذي ينبغي أن يكون الانتصار بجميع أنواعه حكرًا له.

وقال الدكتور في صوت رهيب وهو يخرج بطاقته:

– سيدي، إن اسمي سلمر، الدكتور سلمر يا سيدي.. من الفرقة السابعة والتسعين المعسكرة في ثكنات شاثم؛ وهذه هي بطاقتي.

وكان خليقًا أن يزيد على هذه الكلمات، لولا أن استنكاره كان يسد عليه منافذ التنفس والكلام.

وتقبل القريب هذا الكلام الملتهب بكل فتور وأجاب بهدوء تام:

– آه، سلمر؟ تشرفنا جدًا، وإنها لعناية تنم عن أدب جم، ولكني آسف جدًا لأني لست مريضًا في الوقت الحاضر يا «سلمر» وفي أول فرصة أمرض فيها سأستدعيك.

فقال الطبيب الهائج:

– أنت، أنت مراوغ يا سيدي، جبان، خسيس كذاب، ما هذا؟ ألا توجد وسيلة يا سيدي لحملك على تقديم بطاقتك إلي؟

والعادة المألوفة في الأوساط الراقية والعسكرية أن تقديم البطاقة معناه التحدي وطلب المبارزة بيد أن الشاب الغريب استمر على تجاهله لهذه الحقيقة.

ونظر الغريب نظرة جانبية إلى مستر تابمان وقال:

– فهمت، إن الخمر في هذه الحفلة قوية جدًا على ما يظهر، فرجال الجمعية أسخياء جدًا في هذا الصدد، وهذه طبعًا حماقة كبيرة، إذ كان الأحسن كثيرًا أن يسقوا بعض الناس عصير الليمون لا غير، لأن القاعات مقفلة والحرارة فيها شديدة، مما يؤثر على أعصاب الرجال المتقدمين في السن، فيقاسوا كثيرة في الصباح التالي، ولاسيما من الندم على ما يكونون قد ارتكبوه في الليلة السابقة. وهم الغريب بعد ذلك أن يرقى درجة أخرى من السلم، فإذا بالضابط الثائر يصيح به:

– أنت تقيم في هذا الخان، وأنت الآن مخمور، وسيبلغك أخبار من جهتي في الصباح، وسأعرف كيف أعثر عليك لنصفي هذا الموضوع.

وكانت نظرات الدكتور سلمر كأنها شعلتان من اللهب، ثم ثبت قبعته فوق رأسه بحركة عنيفة تدل على مقدار ثورته، ثم بعد ذلك استأنف الغريب ومستر تابمان الصعود متجهين إلى غرفة نوم مستر تابمان كي يعيد الشاب الغريب ثيابه المستعارة إلى صاحبها الغافل عنها بأحلامه، مستر وينكل المحترم.

وقد وجدا هذا السيد الفاضل يغط غطيطًا منتظمًا في فراشه، فتمت عملية رد الأمانة إلى مكانها بكل هدوء وسهولة، وكان الغريب يبدو مرحًا نشيطًا،ء أما مستر تراسي تابمان فكانت الخمر قد أدارت رأسه، كما أدارها نور الشموع وهذا العدد الكبير من النساء المحتفيات بزينتهن، فلم يخطر له سوى أن الأمر كله كان مزحة لطيفة خفيفة ليست لها أي معقبات.

وما أن فارقه صديقه، حتى راح يتحسس بطريقة متعثرة موضع فراشه، وبعد جهد وصل إليه واستلقى والتف بالأغطية، فلم يلبث أن استغرق في الحال في نوم عميق.

اليوم التالي

ما كادت الساعة تدق معلنة السابعة من صباح اليوم التالي، حتى كان عقل مستر بيكويك الراجح قد روع من حالة اللاشعور التي كان غارقًا فيها، على صوت دق مرتفع على باب حجرة نومه، وجلس مستر بيكويك في فراشه وقال:

– من هناك؟

– الموكل بالأحذية يا سيدي.

– وماذا تريد؟

– من فضلك يا سيدي، هل لك أن تخبرني أي سيد من حضرات السادة أعضاء فريقكم الموقر هو صاحب البدلة ذات اللون الأزرق الفاتح، والزر الكبير المذهب الذي يحمل الحرفين ن. ب؟

ففكر مستر بيكويك بينه وبين نفسه قائلًا:

– لا بد إنه أعطاها في الليلة الماضية لصاحب الخان كي ينظفها مما قد يكون قد علق بها من الغبار، ثم نسي صاحب الخان من هو صاحبها، فأرسل يسألني بصفتي رأس الفريق ومصدر السلطة.

ومض هذا الخاطر برأس مستر بيكويك، فقال بصوت مرتفع:

- مستر وينكل.. ثالث باب على اليمين.

فأجابه الموكل بالأحذية وهو ينصرف مسرعًا:

- شكرًا لك يا سيدي.

وبعد لحظة واحدة كان مستر تراسي تابمان يصرخ من فراشه، وقد استيقظ مذعورًا على صوت طرق عال على بابه:

- ماذا جرى؟

فأجابه الموكل بالأحذية من خارج الدار.

- هل أستطيع أن أكلم مستر وينكل يا سيدي؟

فصاح مستر تابمان مناديًا من الغرفة الداخلية:

- وينكل.. وينكل.

فأجابه صوت ضعيف من بين أغطية الفراش:

- ماذا ؟

- أنت مطلوب، هناك من يطلبك عند الباب.

وما إن أتم هذه الكلمات القليلة حتى استلقى في فراشه من جديد وأسلم نفسه لملائكة النعاس.

أما وينكل المسكين فقفز من فراشه بسرعة وراح يستر نفسه بما اتفق له من قطع الملابس وهو يقول:

– مطلوب ؟! مطلوب من من وأنا على هذا البعد الشاسع من مدينة لندن؟ من ذا الذي يمكن أن يطلبني هنا؟

وأجابه الموكل بالأحذية حين فتح وينكل الباب وواجهه بالسؤال:

– هناك سيد في حجرة القهوة في الطابق الأسفل يا سيدي، وهذا السيد يقول إنه لن يأخذ من وقتك إلا لحظة واحدة يا سيدي ولكنه مصر على مقابلتك في الحال.

فقال وينكل المبهوت:

– عجيب جدًا! ولكني سأهبط بعد لحظة واحدة.

ثم التف في عباءة وهبط السلم، فوجد امرأة عجوزة تنظف حجرة القهوة بمساعدة ساقيين وكان في الحجرة ضابط في ثيابه العسكرية وقد وقف يحدق من النافذة، فاستدار على عقبيه حينما أحس بدخول مستر وينكل، ثم أحنى له رأسه بطريقة جافة، وأمر الخادم بمبارحة الغرفة وإغلاق الباب بعناية، ثم قال:

– مستر وينكل فيما أعتقد؟

– إن اسمي وينكل فعلًا يا سيدي.

– لن تعجب يا سيدي حين أبلغك أنني حضرت لمقابلتك في هذا الصباح موفدًا من قبل صديقي الدكتور سلمر، من ضباط الفرقة التاسعة والسبعين.

فحملق وينكل وقال:

– دكتور سلمر!

-نعم دكتور سلمر، وقد طلب إلى أن أعبر لك عن رأيه في أن سلوكك في الليلة الماضية كان سلوكًا لا يليق برجل مهذب، ولا يطيق احتماله رجل مهذب.

ومع ما قرره الضابط في بداية كلامه من أن وينكل لن يأخذه العجب، إلا أن عجب وينكل كان في الواقع عجبًا حقيقيًا صادقًا لاحد له، فلم يغب ذلك عن عين رسول الدكتور سلمر، وهذا واصل كلامه قائلًا:

– وإن صديق الدكتور سلمر قد رجاني أن أضف إلى ذلك إنه يعتقد اعتقادًا راسخًا أنك كنت مخمورًا أثناء جانب من السهرة، وربما لم تكن واعيًا لمبلغ الإهانة التي اقترفها في حقه، ولهذا خولني أن أقول لك كأنك إذا اخترت أن يكون هذا التعليل مبررًا لسلوكك؛ فيسره في هذه الحال أن يقبل من جانبك اعتذارًا كتابيًا، تكتبه بخط يدك، وبإملائي.

فقال وينكل وهو في غاية العجب والحيرة:

– اعتذار كتابي!

فقال له الزائر العسكري بكل هدوء:

– طبعًا، لأنك بطبيعة الحال تعرف نتيجة عدم الاعتذار.

فقال مستر وينكل الذي بدأ تفكيره يضطرب اضطرابًا لا مزيد عليه من جراء هذا الحديث الشاذ:

– وهل كلفت بتبليغي هذه الرسالة شخصيًا وبالاسم؟

فقال الزائر:

– إنني لم أكن حاضرًا ما وقع بالأمس بنفسي، ولكني علمت أنك قد رفضت رفضًا تامًا أن تعطي بطاقتك للدكتور سلمر، كما أعطاك هو بطاقته، فقد طلب مني ذلك الصديق أن أبحث عن حقيقة شخصية لابس البدلة الغريبة التفصيل ذات اللون الأزرق الفاتح، التي يعلوها زر مذهب بجمل صورة رأس إنسان والحرفين ن. ب.

فترنح مستر وينكل لفرط دهشته حين سمع هذا الوصف الدقيق لبدلته الجديدة، في حين استطرد الزائر قائلًا:

– وقد قمت ببعض الاستعلامات في بار هذا الخان، فتوصلت إلى التأكد من أن صاحب هذه البدلة المذكورة قد وصل إلى هنا في صحبة ثلاثة من السادة، وذلك بعد ظهر يوم أمس فأرسلت في الحال إلى السيد الذي أُفهمت أنه رئيس المجموعة الرباعية، فأحالنا في الحال إليك..

فلو أن برج قلعة روشستر انخلع من أسسه الراسية وتحرك حتى وقف أمام نافذة حجرة القهوة في ذلك الخان، لما كانت دهشة مستر وينكل لذلك الحادث شيئًا مذكورة بالقياس إلى دهشته حين سمع هذا الكلام.

وكان أول خاطر نادر إلى ذهنه أن بدلته الجديدة الفريدة في نوعها سرقت، ولهذا قال:

– أرجو أن تسمح لي بأن استمهلك لحظة واحدة؟

قال الزائر الثقيل:

– بالتأكيد أسمح لك..

وأسرع مستر وينكل ينهب درجات السلم نهبًا، ودخل المخدع كأنه قذيفة مدفع، ففتح حقيبته فوجد بدلته فيها، ولكنه أدرك من بعض علامات في طريقة طيها أن هذه البدلة كانت ملبوسة بالأمس، فسقطت البدلة من يده وقال لنفسه:

– لابد إذن أن الرجل محق في كلامه، فقد شربت ليلة أمس مقدارًا كبيرًا من الخمر بعد العشاء، وفي ذهني آثار مختلطة لنزهة في المدينة، وسيجار دخنته لا أدري أين، فالواقع أنني كنت في غاية السكر، ولابد أنني بدلت ملابسي وأنا في هذه الحالة من السكر البين، وليست هذه البدلة المميزة، وتوجهت إلى مكان ما، وأهنت هذا الرجل.. نعم، هذا ما حدث ولا مراء وما هذا الرسول إلا النتيجة السوداء لما وقع مني في حال غيبوبتي.

وعاد مستر وينكل أدراجه إلى حجرة القهوة، وقد عزم على قبول دعوة الدكتور الضابط سلمر، وأمره إلى الله، وأسوأ العواقب ترتسم وتتراقص أمام مخيلته..

وكان الدافع لمستر وينكل إلى هذا القرار أكثر من اعتبار واحد، وأول هذه الاعتبارات طبعًا هو سمعته التي عرف بها في نادي بيكويك، فقد كان منظورًا إليه هناك على أنه من أكبر الثقات في ألعاب السيف، دفاعًا، وهجومًا، وأنه مبارز قدير، ورام بالنار لا يشق له غبار؛ فلو إنه تراجع عند أول امتحان عرض التقدير مبلغ مهارته، وتحت سمع رئيس النادي وبصره فقل على سمعته في ناديه العتيد السلام.

ويضاف إلى هذا إنه يذكر إنه سمع فيما سمع أن المبارزة تتم في الغالب بمسدسات محشوة بالرصاص، ولكن إذا اتفق الشاهدان فإن المسدسين لا يعبآن بالرصاص، بل بعدد قليل من كرات الرش، فإذا هو اختار مستر سنود جراس الشاعري المزاج شاهدًا له، وصور له الموقعة تصويرًا مفزعًا خطير النتائج، فلا شك أن سنود جراس سينقل المسألة إلى مسامع مستر بيكويك العظيم الشأن، فيبادر مستر بيكويك إلى إبلاغ السلطات المختصة، فتحول السلطات المختصة دون وقوع هذه المقتلة التي سيذهب ضحيتها إن هي تمت عضو النادي الفاضل..

كانت هذه هي خواطر مستر وينكل حين عاد إلى حجرة القهوة، وبناء عليها بلغ زائره الذي كان في انتظاره إنه قد قبل تحدي الدكتور سلمر، فقال الضابط على الفور:

-إنك ستحيلني طبعًا على صديق لك تختاره شاهدًا، كي أرتب معه زمن المبارزة ومكانها على حسب الأصول المرعية.

فقال له وينكل فيما يشبه عدم المبالاة:

– لا لزوم لهذا الإجراء على الإطلاق، ويكفي أن تحدد لي الزمان والمكان، وأتولى أنا إبلاغهما إلى صديقي فيما بعد.

فقال الضابط في عدم اكتراث:

– أيوافقك أن يكون ذلك في أصيل اليوم؟

فقال وينكل:

– جميل جدًا..

ولكنه كان يقول في سريرته طبعًا إنه شيء فظيع للغاية، بيد أنه تجلد، وأصغى محدثه الذي استطرد قائلًا:

– هل تعرف حصن «بيت»؟

– أجل، فقد رأيته أمس.

– إذا أنت جشمت نفسي عناء الدخول والتوغل في الحقل الذي فيه الخندق، وسرت على الدرب الذي يتجه يسارًا، متفرعًا من ناحية التحصينات، ومشيت قدمًا، فإنك ستجدني في انتظارك، كي أقودك إلى مكان منعزل يمكن أن يحسم فيه الموضوع دون أن يخشى تدخل أحد..

فاضطرب قلب وينكل فوق اضطرابه وقال في نفسه:

– احتياط ضد التدخل..

أما الضابط فنظر إليه وقال:

– أظن أنه لم تعد هناك ترتيبات أخرى؟

– لا أعتقد أن هناك ما يدعو إلى أكثر من هذا..

– طاب يومك..

– طاب يومك..

وانصرف الضابط، وهو يرسل من فيه صفيرًا يوقع به لحنًا طروبًا!

المحذور

انقضى الإفطار صباح ذلك اليوم في ثقل لا مزيد عليه، فمستر تابمان لم يكن في حالة تسمح له بالنهوض من فراشه بسبب ما حدث له في الليلة السابقة من إجهاد وإعياء ناجم عن الإفراط في احتساء الخمر، وأما مستر سنود جراس فبدا ذلك الصباح وكأنه واقع تحت تأثير خيبة أمل شاعرية من النوع الحاد! وحتى مستر بيكويك الرفيع القدر ظهرت عليه في صدر هذا اليوم أعراض غرام مفاجئ بالصمت وبالمياه الغازية!

وراح مستر وينكل يتربص لسنوح الفرص، فلم يطل انتظاره لها كثيرة، ذلك أن مستر سنود جراس لم يلبث أن أبدى رغبته في زيارة قلعة المدينة القديمة، لعل في أنقاضها وأبراجها العتيقة ما يقيم المسترخي من سليقته الشعرية فيعتدل مزاجه؛ ولما كان وينكل هو عضو الجماعة الوحيد القادر على المشي في ذلك الصباح، فقد خرجا معًا.

فلما انحدرا في ثنية الشارع الرئيسي قال وينكل:

– سنود جراس يا صديقي العزيز، هل أستطيع أن أعول على كتمانك للسر؟

والواقع إنه ألقي عليه ذلك السؤال وهو يتمنى لو أجاب صاحبه سلبًا، بيد أن سنود جراس قال له بسرعة وعزم:

– تستطيع طبعًا يا صديقي، وهاك يمين مغلظة..

فقاطعه وينكل وقد هاله أن يسد صاحبه في وجه نفسه باب إفشاء السر، وذلك الإفشاء هو أمله الوحيد في النجاة من الموت:

– كلا. .كلا؛ لا تقسيم، لا لزوم لذلك إطلاقًا.

فأنزل مستر سنود جراس ذراعه الذي كان قد رفعه إلى السماء استعدادًا لحلف اليمين، وبدا عليه مظهر الإصغاء الجدي لما يقوله وينكل:

– أريد معونتك يا صديقي العزيز في مسألة تصل بالشرف.

فشد سنود جراس على يده بحرارة وقال:

– ثق من هذا العون يا صديقي..

وقال وينكل، وهو يجتهد أن يجعل المسألة تبدو أقرب إلى الخطر:

– إنها مسألة بيني وبين دكتور.. اسمه الدكتور سلمر، من ضباط الفرقة السابعة والتسعين، فهي إذن مسألة طرفها الآخر ضابط، يسانده ضابط آخر؛ وموعد اللقاء في أصيل هذا اليوم، في حقل منعزل عن العمران وراء حصن «بيت».

فقال سنود جراس بحماسة أسف لها وينكل:

– اطمئن، فسأكون أنا شاهدك!

وإنه لمن العجب حقًا أن يخبر الإنسان إلى أي مدى يكون أقرب المقربين بعيدًا عن الاضطراب ما دام ليس طرفًا في موضوع الخطر المباشر، ويبدو أن مستر وينكل كان يجهل ذلك أو لعله يعرفه ولكن حرج الموقف أنساه إياه، فراح يقيس شعور صديقه بشعوره الشخصي، متوهمًا أن ما يمسه لا بد أن يمس صديقه بنفس الدرجة، فقال يستحث صديقه على الشعور بالانزعاج:

– قد تكون النتائج خطيرة جداً ..

فقال سنرد جراس في اطمئنان غريب:

– أرجو ألا يكون شيء من ذلك.

فعاد وينكل إلى القول:

– ولكن الدكتور فيها أعتقد ماهر في الرماية.

فأجابه سنود جراس في هدوء عميق وثبات:

– معظم هؤلاء العسكريين يحسنون إصابة الهدف، ولكنك أنت أيضًا تجيد الرماية جدًا، أليس كذلك؟

فلم يسع وينكل المسكين إلا أن يجيب بالإيجاب، ولما رأى إنه قد عجز كل العجز عن إثارة قلق صاحبه بهذه الطريقة، غير خطته، فقال في صوت يختلج بالانفعال العنيف:

– إذا صرعني، فستجد في مظروف سأتركه بين يديك رسالة تحملها إلى.. والدي.

بيد أن هذه الخطة فشلت أيضًا كما فشلت سابقتها، أجل، إن مستر سنود جراس قد تأثر كثيرًا لهذا التكليف، ولكنه تقبله وكأنه عاش حياته كلها ساعي بريد!

واضطر وينكل إلى البحث عن خطة جديدة، فقال:

– إذا قتلت أنا، أو قتل الدكتور، فإنك يا صديقي العزيز سوف تحاكم ولا شك باعتبارك شريكًا متواطئًا في هذه الجريمة، وضميري يوبخني كثيرًا لإقدامي على الزج بصديق لي في السجن، ربما إلى الأبد!

فأخذ مستر سنود جراس هذا الكلام شيئًا ما، بد أن بسالته الفطرية أبت أن تنهزم أمام أي اعتبار شخصي، فقال بحماسة:

– إني في سبيل الصداقة مستعد لمواجهة جميع الأخطار.

فكم من لعنة صبها مستر وينكل –في سره طبعًا– على رأس هذا الصديق الحميم المتشبث بأهداب الوقار، وهما سائران في صمت جنبًا إلى جنب، وقد غرق وينكل في مشاكله ومتاعبه التي لا يدرك لها أولًا من آخر، فلما آذن الصباح أن ينقضي ملكته الرهبة والقنوط، فألقى بسهمه الأخير، قائلًا وقد وقف عن المشي فجأة:

– يا سنود جراس، إياك أن تخذل في هذا الأمر، أسامع أنت؟ إياك! وإياك أيضًا أراك أن تخبر السلطات المحلية بمكان المبارزة وموعدها، إياك! وإياك أن تستعين برجال الشرطة للحيلولة بيني أو بين الدكتور سلمر الضابط في الفرقة السابعة والتسعين المعسكرة في الوقت الحاضر في تحصينات شاتام، وبين الإشتراك في هذه المبارزة، إياك ثم إياك!

فقبض مستر سنود جراس على يد صديقه، وهزها بشدة وقال له بحماس وعزم شديدين:

– لن أفعل هذا بأي ثمن!

فسرت رعدة باردة في كيان مستر وينكل كله، وقد تلاشى لديه كل أمل في إثارة الفزع في قلب صديقه، حتى لقد راودته نفسه أن يهجم عليه ويخنقه بيديه!

وبعد ذلك قام سنود جراس باستئجار طاقم كامل يشمل مسدسًا وكمية من البارود والرصاص، وقام شاهد الدكتور سلمر بنفس العملية، ثم بعد ذلك عاد مستر وينكل ومستر سنود جراس إلى الخان، حيث انصرف من وينكل إلى اجترار همومه فيما يتعلق بالمعركة الوشيكة الوقوع، وأما مستر سنود جراس فأقبل على إعداد سلاح صديقه بكل همة ونشاط، وجعل يشحمه ويزيته كي يكون سهل الأداء مضمون الانطلاق.

وبعد ساعة قال له وينكل بصوت مضطرب:

– هل أعددت كل شيء؟

فأجابه سنود جراس قائلًا:

– كل شيء، اطمئن كل الاطمئنان، فهناك كمية كافية من الذخيرة، ففي حالة فشل إطلاق الرصاصة الأولى، سيكون لدينا طلقات أخرى احتياطية، وقد وضعت في جيبي جانبًا من ورق الصحف لننتفع به في حشو المسدس إذا لزم الأمر.

وذلك كما هو ظاهر دليل على صدق الوفاء، كان يجب أن يشعر إزاءه مستر وينكل بكل تقدير وعرفان، ويظهر أن تقدير مستر وينكل للجميل كان أقوى من أن يعبر عنه، لأنه لاذ بالصمت، وإن كان قد استمر في المشي في الغرفة جيئة وذهابًا.

ولما بلغ الصديقان أول الحفل المتفق عليه، قال سنود جراس:

– إننا في موعدنا بالضبط، فها هي الشمس على حرف الأفق الغربي.

فتطلع مستر وينكل إلى القرص الغارب، وكأنه مشرف على الغرق في بحر من الدماء، وخطر له خاطر أليم، ربما احتذى هو أيضًا مثل ذلك النجم العظيم فغرق في بركة من الدماء، دمائه هو..

وبعد أن سارا بضع دقائق، قال وينكل:

– ها هو الضابط.

فقال سنود جراس:

– أين هو؟

– هناك، هذا الرجل الملتحف بالعباءة الزرقاء.

فنظر مستر سنود جراس في ذلك الإتجاه الذي أشار إليه أصبع صديقه، فلمح شخصًا بتلك الصفة فعلًا، وأظهر الضابط شعوره بحضورهما بأن لوح لهما بيده، فتبعاه عن كثب.

وكان المساء يزداد ظلمة دقيقة بعد دقيقة، والريح لها هزيم وصفير في الحقول المقفرة، كهزيم الجن أو العمالقة، فكان لذلك المنظر الموحش أثر وجيع في شعور مستر وينكل الذي أحس كأنه مشي نحو حتفه الذي سعى إليه بنفسه، فلما بلغا الخندق الواسع عند ناصية التحصينات أجفل وينكل جفالة رهيبة، لأنه خيل إليه كأن الخندق قبر ضخم فغر فاه لإلتهامه.

وترك الضابط الممر المطروق، ثم تسلق سياجًا ودخل حقلًا مرويًا مسورًا. فتبعه الصديقان، وإذا في الحقل رجلان واقفان في الانتظار، أحدهما رجل بدين أسود الشعر، والآخر رجل قوي البنية كان جالسًا فوق مقعد من مقاعد الميدان. فقال سنود جراس:

– هذا هو خصمك ومعه طبيب فيما أعتقد، فاشرب جرعة من الكونياك.

فتناول وينكل الزجاجة التي قدمها إليه صديقه واحتسى منها جرعة قوية لعلها تفيد في تقوية عزيمته.

واقترب شاهد الخصم، فقال وينكل:

- هذا يا سيدي هو صديقي مستر سنود جراس.

فانحنى الشاهد وأخرج مسدسًا شبيهًا كل الشبه بالمسدس الذي كان يحمله سنود جراس، ثم قال مخاطبًا سنود جراس في برود:

- أظن يا سيدي إنه ليس لدينا ما يقال، فقد رفضت تقديم الاعتذار.

فقال سنود جراس وقد بدا لأول مرة يشعر بالقلق:

- ليس هناك فعلًا ما يقال.

وانهمك الشاهدان بعد ذلك في قياس المسافات، فلما فرغا من ذلك بدا يعينان موضع الخصمين، كما تقدم الضابط الشاهد من الدكتور سلمر، كما تقدم سنود جراس من مستر وينكل، فقال له:

- كل شيء على ما يرام، وهذا هو المسدس، فأعطي عباءتك.

- لا تنس الرسالة التي أعطيتك إياها يا صديقي.

فقال له سنود جراس بلهجة عادية جدًا:

- طبعًا طبعًا، ثبت يدك واصرعه بطلقة واحدة.

فخيل إلى مستر وينكل أن هذه الوصية تشبه تمام الشبه صيحات الغوغاء حين يتفرجون على ألعاب المصارعة، ولكن هذا الخاطر لم يمنعه من أن يخلع عباءته في صمت، ويعطيها لسنود جراس ثم يتناول منه المسدس.

وابتعد الشاهدان، وجلس المراقب على كرسي الميدان، ثم تقدم الخصمان كل منهما والآخر، وكان مستر وينكل معروفًا على الدوام بالدقة، ولعل هذا هو السبب الأساسي في إنه أقفل عينيه حين وصل إلى نقطة الوقوف، حتى لا يشهد مصرع أخ له في الإنسانية بيديه، بد أن إغلاقه عينيه منعه من أن يرى الظاهرة الغريبة التي طرأت على سحنة الدكتور سلمر، فإن ذلك السيد أجفل، ثم راح يحملق، ثم تراجع إلى الخلف، ثم فرك عينيه بيديه وحلق مرة أخرى، وأخيرًا صاح بأعلى صوته:

– قف! قف! ما هذا؟

وأسرع الشهود الثلاثة نحوه متعجبين، فصاح بهم:

– ليس هذا رجلي.

فصاح شاهده الذي كان رسوله في الصباح إلى وينكل:

– ليس رجلك؟!

كما صاح سنود جراس أيضًا:

– ليس رجلك؟! وصاح المراقب صاحب كرسي الميدان وقد أقبل يجره في يده:

– ليس رجلك؟! فقال الدكتور القصير:

– طبعًا ليس هو، ليس هذا هو الشخص الذي أهانني الليلة الماضية.

فقال شاهده متعجبًا:

– شيء غريب وتلاه صاحب كرسي الميدان قائلًا:

– غريب جدًا، والمسألة الآن تنحصر في الآتي، هل هذا السيد يمكن أن يعتبر بحكم وجوده في ميدان البارزة، هو الشخص الذي وجه الإهانة إلى صديقنا الدكتور سلمر مساء أمس، أم لا؟ وليس هناك أي قيمة لكونه هو الشخص نفسه فعلًا أو ليس هو، لأن وجوده هنا الآن معناه إنه معتبر نفسه كأنه أهان صديقنا بالأمس!

وبعد أن أصدر هذه الفتوى، أخرج صندوق النشوق وراح يملأ منه خياشيمه في أناة ووقار.

وصاح الدكتور سلمر: «وقف! قف! ليس هذا رجلى»

وهو يلقي على ما حوله نظرة الرجل الحصيف الذي يعتبر المرجع الأخير في الموضوع الذي يتحدث فيه أما مستر وينكل فكان في مفتوح العينين والأذنين أيضًا، وقد أذهله أن يسمع خصمه يدعوه إلى وقف القتال قبل أن يبدأ، ثم فهم بعد ذلك أن في الأمر شيئًا من الخلط وسوء

التفاهم، فاطمأن خاطره ووجدها فرصة سانحة لتنمية شهرته بالشجاعة، فتقدم بجسارة وقال بصوت ثابت غير مضطرب:

– لست أنا ذلك الشخص، أعلم هذا منذ البداية!

فقال الرجل الحصيف صاحب كرسي الميدان وصندوق النشوق:

– إذن هذه إهانة جديدة للدكتور سلمر، وسبب كاف لإتمام البارزة فورًا.

فقال شاهد الدكتور سلمر له:

– أرجوك أن تهدأ يا باين، والآن قل لي يا سيدي.. لماذا لم تخبرني بهذه الحقيقة عند ما قابلتك في الصباح؟

فعلق الرجل الحصيف على هذا السؤال ثائرًا مستنكرًا بقوله:

– هذا هو العجب في الموضوع! إهانة لا شك فيها.

فعاد الضابط يقول:

– أكرر عليك الرجاء بالهدوء يا باين، هل أعيد عليك سؤالي يا سيدي؟

وحينئذ قال وينكل الذي انفسح له بعض الوقت لتدبر الجواب:

– لقد كتمت عنك هذه الحقيقة يا سيدي، لأنك وصفت شخصًا مخمورًا ساقط المروءة، بأنه كان يرتدي البدلة التي كان لي شرف –لا لبسها فحسب– بل شرف ابتداعها أصلًا، فهي الزي الرسمي المقترح يا سيدي العزيز لنادي بيكويك الموقر بمدينة لندن، وإن شرف هذا الزي مما أعتبره

مسئولًا مني بحق الإختراع وبحق العضوية على السواء، ولهذا فقد قبلت التحدي الذي أبلغتني إياه بغير تردد.

تقدم الطبيب باسم المحيا مادًا يده إلى وينكل وقال:

– يا سيدي العزيز، إنني أحترم فيك هذه البسالة، واسمح لي يا سيدي أن أقول إنني معجب كل الإعجاب بمسلكك المشرف، وآسف كل الأسف لأنني جشمتك مشقة هذه المقابلة بغير داع.

ابتسم مستر وينكل ابتسامة عريضة وقال:

– هذا شيء تافه لا قيمة له، فلا تجر له ذكرًا يا سيدي.

فقال الدكتور سلمر:

– إنني أشعر بمزيد الزهو والإفتخار لتعرفي بك يا سيدي.

فقال وينكل في شيء غير قليل من كرم الأخلاق:

– وإن سروري لا يقدر يا سيدي بمعرفتك.

وتصافح الخصمان مرة أخرى، فتصافح بعد ذلك الشاهدان، كما صافح باين مستر سنود جراس، وأخيرًا جعل سنود جراس يهز يد وينكل وهو مزهو أعظم الزهو بصديقه الذي سلك هذا المسلك النبيل.

وقال شاهد دكتور سلمر بعد ذلك:

– أعتقد إنه يمكننا الآن أن ننصرف.

فقال دكتور سامر:

– بالتأكيد.. بالتأكيد.

بيد أن باين قال بوقاره المعهود:

– اللهم إلا إذا كان مستر وينكل يشعر في قرارة نفسه أن شعوره قد مس من قريب أو بعيد بهذا التحدي، وفي هذه الحالة لا يسعني إلا أن أقرر أن له الحق في طلب الترضية، وإذا لم يحصل عليها فله أن يبارز.

فبادر وينكل بإظهار منتهى إنكار الذات، إذ أعلن إنه راض قرير العين هكذا.

فعاد الرجل يقول بنفس الطريقة:

– ولكن أيضًا إذا رأى الشاهد أن شعوره مس بسبب أي ملاحظات غير ودية ربما تكون قد صدرت مني في المرحلة الأولى من هذه المقابلة، وله الحق في أن يطلب مني الترضية أو المبارزة في الحال.

وأسرع مستر سنود جراس بالتعبير عن امتنانه العميق لهذا العرض السخي من جانب باين، مصرحًا أن ليس هناك محل الشكوى أو التذمر من أي شيء في أي مرحلة من مراحل المقابلة وبهذا انتهى الجدل، وبارح الجميع الميدان، وهم في حالة نفسية أحسن بكثير من الحالة التي دخلوا بها.

وفي الطريق دارت محادثة ودية بين الدكتور سلمر ومستر وينكل، فسأله الدكتور:

– هل ستقيم هنا طويلًا يا سيدي؟

– أعتقد أننا سنرحل بعد باكر.

فقال الطبيب في أدب وظرف:

– أعتقد أنني سأحظى بتفضلك بزيارتي أنت وصديقك في مسكني، كي نمضي معًا ليلة لطيفة، بعد هذا الخطأ الذي وقع، فهل أنت مشغول هذه الليلة بالذات؟

فأجابه وينكل:

– إن لنا صديقين هنا، ولا أحب أن أفترق عنهما هذه الليلة، فيا حبذا لو جئت أنت وصديقك الشاهد لزيارتنا في الخان.

فقال الدكتور على الفور:

– مع عظيم السرور، هل يناسبك موعد الساعة العاشرة؟

فقال وينكل مرحبا:

– جدًا أيها العزيز، فيسعدني كل السعادة أن أقدمكما لصديقينا مستر بيكويك ومستر تابمان.

– سيكون في هذا منتهى السعادة إلى حقًا.

فقال سنود جراس:

– هل حضوركما مؤكد؟

– كل التأكيد.

وفي هذه الأثناء كانوا قد وصلوا إلى الطريق العام، فتبادلوا تحيات ودية جدًا ثم تفرقوا، فذهب الدكتور سلمر وصديقاه إلى الثكنات، وتوجه مستر وينكل وصديقه مستر سنود جراس إلى الخان، ليستعدا لاستقبال الضيفين الكريمين.

على غير انتظار

تسرب شيء من القلق إلى وجدان مستر بيكويك المحترم بسبب غياب صديقيه وينكل وسنود جراس غيابًا لم يسبقه تنبيه، وليس له ما يبرره؛ وكأن من شأن تصرفات الصديقين الشاذة صدر ذلك النهار أن تزيد شعلة ذلك القلق استعارًا. ولهذا بدا عليه سرور أكثر من المعتاد حين أبصرهما داخلين فقام وحياهما بحرارة، ثم سألهما باهتمام أكثر من المعتاد أيضًا عن السبب الذي عساه أن يكون قد شغلهما عنه كل ذلك الوقت.

وأوشك مستر سنود جراس أن يجيب على هذا السؤال بتقرير مفصل عن وقائع ذلك اليوم، لولا إنه تنبه لوجود شخص في صحبة مستر بيكويك عدا مستر تابمان والصديق الغريب الذي حضر معهم من لندن، وكان هذا الشخص غريب النظر إلى حد كبير، فهو مخلوق هزيل، ضامر الوجه، غائر العينين، ولكنهما لامعتان براقتان، يزيد من بريقهما وغرابتهما ما يتهدل على وجنتيه من خصلات شعره الأسود الفاحم، وكان يخيل للناظر إلى خديه الغائرين أن هذه ليست سحنته الطبيعية وأنه إنما يفتعل ذلك افتعالًا، وقد أحاط ذلك الرجل عنقه بشال أخضر، تتهدل أطرافه فوق صدره، وأما سترته وسرواله وحذاؤه فنماذج لفعل البلى وأثر الزمن.

وتركزت عينا مستر وينكل على هذا الشخص الغريب، فالتفت نحوه مستر بيكويك وأشار إليه قائلًا:

– هذا صديق صديقنا اللندني، وقد اكتشفنا هذا الصباح أن صديقنا على صلة بالمسرح المحلي في هذا البلد، وإن كان يكتم هذا محافظة على سمعة الأسرة، وهذا السيد زميل له في المهنة، وكان بصدد سرد حكاية طريفة على مسامعنا عند دخولكما.

فقال الشاب ذو البدلة الخضراء الذي جاء معهم من لندن، موجهًا الكلام إلى مستر وينكل في شبه همس:

– إنه كنز لا ينضب له معين من النوادر والطرائف، ولكنه ليس ممثلًا حقًا، بل من أولئك المتسكعين حول المسرح لأداء أي خدمة تطلب منه، واسمه جيمي.

فرحب مستر وينكل ومستر سنود جراس بالسيد جيمي في أدب جم، وطلبًا له قدحًا من الكونياك، ولنفسيهما أيضًا، ثم جلسا مع الآخرين إلى المائدة، وحينئذ قال مستر بيكويك:

– والآن يا سيدي، هل لك في التفضل علينا بإتمام ما كنت تقص على مسامعنا؟

فصب جيمي لنفسه كأسًا شربها جرعة واحدة، بدأ يروي قصة طويلة عن رجل ممن قست عليهم ظروف الحياة من الممثلين السابقين، وكيف قاسى أنواعًا من العذاب، وصب ألوانًا أمر منها على رأس امرأة، ولكنها كانت مثالًا رائعًا للصبر والاحتمال، فزلزل عقل الرجل لأنه ظن أن هذه المرأة لا يمكن أن تكون بشرًا، فلو كانت بشرًا لكرهته أو فارقته، ورسخ في

ذهنه أيضًا أنها شيطان في صورة امرأة طيبة طاهرة، يتربص به حتى إذا خرجت روحه تلقفها وتنزل بها إلى الجحيم بدلًا من أن تتركها تصعد إلى السماء.

وكان جيمي يفصل القصة تفصيلًا دقيقًا مستفيضًا، سلخ فيه وقتًا طويلًا، دون أن يصل إلى نهايتها، وكانت الآذان كلها مصغية إليه، ولكن حدث ما قطع حبل هذا الإصغاء، وهو دخول الساق إلى الحجرة –وهي حجرة الجلوس الخاصة بهم– وقال لمستر بيكويك:

– ثلاثة من السادة يا سيدي.

فرمق مستر بيكويك الساقي بنظرة غضب، ثم أجال بصره في الحاضرين كأنه يتساءل عمن عساهم يزورونه في هذا البلد الغريب الذي لا يعرفه فيه أحد، ولا يعرف هو فيه أحدًا.

وفي هذه اللحظة صاح مستر وينكل وهو يهب واقفًا:

– رباه! هؤلاء أصدقاء لي، دعهم يدخلون.

فلما انصرف الساقي لينفذ هذا الأمر، قال وينكل لبيكويك:

– إنهم رفاق ظرفاء، من ضباط الفرقة السابعة والتسعين، تعرفت إليهم في ظروف خارقة للعادة هذا اليوم، وأحسب أنك ستحبهم كثيرًا يا سيدي وأنت أيضًا يا مستر تابمان.

فانفرجت أسارير مستر بكويك في الحال، وفي هذه اللحظة عاد الساق وأدخل السادة الثلاثة من باب القاعة، فنهض مستر وينكل قائلًا:

– الملازم تابلتن؛ مستر بيكويك، الدكتور باين؛ مستر بيكويك صديقي مستر تابمان، دكتور باين؛ دكتور سلمر، مستر بيكويك، مستر تابمان، دكتور سلا ..

ووقف مستر وينكل عن إتمام عبارته فجأة، لأنه رأى انفعالًا قويًا عنيفًا على سحنة كل من مستر تابمان والدكتور سلمر.

وقال الدكتور سلمر وهو يضغط على مخارج الحروف ضغطًا خاصًا:

– لقد قابلت «هذا» السيد من قبل.

فقال وينكل مبهوتًا:

– أحقًا! واستطرد الدكتور وهو يلقي بنظرة نكراء على الشاب الغريب ذي البدلة الخضراء:

– وهذا الفخم أيضًا، إذا لم أكن مخطئًا، وأعتقد أنني وجهت له دعوة صريحة ملحة لتصفية الموقف بيننا، لكنه آثر النكوص.

ثم انحنى دكتور سلمر على أذن صديقه الملازم تابلتن، وراح يهمس طويلًا، حتى إذا انتهى الهمس قال الملازم تابلتن:

– لا تقل هذا الكلام.

فقال سلمر متشددًا:

– بل وأؤكده.

فانبرى الدكتور باين، مفتي المبارزات قائلًا بصرامة:

– أنت مطالب بأن تركله في هذه اللحظة.

فتدخل الملازم قائلًا:

– اهدأ يا باين.

ثم توجه بالكلام إلى مستر بيكويك الذي كان شديد الحيرة لا يفهم شيئًا مما يدور تحت سمعه وبصره:

– أتسمح لي يا سيدي أن أسألك، هل هذا الشخص عضو في الفريق الذي تتزعمه؟

فأجاب مستر بيكويك بهدوء ورزانة قائلًا:

– كلا يا سيدي، ولكنه ضيف علينا.

– هل هو عضو في ناديك أم لا؟

فهز بيكويك رأسه بحرارة وقال:

– كلا بالتأكيد!

فعاد الملازم يسأله في أناة ظاهرة:

– وهل سبق له في أي وقت أن ارتدى شارة عضوية ناديكم؟

فبدت الدهشة الشديدة على وجه مستر بيكويك وبادره قائلًا:

– كلا، على الإطلاق!

فالتفت الملازم تابلتن إلى صديقه الدكتور سلمر وهز كتفيه هزه يفهم منها إنه يشك في أن ذاكرة سلمر قد خانته بخصوص هذا الشخص، فبدا الارتباك على وجه الطبيب رغم هياجه، أما باين فراح يلتهم مستر بيكويك بنظرات نارية.

وأخيرًا وجه دكتور سلمر الكلام إلى مستر تابمان بلهجة جعلت ذلك السيد يجفل إجفالًا قويًا كأنما وخزه أحدهم بدبوس في فخذه:

– هل كنت في الحفلة الراقصة يا سيدي ليه أمس؟

فأومأ مستر تابمان بالإيجاب، وهو ينظر إلى مستر بيكويك كالخائف، فقال الدكتور مشيرًا إلى الشاب الغريب:

– وكان هذا الشخص في صحبتك؟

فأومأ مستر تابمان بالإيجاب مرة أخرى، وحينئذ اتجه الدكتور سلمر إلى الشاب الغريب وقال له:

– والآن يا سيدي، أسألك مرة أخرى بمحضر من هؤلاء السادة، هل تؤثر أن تقدم إلى بطاقتك آية على قبولك التحدي فيصفى الموقف

كما ينبغي أن يصفى بين سيدين مهذبين، أم تضطرني آسفًا أن أؤدبك في هذه اللحظة بيدي؟

فتدخل مستر بيكويك قائلًا:

– على رسلك يا سيدي، فأنا في الواقع لا يمكن أن أسمح بالإستمرار في هذا الموضوع بدون إيضاح، يا تابمان اشرح لنا ظروف الحال.

فلبى مستر تابمان هذه الدعوة الرسمية، وشرح الظروف كلها في كلمات قليلة، ومرت مسألة اقتراض بدلة وينكل دون إذنه مرور الكرام، وإن كان قد ألح كثيرًا على نقطة كثرة الشراب أثناء العشاء، وتأثير ذلك في كل ما حدث.

وهنا قاطعه الملازم تابلتن، الذي كان يرافقه أثناء الكلام بنظرة استطلاع غريبة، موجهًا الكلام إلى الشاب الغريب موضوع الاتهام وهو يتفحصه من قمة الرأس إلى أخمص القدم:

– ألم أرك من قبل في المسرح يا سيدي؟

فأجاب الشاب في غير وجل أو استحياء:

– بالتأكيد رأيتني.

فالتفت الملازم بازدراء نحو الدكتور سلمر وقال:

– إنه ممثل من الممثلين المتجولين، وقد مثل ذات مرة في رواية أخرجها ضباط الفرقة الثانية والخمسين، ولهذا صار من المستحيل عليك يا سلمر أن لا تمضي في هذا الموضوع بعد الآن.

وصدق الدكتور باين مفتي الفرقة على هذا الرأي بحزم، ووجه الملازم تابلتن الكلام إلى مستر بيكويك بعد ذلك قائلًا:

– آسف كثيرًا لأني وضعتك في هذا الموقف الحرج، واسمح لي أن أبدى لك أن خير وسيلة لتلافي مثل هذه المواقف في المستقبل في العناية بتخير الرفقاء، طاب ليلك يا سيدي!

ثم خرج من الغرفة في ترفع ووقار، فانبرى الدكتور باين قائلًا لمستر بيكويك:

– واسمح لي «أنا» أيضًا أن أقول يا سيدي إنني لو كنت في مكان تابلتن، أو سلمر، لشددت أنفك، ولويت أنوف كل عضو من أعضاء هذه المجموعة، أجل، هذا ما كنت افعله واسمي يا سيدي هو باين، الدكتور باين طبيب الفرقة الثالثة والأربعين، طاب ليلك يا سيدي!

وقد عنى أن يلقي بالعبارات الثلاث الأخيرة بنبرة قوية عالية، فلما فرغ من ذلك اقتفى أثر صديقه، وخرج في أعقابه الدكتور سلمر، الذي لم يقل شيئًا على الإطلاق، ولكنه ألقى على المجموعة كلها نظرة تنم على الإزدراء والإستخفاف.

واضطرم الغيظ والغضب في صدر مستر بيكويك، حتى كاد صدره أن يتمزق، وظل جامدًا في مكانه يحدق في الفضاء، إلى أن نبهه صوت إقفال الباب بعنف، فأسرع يعدو نحوه كالمجنون، والشرر يتطاير من خلف عويناته الذهبية، وكانت يده على مقبض الباب، فهم أن يفتحه، لولا أن لحق به مستر سنود جراس فجذبه من ذيل سترته المشقوق وأرغمه على التراجع وهو يصيح مستغيثًا:

– امسكاه يا وينكل وتابمان، فلا ينبغي أبدًا أن يعرض حياته الغالية للخطر في سبيل قضية فارغة كهذه!

فصاح بيكويك:

– دعوني، أتركوني!

فراح سنود جراس يصرخ:

– امسكاه جيدًا.

وأفلحت الجهود المتضافرة على حمل مستر بيكويك إلى مقعده بالقوة وحينئذ تكلم الغريب ذو البدلة الخضراء وقال بهدوء قاتل:

– أتركوه الآن لنفسه، وأسقوه شيئًا من الكونياك.

وساد الصمت لحظة، فعل فيها الكونياك فعله، واسترد مستر بيكويك حالته الطبيعية شيئًا فشيئًا، فقال جيمي:

– إن أمثال هؤلاء لا يستحقون أن تعيرهم التفاتًا يا سيدي.

فهز مستر بيكويك رأسه وقال:

– صدقت يا سيدي، وإني لأشعر بالخجل لأني اندفعت تحت تأثير الانفعال العصبي كل هذا الاندفاع، والآن قرب مقعدك من المائدة يا سيدي.

وصدع جيمي بالأمر، وسرعان ما تكونت حلقة حول المائدة، ودارت كؤوس الشراب، وانفرجت الأسارير، واستمر السمر إلى ساعة متأخرة من الليل.

عرض عسكري، وأصدقاء جدد

في اليوم التالي بكر جميع سكان مدينة روشستر من مضاجعهم، في لهفة مهرولين، فقد كان مزمعًا أن يقام عرض عسكري كبير على أرض التدريب، حيث تدور المناورات بين ست فرق، تلحظها بنظراتها الثاقبة عين النسر من قائد الجيش العام..

وكان أصحاب بيكويك من غلاة المعجبين بالجيش، فلم يكن شيء أثلج لصدورهم من منظر كهذا المنظر، ولهذا سرعان ما نشطوا إلى السير نحو مسرح العمليات الحربية، الذي كانت الجماهير تتدفق إليه من مختلف أحياء المدينة.

واتخذ مستر بيكويك وحواريوه الثلاثة أماكنهم في الصف الأول من زحام الناس، ولبثوا صابرين في انتظار بداية المناورات، وكان الزحام يزداد لحظة بعد أخرى، فكانت جهودهم التي اضطروا إلى بذلها كي يحفظوا مواضعهم التي احتلوها شاغلًا كافيًا لهم، فلم يشعروا بمرور ثلاث ساعات من الزمن وهم وقوف.

وفي لحظة من اللحظات حدث ضغط شديد مفاجئ من الخلف، فإذا بمستر بيكويك وقد دفع به إلى الأمام بعنف بضع ياردات، بسرعة غير متناسبة مع الوقار العام لمظهره، وفي لحظة أخرى صدر أمر بالتراجع عن

المقدمة، ثم صار مستر بيكويك بين بندقية تسقط فوق قدمه لتذكره بذلك الأمر، وبين أخرى تدفع في صدره لضمان تنفيذه، فإذا أضيف ذلك كله إلى غياب مستر تابمان (الذي اختفى فجأة فلم يعثر له على أثر في أي مكان) علمنا أن موقف أصحابنا الثلاثة لم يكن مريحًا ولا محمودًا.

وأخيرًا سرت في الجماهير تلك المهمة الخرساء التي تنبعث من أصوات الجموع إيذانا بظهور ذلك الشيء الذي كانوا في انتظاره؛ وبعد بضع لحظات من الانتظار والتعلق، بدت الرايات خافقة في الهواء مرحًا، وتلألأت الأسلحة البراقة في ضوء الشمس، وتدفقت القوات على أرض الميدان، ثم اصطفت صادعة بالأمر، فلم يكن يظهر للعين شيء على مدى البصر، اللهم إلا سترات حمراء، وسراويل بيضاء، وقد تسمرت جميعًا في أماكنها كأنه لا حراك بها، والثياب الحمراء كانت زي الجيش الإنجليزي إلى نصف قرن مضى.

وسأل مستر بيكويك مستر وينكل:

– هل في الوجود ما يمكن أن يبز هذا دقة أو ابتعاثًا للسرور؟

فأجاب وينكل الذي كان فوق كل قدم من قدميه رجل قصير واقفًا للفرجة:

– كلا..

وتلفت مستر بيكويك حواليه ثم قال:

– أصبحنا الآن في موضع حسن..

فقد تفرق الجمع بالتدريج من جوارهم، حتى أصبحوا وحدهم، فقال سنود جراس ووينكل:

– موضع حسن جدًا..

وسأل مستر بيكويك وهو يثبت منظاره فوق عينيه:

– ماذا يفعلون الآن؟

فقال مستر وينكل، وقد شحب لونه:

– أنا.. أنا.. أنا أميل إلى الظن بأنهم على أهبة إطلاق النار..

فقال مستر بيكويك: «مستحيل!».

ولكنه لم يكد ينطق هذه الكلمة من بين شفتيه، حتى كانت الفرق الست جميعًا قد سددت بنادقها، وكأنه ليس لها إلا هدف واحد مشترك، وذلك الهدف هو القضاء على البكويكيين القضاء المبرم! وإن هي إلا لحظة واحدة حتى انفجر أعتى وأعنف دوي اهتزت به الأرض حتى السويداء منها يومًا من الأيام، أو زلزل به رجل شيخ عن نقطة ارتكازه!

وقال سنود جراس:

– خير لنا أن نرتمي على وجوهنا، أليس كذلك؟

فقال مستر بيكويك:

- كلا.. كلا.. لقد انتهى الآن كل شيء..

فإن شفتيه قد تختلجان، ووجنته قد تكفهر، ولكن ليس لأية من آيات الذعر أو الوجل أن تخرج من شفتي هذا الرجل الخالد!

ونظر خلفه، فرأى بعين الدهشة والإنكار أن قوات جديدة قد أخذت تصطف هناك، وقبل أن ينفسح له الوقت ليحدس معنى هذه الحركة الجديدة، دوى صوت أجش بكلمة أمر، فحدثت حركة سريعة في الصفوف الأمامية، وإذا بمجموعة الفرق الست وقد شرعت حرابها وأخذت تهجم على النقطة التي كان يقف فيها مستر بيكويك وأصحابه بالذات!

والإنسان، بعد كل شيء، مخلوق فان، وهناك حد ليس في مقدور الشجاعة البشرية أن تتعداه؛ لهذا حدق مستر بيكويك من خلال عويناته لحظة في الجمع الزاحف، ثم أدار ظهره بسرعة ولا تقول إنه فر، وذلك أولًا لأنه تعبير غير لائق، وثانيًا لأن وجه مستر بيكويك لا يصلح بأي حال من الأحوال لهذا الضرب من الانسحاب؛ بل تقول إنه جرى (برطع) مبتعدًا بأقصى سرعة يمكن أن تمده بها قدماه!

وكانت هذه السرعة من الشدة في الواقع بحيث لم يلحظ الخطر الذي أحدق به إلا بعد فوات الأوان.

وشرعت القوات الخلفية التي كان اصطفافها هناك من بادئ الأمر سببًا في حيرة مستر بيكويك منذ لحظات قليلة، شرعت في الهجوم المقابلة

هجوم الفرق الست التي كانت تزحف إليهم من الجانب الآخر، وكانت النتيجة أن وجد مستر بيكويك وصديقاه أنفسهم على حين غرة محصورين بين خطين طويلين جدًا، الأول منهما يزحف بخطوات سريعة، والآخر يتربص بحزم وتحفظ للالتحام بالمهاجمين..

وصاح ضابط الطابور الزاحف:

– هوى!

وصرح ضباط الطابور المتحفز:

– إخلوا الطريق..

وصرخ البيكويكيون المضطربون:

– وأين نذهب؟

فكان الجواب الوحيد:

– هوى! هوى! هوى!

وأعقبت ذلك برهة سادها اضطراب عميق، ثم ارتفع وقع الأقدام، وحدث التحام عنيف، وتعالى صوت ضحك مكتوم، فقد كانت الفرق الست على بعد ألف خطوة، ولكن نعلي مستر بيكويك كانا يرتفعان في الهواء بسرعة فائقة، أما مستر سنود جراس ومستر وينكل فقد وقعا على الأرض وقوعًا عنيفًا، فلما أفاقا بحيث يستطيعان النظر فيما حولهما، كان

أول شيء أبصراه هو زعيمهم الجليل على مبعدة منهم، يجري بسرعة خلف قبعته التي كانت تجري منه متراقصة على الأرض.

ويندر جدًا في حياة الإنسان أن يبدو أشد إضحاكًا من هذه الصورة التي بدا عليها مستر بيكويك، ولم يقابل مع ذلك الهزء بأي عطف وهو يجري مطاردًا قبعته. والواقع أن اللحاق بقبعة هاربة أمر يحتاج إلى نصيب كبير من هدوء الأعصاب وحسن التصرف والحنكة، فلا يجب أن يكون الإنسان كبير السرعة، وإلا سبقها وداسها بقدميه، ويجب كذلك ألا يتباطأ، وإلا فقدها نهائيًا، فخير طريقة أن يكون الإنسان متوافقًا في سرعته مع الشيء الذي يطارده، وأن يكون حذرًا متنبهًا، وأن ينتهز الفرصة المواتية لكي يسبقها قليلًا، ثم ينحني انحناءة سريعة فيقبض عليها ثم يضعها بأحكام فوق رأسه، مع الحرص طوال هذا الوقت على الابتسام، كأنه يرى في الأمر ما رآه الناس كافة من الطرافة والنكتة.

وكانت هناك ريح خفيفة، فجعلت قبعة مستر بيكويك تتدحرج في مهب هذه الريح بنشاط، فالريح تهب، ومستر بيكويك يهب مع هبوبها، والقبعة يزداد تدحرجها سرعة، وكانت حرية أن تبعد نهائيًا عن متناول يد مستر بيكويك، لولا أنها وقفت لحسن الطالع، وقد أوشك هذا السيد على التخلي عن المطاردة.

لقد كان مستر بيكويك إذن في حالة إعياء تام، حين ارتطمت القبعة بعجلة عربة واقفة في صف طويل من العربات، يعتليها جميعًا أصحابها

لمشاهدة الإستعراض، وأدرك مستر بيكويك أن هذه فرصته فجرى بسرعة واسترد متاعه، ثم وضعه على رأسه، ووقف ليسترجع أنفاسه اللاهثة.

وفي هذه اللحظة سمع اسمه ينادي، فعرف في الصوت صوت مستر تابمان، فرفع نظره إلى أعلى، ورأى منظرًا ملأه دهشة وسرورًا!

فقد كانت العربة مكشوفة، وجيادها محلولة منها، وقد وقف فيها رجل شيخ مليء الجسم، يرتدي حلة زرقاء ذات أزرار لامعة، ومعه شابتان، وشاب حديث السن يبدو إنه مفتون بإحدى هاتين الشابتين، ومعه أيضًا سيدة في منتصف العمر، ربما كانت عمة الفتاتين السالف الذكر، ومع هؤلاء مستر تابمان، وكأنه في بيته وكأن هؤلاء أسرته التي لم يعرف سواها منذ طفولته.

وكان خلف العربة سلة كبيرة جدًا، من تلك السلال التي يقرنها الذهن المتفتق بالدجاج البارد، ولحم اللسان، وزجاجات النبيذ، وفوق الصندوق جلس غلام بدين غاقًا في النعاس.

وصاح مستر تابمان:

– بيكويك.. بيكويك.. تعال هنا، أسرع.

وقال الرجل المليء الجسم:

– أقبل يا سيدي، وتفضل بالصعود، فلدينا مكان كاف لجميع السادة رفقائكم!

واستجابة لهذه الدعوة، صعد مستر بيكويك ومستر سنود جراس إلى العربة، كما صعد مستر وينكل فوق الصندوق بجانب الغلام، الذي كان في هذه اللحظة قد زاد استغراقه في النوم.

وعندئذ قال الرجل المليء صاحب العربة:

– أيها السادة، إني مسرور جدًا لرؤيتكم، فقد سمعت كل شيء عنكم من صديقي تابمان، الذي قابلته هنا هذا الصباح، فكيف حالكم جميعًا؟ إني أراكم في خير حال ولا مراء، واسمي واردل.

فرد مستر بيكويك التحية مثلها، وشد على يد مستر واردل بحرارة؛ فقال الشيخ:

– اسمح لي أن أقدمك لعائلتي.. هاتان هما ابنتاي، وهذه شقيقتي، الآنسة راشيل واردل، إنها آنسة، أجل آنسة، مع أنها قد تجاوزت سن الأنسات.. إيه يا سيدي!

ثم دق الشيخ على ضلوع مستر بيكويك دقات المداعبة ثم ضحك من كل قلبه واستطرد:

– أيها السادة، أرجو عفوكم، هذا صديقي تراندل، والآن قد عرف كل منكم الآخرين، فلنتجه بأنظارنا إلى الجنود لنرى ماذا يصنعون، وهذا هو رأيي.

ثم وضع ذلك السيد منظاره على عينيه، وكذلك فعل مستر بيكويك، منظاره المكبر، ووقف كل من في العربة ليتفرجوا من فوق أكتاف الناس على المناورات العسكرية.

وكانت وأيم الحق مناورات عجيبة! فالقوات تمشي جيئة وذهابًا، وتتقدم وتتراجع، والمدافع تنطلق فيكون لها دوي مفزع، حتى لقد امتلأ الجو بصراخ السيدات.

وقد بلغ من فزع كريمتي مسز واردل أن مستر تراندل اضطر اضطرارًا إلى حمل إحداهن لإرقادها في العربة حملًا، وفي ذلك الحين كانت شقيقة مستر واردل تعاني من الفزع العصبي ما جعل مستر تابمان يرى من الضروري أن يضع ذراعه حول خاصرتها كي تظل واقفة ولا تسقط على الأرض.

لقد كان كل واحد منهم مستثار الأعصاب، ماعدا ذلك الغلام البدين، الذي كان ينام نومًا عميقًا جدًا، كأن قصف المدافع بين أذنيه ليس إلا أغنية عادية من أغاني المهد تهدهده في نومه.

صاح مستر واردل حينما انتهت المناورات وانصرفت القوات من الميدان:

– جو.. جو! لعنة الله على هذا الغلام! لقد نام مرة أخرى، تكرم يا سيدي إذا سمحت بقرصه في رجله، فلا شيء يمكن عدا هذا أن يوقظه، شكرًا لك يا سيدي، افتح السلة يا جو.

ونشط الغلام البدين الذي أيقظته قرصة جمعت جزءًا من لحم رجله بين سبابة مستر وينكل وإبهامه، فتدحرج من فوق الصندوق، ثم شرع في فض مغاليق السلة.

وقال له الشيخ مستر واردل:

– والآن يا جو، هات السكاكين والشوك، وهات الأطباق، أسرع وقدم ألوان الطعام .

وكان في صوت الكلمة الأخيرة شيء ما أيقظ الغلام البدين، فقفز واقفًا ثم أطلت من عينيه الشرهتين اللتين كانتا تلمعان من وراء جبلي خديه ابتسامة هائلة، أشاعها في وجهه منظر الطعام الذي كان يخرجه من السلة.

وقال مستر واردل: «أسرع قليلًا».

ذلك أن الغلام كان مشغولًا بإلقاء نظرات الغزل على دجاجة لطيفة، كان يبدو عليه أنه غير مستعد أقل استعداد لمفارقتها، فلما سمع الغلام إلحاح سيده عليه بالإستعجال صعد زفرة عميقة، ثم قدمها إلى سيده كارهًا، وعيناه معلقتان بلحمها المتكنز.

وقال الشيخ واردل حين بدأت عملية الأكل:

– ألم يكن هذا لطيفًا؟

فقال وينكل وهو مشغول بنصيبه من الطعام فوق الصندوق:

– بل رائع.

وقال مسترتراندل لمستر وينكل:

– ألك في قدح من النبيذ؟

فأجاب مستر وينكل مستر تراندل:

– بكل سرور.

وهمست العمة العانس في حسد جدير حقًّا بالعمات العوانس، في أذن أخيها مستر واردل قائلة:

– انظر كيف تغازل إميلي السيد الغريب.

فقال ذلك الشيخ الطروب:

– لا أدري، ذلك شيء طبيعي جدًا، وأجسر على القول إن ليس فيه أي شذوذ؛ هل لك في شيء من النبيذ يا مستر بيكويك؟

وقبل مستر بيكويك بكل استعداد، وكان مشغولًا بيمامة بين يديه.

وقالت العانس العجوز لبنت أخيها:

– إميلي، عزيزتي، لا ترفعي صوتك في الحديث هكذا يا حبيبتي.

– الله! ما هذا يا عمتي؟

وحينئذ همست الآنسة إيزابيلا واردل في أذن شقيقتها إميلي:

– أحسب أن عمي ومستر تابمان يريدان كل البهجة والسرور لنفسيهما!

وضحكت الفتاتان من كل قلبيهما، فحاولت العانس العجوز أن تبدو مبتهجة، بيد أنها لم تستطع أن توفق في ذلك، وقالت لمستر تابمان في لهجة العمة المحبة:

– هل ترى بنتي أخي العزيزتين جميلتين؟

فأجاب البيكويكي الحاضر البديهة، وهو يرمقها بنظرة مدلهة:

–كنت جديرًا أن أراهما جميلتين لو لم تكن عمتهما حاضرة.

– يا لك من رجل خبيث! ولكن ألا تظن حقًا أنه لو كان لون بشرتهما أحسن من هذا «قليلًا»، لكانتا فتاتين جميلتين في ضوء الشموع؟

وقالت إميلي لأختها:

– أنا واثقة أن عمتنا تتكلم عنا، واثقة من هذا كل الثقة، فهي تبدو سيئة النية شكسة للغاية.

قالت إيزابيلا:

– أتبدو هكذا حقًا؟ يا عمتي العزيزة..

– ماذا يا حبيبتي الغالية؟

– أخشى جدًا أن تصابي ببرد يا عمتي، فاربطي منديلًا حريرًا حول رأسك العتيق العزيز، فينبغي أن تكوني حقيقة أشد من هذا عناية بنفسك ولا سيما في سنك..

ومهما كان مبلغ ما وراء هذا الطعن والتشفي من مبررات، فقد كان من أقسى ما يمكن أن يكون، ولا يمكننا أن نحدس ما كانت العمة الغاضبة حرية أن تجيب به على ابنة أخيها ما لم يغير مستر واردل الموضوع مناداته جو بحرارة.

صاح الشيخ قائلًا:

– جو! جو! لعنة الله على هذا الغلام! لقد نام ثانية.

فقال مستر بيكويك:

– يا له من غلام غريب للغاية، أهو معتاد على النوم دائمًا بهذا الشكل؟

فقال الشيخ:

– النوم! إنه دائمًا نائم.. ويذهب لقضاء الحاجات وهو نائم، ويشخر أثناء خدمة المائدة.

فقال مستر بيكويك:

– إن هذا عجيب جدًا.

فأجابه الشيخ قائلًا:

– أجل، عجيب حقًا، وإني لفخور بهذا الغلام، ولن أتخلى عنه لأي سبب من الأسباب لأنه طرفة طبيعية؛ اسمع يا جو، جو.. خذ هذه الأشياء بعيدًا، وافتح زجاجة أخرى؛ أتسمعني؟

ونهض الغلام البدين، ففتح عينيه، وازدرد قطعة ضخمة من يمامة كانت في يده من قبل أن ينام، ثم راح ينفذ أوامر سيده ببطء، محملقًا في بقايا المأدبة وهو يرفع الأطباق ويضعها في السلة.. وأُخرجت الزجاجة الجديدة، وسرعان ما أُفرغت، ثم ربطت السلة الضخمة في مكانها السابق، واستعد مستر واردل وأسرته للعودة إلى المنزل.

وقال السيد الشيخ وهو يودع مستر بيكويك:

– والآن تذكر أننا سنراكم جميعًا غدًا.

فقال مستر بيكويك:

– لا شك في ذلك!

– هل لديك عنواني؟

فقال مستر بيكويك وهو يراجع مفكرته:

– مزرعة التفتيش في دنجلي دل.

فقال ذلك السيد:

– هو كذلك، ويجب أن تمكثوا معنا أسبوعًا على الأقل؛ وأعدك أن أطلعكم على جانب من حياة الريف الحقيقية؛ جو! لعنة الله على هذا الغلام، لقد غفى من جديد، يا جو ساعد توم في ربط الخيل إلى العربة.

وربطت الخيل إلى العربة، ثم صعد السائق فوق الصندوق، وتسلق الغلام البدين إلى جانبه، وتبودلت تحيات الوداع، ثم ابتعدت العربة.

فلما التفت البيكويكيون وراءهم، ليحظوا بنظرة أخيرة إليها، كانت الشمس الغاربة تعكس لألاء غنيا على وجوه مضيفهم، وكذلك على هيكل الغلام البدين، وكانت رأسه غارقة في صدره، وقد استسلم للنوم مرة أخرى.

إلى مزرعة التفتيش

عندما هبط مستر بيكويك في صباح اليوم التالي، وجد أن رفاقه الثلاثة قد استيقظوا مبكرين، وكانوا ينتظرون وصوله كي يبدأوا الإفطار، وجلسوا إلى الطعام، وراحت أطباق فخذ الخنزير المحمر، والبيض، والشاي، والقهوة، تختفي بسرعة تشهد بجودة الطعام وقوة شهية الطاعمين..

وقال أخيرًا مستر بيكويك:

– والآن، لنتكلم عن مزرعة التفتيش، فكيف نذهب إليها؟

فقال مستر تابمان:

– يحسن بنا أن نسأل الساقي.

ودق الجرس، واستدعى الساقي؛ فأجاب على سؤال وجهه إليه مستر بيكويك قائلًا:

– إنها تبعد خمسة عشر ميلًا من هنا أيها السادة، وفي مقدور هذا الخان أن يقدم مقعدًا ذا أربع عجلات من أحسن ما يكون يا سيدي، ويسع هذا المقعد اثنين من الخلف وسيدًا من أمام يتولى القيادة، أوه! عفوك يا سيدي! فهو لا يتسع إلا ثلاثة فقط.

فقال سنود جراس:

– وما العمل؟

فقال الساقي مقترحًا، وهو ينظر إلى مستر وينكل:

– ربما أحب أحد هؤلاء السادة أن يركب جوادًا، فلدينا جياد للركوب من أحسن ما يكون يا سيدي.

فصاح مستر بيكويك:

– هذا هو الحل الوحيد! فهل تمضي معنا على صهوة جواد يا وينكل؟

والواقع – وهذا سر– أن مستر وينكل كان يشك كثيرًا جدًا في قدرته على الركوب، ولكن ما كان لا يريد أن يشك أصحابه في ذلك بأي ثمن، فقد أجاب في الحال، وببساطة عظيمة، قائلًا:

– طبعًا، سأستمتع بالركوب أكثر من أي شيء..

وهكذا هجم مستر وينكل على قضائه، وقطع عليه خط الرجعة.

وقال مستر بيكويك:

– ليكن كل شيء معدًا أمام الباب في الساعة الحادية عشرة .

فأجاب الساقي:

– سمعًا وطاعة يا سيدي.

وسرعان ما خُتم طعام الإفطار، وانسحب المسافرون إلى مخادعهم كي يعدوا مجموعة ملابس يأخذونها معهم في رحلتهم..

وفي الساعة الحادية عشرة تمامًا ظهر المقعد ذو العجلات الأربع أمام بوابة الخان؛ وكان المقعد صندوقًا صغيرًا غريب الشكل أخضر اللون مرفوعًا فوق أربع عجلات، وله كرسيان خلفيان، وكرسي أمامي عال للسائق، وكان يجره حصان ضخم الجسم بني اللون، ووقف على مقربة منه سائس ممسكًا بعنان حصان آخر ضخم الجثة، أسرع وأجمه لركوب مستر وينكل فلما رآه مستر بيكويك قال:

– باركت السماء روحي! ومن الذي سيقود العربة؟ إن هذا لم يخطر في بالي أن أفكر فيه من قبل.

فقال له مستر تابمان:

– إنه أنت بالطبع.

وقال مستر سنود جراس:

– طبعًا.

فصاح مستر بيكويك مستغربًا:

– أنا !

فقال السائس مهدئًا من روعه:

– لا محل لأدنى خوف يا سيدي، فهو حصان هادئ الطبع يا سيدي، حتى ليستطيع طفل رضيع أن يسوقه.

فسأل مستر بيكويك:

– أتراه متعودًا أن يجفل؟

– أتقول يجفل يا سيدي؟ إنه لا يمكن أن يجفل مهما رأى من المناظر الغريبة المفزعة.

وكانت هذه الشهادة مقنعة كل الإقناع، فاستقر مستر تابمان ومستر سنود جراس في المقعدين الخلفيين، ثم صعد مستر بيكويك إلى المقعد العالي أمامهما، ثم وضع السائس اللجم في يده اليسرى والسوط في يده اليمنى.

وصاح مستر بيكويك، حين أظهر الحيوان الكبير رغبة ظاهرة في الرجوع بالعربة القهقري حتى كادت تصطدم بشرفة الخان:

– أوه! أوه.

فقال السائس مشجعًا:

– إنها طريقته في المداعبة أيها السادة لا أكثر، فاشكمه يا ويليم.

فتولى ويليم كبح جماح الحيوان، بينما خف السائس لمساعدة مستر وينكل على الركوب، وقد تسلق مستر وينكل إلى السرج في صعوبة تكاد تقرب من صعوبة تسلق جانب بارجة حربية.

وسأل مستر بيكويك أصحابه:

– هل كل شيء على ما يرام؟

مع شعوره شعورًا داخليًا أن كل شيء لم يكن على ما يرام.

وأجاب مستر وينكل بصوت ضعيف:

– على ما يرام فصاح السائس:

– أمسك عنانه، إليك يا سيدي.

وانطلق المقعد الكبير، وانطلق الحصان المسرج، ومستر بيكويك فوق صندوق الأول، ومستر وينكل فوق ظهر الآخر، فكان في ذلك سرور وتسلية لكل من كانوا في فناء الخان.

كان حصان مستر وينكل يتحرك مصعدًا في الشارع على وجه غاية في الغرابة. فهو يتحرك بجنبه، ورأسه متجهة إلى عرض الطريق، وذيله متجه إلى جانب الطريق المقابل، فقال مستر سنود جراس، وهو جالس في العربة، للمستر وينكل القابع فرق سرج الحصان:

– ماذا يجعله يمشي هكذا بجنبه؟

فقال مستر وينكل في صوت أسيف:

– لست أتصور السبب.

أما مستر بيكويك فلم يكن لديه وقت يتسع لملاحظة ورطة مستر وينكل المحزنة، لأنه كان مشغولًا تمام الانشغال بمحاولة سياسة الدابة المربوطة إلى العربة، والتي كانت تسلك سلوكًا داعيًا إلى أعظم الفزع، فكانت تتراجع برأسها إلى الوراء، وتجذب اللجم جذبًا بلغ من عنفه أنه صار في غاية المشقة على مستر بيكويك أن يظل متحكمًا فيها، وبين الفينة والفينة يجمح الحصان فجأة إلى أحد جانبي الطريق، ثم يقف فجأة أيضًا مدة برهة، وأن يندفع قدمًا مدة دقائق قليلة، وبسرعة كان من المستحيل كلياً أن يسيطر عليها.

فلما تكرر هذا المسلك من الحصان نحو عشرين مرة، قال مستر سنود جراس متحيرًا:

– ماذا تراه يقصد بهذا المسلك؟

فأجابه مستر تابمان:

– أنا لا أدري، فإن هذا يبدو لي شبيهًا أشد الشبه بالجموح، أليس كذلك؟

وكان مستر سنود جراس على وشك أن يجيب، حينها قاطعه مستر بيكويك بصيحة انطلقت من فمه، قائلًا:

– أوه! لقد سقط مني سوطي.

وأقبل مستر وينكل فوق حصانه العالي، وقبعته المتهدلة فوق أذنيه، وهو يهتز بجسده كله، كأنه موشك أن ينفرط أجزاء متناثرة لعنف مركبه.

فصاح به سنود جراس قائلًا:

– يا وينكل، التقط السوط، فإنك ذو مروءة.

وراح مستر وينكل يجذب عنان الجواد العالي، حتى احتقن وجهه لعنف المجهود، فلما أفلح أخيرًا في إيقافه، ترجل عنه، وناول مستر بيكويك السوط، ثم تعلق باللجام واستعد للصعود.

وحينئذ لا ندري على التحقيق إذا كان الحصان العالي أراد أن يلاعب مستر وينكل لعبة يسيرة، أو إنه رأى إنه يستطيع أن يتم الرحلة بمفرده دون حاجة إلى راكب، كما يتمها وفوقه ذلك الراكب؛ ولكن الثابت أنه ما كاد مستر وينكل يلمس اللجم حتى كان الجواد قد تراجع إلى الخلف إلى أقصى ما يسمح به طول هذه اللجم.

فراح مستر وينكل يهدئ الحصان قائلًا:

– يا للمسكين، يا للمسكين، يا لك من حصان طيب عتيق.

بيد أن «المسكين» أثبت إنه ذو حصانة ضد التملق، فكلما اجتهد مستر وينكل في الإقتراب منه، زاد إمعانًا في الابتعاد عنه، حتى بات الموقف بحيث يدور مستر وينكل والحصان، كل منهما حول صاحبه، مدة

عشر دقائق، انقضت وكل منهما يفصله عن الآخر نفس المسافة التي كانت تفصلهما عند البداية.

وعندئذ صاح مستر وينكل:

– ماذا عساي أن أصنع؟ أنا لا أستطيع امتطاءه.

فقال مستر بيكويك ناصحًا:

– يحسن بك أن تسحبه حتى نصل إلى طريق رئيسي.

فصرخ مستر وينكل قائلًا:

– ولكنه لا يريد أن يأتي، فتعال أنت واسحبه.

ولما كان مستر بيكويك دائمًا على استعداد لمساعدة أخ له في الإنسانية إذا نزل به الضيق، فقد ألقى باللجم فوق ظهر حصانه، ونزل من فوق مقعده، تاركًا مستر تابمان ومستر سنود جراس في العربية.

وما إن رأى الحصان مستر بيكويك مقبلًا نحوه، والسوط في يده حتى توقف عن اللف والدوران، وانسحب بعنف إلى الوراء، جاذبًا المسكين مستر وينكل معه جذبًا، فجرى مستر بيكويك لمساعدته، ولكن كلما اشتدت سرعة مستر بيكويك في التقدم، اشتدت سرعة الحصان في التقهقر.

وأخيرًا شعر مستر وينكل أن ذراعيه كادا ينخلعان عن جسده، فترك اللجام من يده، وحينئذ وقف الحصان، ثم حملق بعينه، ثم هز رأسه، ثم دار

على عقبيه، ثم انطلق يعدو عائدًا إلى منزله في روشستر، تاركًا مستر بيكويك ومستر وينكل، ينظر كل منهما نظرة طاغية بالفزع الخالص.

واسترعى التفاتهما صوت جلجلة على مسافة قصيرة، فرفعا بصرهما، ثم صاح مستر بيكويك وهو مذعور:

– غفر الله لي! إن الحصان الآخر انطلق يعدو!

وكان هذا هو الواقع فعلًا، فإن الحصان الذي أثاره الصوت، وقد وجد عنانه فوق ظهره، فعل ما يمكن استنتاجه بسهولة، فقد انطلق والعربة من خلفه، وفي داخل العربية مستر تابمان ومستر سنود جراس.

بيد أن السباق كان قصير الأمد، إذ ألق مستر تابمان نفسه فوق سور من الحشائش، واقتفى مستر سنود جراس أثره، وارتطمت العربة بجموح الحصان بحاجز قنطرة خشبية، فانفصلت العجلات عن الهيكل، وتناثرت المقاعد على قارعة الطريق، وحينئذ وقف الحصان جامدًا يحملق في الحطام الذي صنعه.

وكان أول ما عنى به الصديقان الآخران هو أن خفا لنجدة صديقيهما المسكينين وتخليصهما من سور الحشائش، ولم يكن اغتباطهما يسيرًا حين اكتشفا أنهما لم يصابا إلا بأضرار طفيفة، فلم يحدث لها شيء تقريبًا فيما عدا بضع خدوش من أثر الأشواك، وشيء من التمزق في الثياب..

وكان عليهم بعد ذلك أن يحلوا الحصان من العربة، فلما تم هذا العمل الشاق، سارت الجماعة سيرًا وئيدًا إلى الأمام، وهم يجرون الحصان وسطهم تاركين العربة لقضائها وقدرها.

وقال مستر بيكويك متعجبًا:

– ما أشبه هذا بالأحلام، بحلم مزعج، وهل أدعي لذلك من أن يمشى رجل طول النهار، ومعه حصان عنيد لا يستطيع أن يسوسه؟

وكان البيكويكيون يسيرون متخاذلين، ومعهم ذلك الحيوان النبيل، الذي كانوا يشعرون نحوه بعداوة قاتلة، وهو يتبعهم على أعقابهم في بطء.

وكان الوقت قد أوغل في الماء حينما انعطف الأصدقاء الأربعة وهم صاحبهم ذو القوائم الأربع، في الطريق الضيق المفضي إلى مزرعة التفتيش، فلما انعطفوا بعد ذلك في ثنية من الطريق، صادفوا فجأة مستر واردل الشيخ وتابعه الأمين، الغلام البدين، فصاح السيد الشيخ المضياف:

– أين كنتم؟ لقد لبثت أنتظر قدومك طول النهار، إذن لقد اصطدمتم؟ لا بأس، فتلك حوادث مألوفة في هذه البقعة، يا جو–لقد نام ثانية– خذ هذا الحصان من السيد وقده إلى الإسطبل.

وسرعان ما وصلوا إلى مزرعة التفتيش، ومستر واردل لهم دليل، فما إن وصلوا حتى أكرموا بتقدم الفوط الساخنة، والماء الذي يتصاعد منه البخار الحار، والصابون، وشراب الشرى.

فلما استردوا قواهم، هبط بهم مستر واردل إلى الدور الأسفل، وفتح باب الرواق مصراعيه، ثم تقدمهم ليعلن قدومهم قائلًا:

– مرحبًا بكم أيها السادة في مزرعة التفتيش.

ندوة مزرعة التفتيش

لما دخل مستر بيكويك وأصحابه القاعة، قدموا إلى جماعة الأسرة، الذين كانوا جلوسًا حول مدفأة عتيقة، وكانت تحتل مكان الشرف على عين المدفأة سيدة عجوز جدًا، لم تكن سوى والدة مستر واردل، والعمة العانس، والسيدتان الشابتان، ومستر واردل، متجمعون حول مقعدها، وكل واحد منهم ينافس الآخرين في الاهتمام بالسيدة العجوز، فيحمل أحدهم سماعتها الصناعية، ويحمل الآخر قارورة أملاحها المنعشة، أما الثالث فهو مشغول غاية جهده في تسوية الحشايا التي تتكئ عليها بالتربيت تارة وباللطم طورًا؛ وفي الجانب الآخر من النار جلس قسيس القرية الشيخ وزوجته.

وصاح مستر واردل بأعلى صوته:

– مستر بيكويك، والدتي..

فقالت السيدة العجوز، وهي تهز رأسها:

– لم أسمع ما تقول..

فصرخت الشابتان في صوت واحد: «مستر بيكويك، يا جدتي ..».

فقالت السيدة العجوز:

– آه. .لا بأس على كل حال، فهو لا يهتم لامرأة عجوز مثلي، فيما أجرؤ أن أقول.

فقال مستر بيكويك وهو يقبض على يد السيدة العجوز، ويتحدث إليها في صوت بلغ من ارتفاعه أن المجهود قد صبغ سحنته السمحة بلون القرمز:

– أؤكد لك يا سيدي إنه ما من شيء يسرني أكثر من رؤية سيدة من جيلك في الحياة على رأس أسرة طيبة كهذه الأسرة، وعليها مخايل نضرة العمر بادية..

فقالت الآنسة إميلي واردل في صوت منخفض:

– إن حالة جدتي مضمحلة في الوقت الحاضر، ولكنها ستتحدث إليك بعد قليل .فأومأ مستر بيكويك برأسه إعادة المستعد للتغضي عن هنات التقدم في السن، ودخل في محادثة عامة مع أعضاء الندوة الآخرين، فقال مستر بيكويك:

– ما أبدع هذا الموقع..

فردد مستر تابمان ومستر سنود جراس ومستر وينكل مقاله قائلين:

– ما أبدعه!

فقال مستر واردل:

– أجل، أظن إنه كذلك فعلًا، فليس هناك موقع أفضل منه في جميع مقاطعة كنت.

فوافق كل واحد في الحاضرين على هذا الرأي، وأبدي البكويكيون الثلاثة مبلغ سرورهم بجمال الريف.

وقال المضيف المنهمك في رعاية ضيوفه:

– ما رأيك يا مستر بيكويك في أن نلعب «الويست»؟

فقال ذلك السيد لمضيفه:

– إني أفضلها على كل ما عداها، ولكن أرجو ألا تقيم اللعبة من أجلي خصيصًا.

فقال مستر واردل:

– أوه !أؤكد لك أن والدتي مولعة جدًا بهذه اللعبة، أليس كذلك يا أماه؟

فأجابت السيدة العجوز–التي كان صممها في هذا الموضوع بالذات أقل كثيرًا من صممها فيما عداه من الموضوعات– أنها مولعة بها فعلًا..

وصاح السيد العجوز:

– يا جو، جو.. جو! –لقد نام مرة أخرى– أوه! هذا هو. أعد موائد اللعب..

فشرع الشاب الثقيل الأجفان يحاول إعداد المائدة، دون أن يصحو كل الصحو. فأعد مائدة للعبة «بوب جون» وأخرى للعبة «الويست»، وكان لاعبو الويست هم: مستر بيكويك والسيدة العجوز ومستر تابمان والعمة العانس. أما اللعبة الأخرى فاستغرقت سائر الجماعة.

ودرجت لعبة الويست بما يتفق وما تحتاج إليه من ملاحظة جدية ووقار، أما المائدة المستديرة الأخرى، في الجانب الآخر، فكانت مرحة مرحًا صاخبًا، فمستر واردل العجوز الذي كان يقدر النكتة ويستمتع بها كأصغر الشبان، كان في قمة السرور، وكانت تعليقاته على اللعب مضحكة، حتى أن الجالسين إلى المائدة جميعة كانوا يضجون بالضحك ضحًا متواصلًا.

وكان مستر وينكل يلقي نكاتًا معروفة جدًا في لندن، ولكنها مجهولة كل الجهل في الأقاليم ولما كان كل إنسان في الحاضرين يضحك منها من كل قلبه، فقد شعر مستر وينكل بهالة كبيرة من المجد تحيط به، وانقضى الماء في هذه التسليات اللطيفة بسرعة كبيرة، ثم بعد أن تناول الجميع عشاء دسمًا بلا تكلف، تحلقت المجموعة حول النار، وشعر مستر بيكويك إنه لم يكن في يوم من الأيام في مثل هذه السعادة الكبيرة.

وقال رب الدار الضيّاف، وكان جالسًا في وقار إلى جوار مقعد السيدة العجوز:

– هذا هو الذي أحبه من الدنيا، وأسعد لحظات حياتي ما مضيته بجوار هذه المدفأة العتيقة، وقد بلغ من تعلقي بها أنني أواظب على إشعال النار بها كل مساء، إلى أن تبلغ حرارة الطقس آخر مداها.. وكيف لا! فهذه أمي العجوز المسكينة وقد ألفت أن تجلس أمام هذه المدفأة فوق هذا المقعد الصغير، منذ كانت صبية، ألم تكوني فاعلة يا أماه؟

وتسللت على صفحة وجه السيدة العجوز، وهي تهز رأسها بابتسامة ساهمة، دمعة طفرت إلى العين على غير انتظار، لما ذكرته على حين غرة من سعادة سنوات طوال غابرات..

واستطرد المضيف بعد لحظة صمت قصيرة قائلًا:

– ينبغي أن تغفر لي حديثي عن هذا المكان العتيق يا مستر بيكويك، لأنني أحبه حب الإعزاز، ولم أعرف سواه؛ وإن البيوت العتيقة والحقول لتبدو وكأنها أصدقاء قدماء لي، وكذلك تبدو لي كنيستنا الصغيرة التي تكسوها أشجار اللبلاب، ذلك الشجر الذي أذكر بهذه المناسبة أن صديقنا القديم الماثل بيننا هنا قد نظم فيه مقطوعة غنائية حين حل لأول مرة بين ظهرانينا منذ أعوام كثيرة..

ثم أشار إلى القسيس العجوز وقال:

– ويجب أن تطلبوا منه إعادتها على مسامعكم.

فقال القسيس العجوز:

الحق أن نظمها مهلهل، وإن عذري الوحيد في كتابتها أنني كنت يومئذ حديث السن ومع هذا فإني أتلوها على مسامعكم علانية إن شئتم، وإني أسميها: «اللبلاب الأخضر»

يا للبلاب الأخضر من نبات أنيق	يتسلل فوق الحطام العتيق!
طعامه -أكبر ظني- يختاره فيصيب	في سجنه الوحش الرطيب
ولا بد أن يكون الجدار قد تفتت	والصخر نخره التحلل
حتى يرضى مزاجه الرقيق	الغبار الذي صنعه الزمن
طعام طيب للبلاب	الذي يتسلل حيث الحياة لا ترى

فاللبلاب الأخضر نبات نادر عتيق

ولما أخذت النار تخمد، على ما كان من اتساع رقعتها، أعلن مستر واردل أن الوقت قد حان للنعاس.. فتفرقت المجموعة إلى مخادعها بعد تبادل تحيات المساء في مودة وبشاشة.

وكانت الرحلة الشاقة إلى المزرعة، ثم السهرة أمام النار اللافحة قد جعلت مستر بيكويك يشعر بإطباق النعاس عليه، فلم يمض على توصيله إلى مخدعه الوثير خمس دقائق، حتى استغرق في نعاس عميق لا تتخلله الأحلام، ونزل الهدوء على مزرعة التفتيش، فلم ينب صوت سوى نباح متباعد من كلب حراسة لا يقر له قرار.

مستر وينكل يصطاد الغربان

أيقظت شمس الصباح مستر بيكويك، ما كانت ترسله من أشعتها إلى جناحه الخاص، وكأنها تعاتبه على الإفراط في النعاس، ولم يكن ذلك الرجل العظيم قط متكاسلًا، فقفز من فراشه لهفان، ثم فتح نافذته..

وتنهد السيد المستشار الحس، وهو يحدق في المنظر الممدود أمام ناظريه وقال، وقد صعدت رائحة المروج الخضراء غنية قوية إلى نافذة حجرته:

– ألا ما أجمل الريف وأحلاه!

فقد كانت مئات الروائح الزكية المتصاعدة من الحديقة الصغيرة تعطر الهواء من حوله، وحشائش تلك الحديقة الفاقعة الخضرة قد رصعها ندى الصباح؛ وكانت الطيور تصدح كأن في كل قطرة متلألئة لها مبعث إلهام..

وتدفقت الخواطر الحسان تجوب عقل مستر بيكويك.. حتى أيقظه من هذا الاستغراق الشاعري صوت يصيح به:

– هالو!

فنظر يمينًا، ولم ير أحدًا، ونقبت عيناه عن يساره، وفحصت المشهد المنبسط بين يديه، ثم حملق في السماء من فوقه، ولكنه لم يجد طالبه حيث

نظر.. وحينئذ فعل ما كان العقل البسيط يوحي به لأول وهلة، وهو النظر في الحديقة، وهناك أبصر مستر واردل..

وقال ذلك الشخص الطيب السريرة:

– كيف حالك؟ أما ترى هذا الصباح جميلًا؟ أسرع بالنزول، واخرج، وسأبقى في انتظارك هنا.

ولم يكن مستر بيكويك بحاجة إلى تكرار دعوة، فكانت عشر دقائق حسبه لإتمام زينته وقيافته، وعند منتهى تلك المدة كان إلى جوار السيد العجوز.

وقال مستر بيكويك وقد رأى صاحبه مسلحًا ببندقية، وعلى الحشائش بندقية أخرى مهيأة للاستعمال:

– هالو! ماذا في الأمر؟

فقال رب البيت:

– وينكل وأنا ذاهبان لصيد الغربان قبل الإفطار، وهو صياد بارع، أليس كذلك؟ فأجابه مستر بيكويك قائلًا:

– لقد سمعته يقول إنه صياد ماهر جدًا، ولكن لم أره قط يصطاد شيئًا.

فقال رب البيت:

– أتمنى أن يعجل بالحضور؛ يا جو ..جو!

وكان الغلام البدين غير مستغرق في النوم إلا ثلاثة أرباع استغراق، بتأثير الصباح النعش، فخرج من المنزل فورًا ملبيًا النداء، فقال سيده:

– اصعد وناد هذا السيد، وقل له إنه سيجد مستر بيكويك ويجدني في حلبة صيد الغربان، وعليك أن تريه الطريق إلى هناك، أسامع أنت؟

فمضى الغلام، ثم حمل رب البيت البندقيتين وكأنه روبنسن كروزو آخر، وقاد الطريق خلال الحديقة.

وقال السيد الشيخ، وقد وقف بعد مشي استغرق بضع دقائق في ممشى تحف بجانبيه الأشجار:

– هذا هو المكان المقصود.

وكانت الغربان تحلق فوق الرؤوس، ولا تكف لحظة عن صياحها المتصل. فوضع مستر واردل إحدى البندقيتين على الأرض ثم حشا البندقية الأخرى، وفي هذه اللحظة صاح مستر بيكويك:

– ها هم قد حضروا!

فقد ظهر مستر تابمان ومستر سنود جراس ومستر وينكل على مبعدة ذلك أن الغلام البدين لما لم يكن متأكدًا من هو بالضبط السيد الذي كلف باستدعائه، فقد رأى أخذًا بالأحوط أن يستدعيهم جميعًا حتى لا

يكون محل لأدنى خطأ.. فصاح مستر واردل موجهًا الخطاب إلي مستر وينكل:

– أقدم! فإن صيادًا حصيفًا مثلك كان ينبغي أن يكون قد استيقظ من زمن طويل!

فأجاب مستر وينكل بابتسامة مغتصبة، ثم تناول البندقية الأخرى وعلى وجهه إمارات كان يمكن أن تفسر بأنها إمارات الحصافة، لولا أنها كانت تبدو أشبه ما تكون بأمارات التعاسة!

وأومأ السيد العجوز برأسه، فصعد غلامان من غلمان القرية متسلقين شجرتين، وعندئذ صاح مستر بيكويك متسائلًا:

– وماذا سيصنع هذان الغلامان؟

فقد كان منزعجًا جدًا، لأنه لم يكن واثقًا من أن فقر القرويين –وهو الموضوع الذي طالما سمع عنه الكثير– لم يكن دافعًا لهم على تشغيل أولادهم في مهنة خطرة، بأن يكونوا أهدافًا لصيادين غير ذوي خبرة.

وأجابه مستر واردل ضاحكًا:

– هذا مجرد بداية للصيد، تهييج الطير.

فسأله مستر بيكويك مرة أخرى:

– ماذا؟

– إنهما، بالإنجليزية الفصحى، يثيران الغربان كي تطير، فهل أبدأ؟

فقال مستر وينكل، فرحًا بأي وسيلة تؤجل إطلاقه بندقيته بعض الوقت:

– إذا سمحت.

– قفوا جانبًا إذن، والآن هيا!

فصرخ أحد الغلامين وهز غصنًا فوقه عش، فطارت عنه نحو ستة من أفراد الغربان الصغار متسائلة ماذا حدث؛ فكان الجواب أن أطلق السيد العجوز بندقيته، فسقط أحد الأفراخ وطارت بقيتها.

فصاح السيد العجوز قائلًا:

– خذه يا جو..

فارتسمت على وجه الغلام البدين ابتسامة وهو يتقدم من الغراب، ومرقت بذهنه تراود خياله صورة فطيرة تصنع منه، ثم تحولت الإبتسامة إلى ضحكة وهو يتصرف بالطائر، فقد كان طائرًا سمينًا، وقال رب الدار بعدئذ وهو يعيد حشو بندقيته:

– والآن يا وينكل، أطلق نيرانك!

فتقدم مستر وينكل وصوب بندقيته في وضع أفقي، فتراجع مستر بيكويك وصاحباه حتى يتحاشوا الخسارة والرضوض التي تلحق بهم من

سقوط الوابل الوفير من الغربان، ذلك الوابل الذي كانوا موقنين إنه سينجم حتمًا عن التصويب القاتل الذي سيصوبه صديقهم.

وقامت ذلك لحظة صمت رهيب، ثم دوت صيحة، خفقت أجنحة ثم سمعت دقة خافتة، ثم قال السيد العجوز:

– هالو! ما هذا؟

وتساءل مستر بيكويك:

– ألم تنطلق؟

فقال مستر وينكل، الذي كان شديد الإكفهرار، ربما من الخيبة:

– لم تنطلق.

فقال السيد العجوز وهو يتناول البندقية:

– عجبًا! إني لم أعلم على هذه البندقية أنها خيبت طلقة من قبل! وي! إني لا أرى على الزناد شيئًا من الكبسول!

[وكانت البنادق في ذلك الزمان لا تنطلق إلا إذا وضع كبسول منفصل على الطلقة تحت الزناد].

فصاح مستر وينكل:

– غفر الله لي! لقد نسيت الكبسول.

وسرعان ما تلافوا هذا الخطأ، ثم أسرع مستر بيكويك يبتعد مرة أخرى، ثم خطا مستر وينكل إلى الأمام في هيئة العزم والتصميم، أما مستر تابمان فراح ينظر من وراء الشجرة التي اختفي خلفها!

وصاح الغلام، فأفزع عن الشجرة أربعة طيور، وأطلق مستر وينكل بندقيته، فشفت الفضاء صيحة، صيحة آدمية، لا صيحة غراب، تنم عن ألم جسماني. ذلك أن مستر تابمان أنقذ حياة عدد لا حصر له من الطيور السالمة الوادعة، بأن تلقي في ذراعه الأيسر جانبًا من طلقة وينكل.

ويستحيل أن نصف الاضطراب الذي أعقب ذلك الحادث، فإنه من أصعب الأمور أن أصف التفاصيل؛ فهذا مستر بيكويك يسب مستر وينكل تحت ضغط الانفعال المفاجئ، وهذا مستر تابمان ملقى على الأرض، وهذا مستر وينكل راكعًا وقد شله الفزع إلى جواره، ثم هذا مستر تابمان يهمس في غيبوبته باسم العمة العانس؛ أجل يصعب جدًا وصف هذه التفاصيل، كما يصعب وصف الإفاقة التدريجية للضحية التعسة، ثم ربط ذراعه بمنديل ثم نقله ببطء شديد إلى البيت، معتمدًا على أذرع أصدقائه المروعين.

واقتربوا من البيت وكانت سيدات الدار عند باب الحديقة، في انتظار عودتهم. وظهرت العمة العانس، باسمة تلوح لهم كي يجدوا السير، وكان جليًا أنها لم تكن تدري شيئًا عن المصاب.

واقتربوا؛ وتساءلت إيزابيلا واردل:

- ماذا حدث السيد العجوز القصير؟

ولم تعر العمة العانس هذا السؤال التفاتًا، فقد ظنته يدور حول مستر بيكويك. ذلك أن تراسي تابمان كان في عينيها شابًا في مقتبل العمر، فهي تنظر إلى عمره من خلال عدسة مصغرة.

وصرخ رب البيت العجوز من بعيد قائلًا:

- لا تروعن!

فقد كان يخشى أن تنزعج ابنتاه، وصاحت السيدان الشابان:

- ماذا حدث؟

- لقد وقع لمستر تابمان حادث يسير، وهذا كل ما هناك.

فأطلقت العمة العانس صرخة ثاقبة ثم انفجرت تضحك ضحكًا هيستيريًا، ثم خرت بين ذراعي بنتي أخيها.

وقال السيد العجوز:

- صبوا فوقها شيئًا من الماء البارد

وغمغمت العمة العانس قائلة:

- كلا.. كلا؛ أنا الآن أحسن حالًا؛ هل جرح؟ هل مات؟ هل.. هاهاها!

ثم انفجرت في عاصفة الضحك الهيستيرية رقم (٢) فقال مستر تابمان:

- هدئ من روعك، فإني لم أصب إلا إصابة يسيرة جدًا.

قالت السيدة الهستيرية:

– إذن أنت لم تمت! بالله قل لي إنك لم تمت!

فتدخل مستر واردل قائلًا:

– لا تكون بلهاء يا راشيل! فما جدوى قوله بحق الشيطان أنه لم يمت؟

فقال مستر تابمان:

– كلا ..كلا، أنا لم أمت، ولست في حاجة إلى أي إسعاف إلا من يديك فدعيني أتكئ فوق ذراعك.

وقدمت له السيدة المروعة ذراعها، ثم اتجها نحو قاعة الجلوس حيث جلسا وحيدين، فضغط مستر تراسي تابمان كفها فوق شفتيه، ثم استلقى فوق الأريكة وأغمض عينيه.

وغمغمت العمة العانس بعد أن مضى على إغلاق عينيه ثانيتان:

– لقد نام، يا لك من عزيز يا عزيزي مستر تابمان.

فقفز مستر تابمان واقفًا وصاح بها:

– أعيدي على سمعي هذه الكلمات!

فذعرت السيدة وقالت في حياء وخفر:

– رباه! ليتك ما سمعت!

فقال مستر تابمان:

– بل سمعت، فكرريها على سمعي، كرريها، إذا كانت تخالجك أدنى رغبة في إبلاغي.

فقالت السيدة:

– صه! هذا أخي قد أقبل.

ودخل مستر واردل الحجرة وفي صحبته جراح؛ ففحص الذراع، وضمد الجرح، وقرر أنه جرح هين جدًا، وهكذا اطمأن أصحاب مستر وينكل من خوف، واتجه الجميع إلى مائدة الإفطار وقد عاد إليهم حبورهم كاملًا شاملًا، بيد أن مستر بيكويك تفرد بالصمت، وقد ارتسم على محياه شك وارتياب، فثقته في مستر وينكل تزعزعت من أساسها بهذا الذي حدث ذلك الصباح.

فلما انتهى الإفطار سأل مستر واردل قائلًا:

– هل تلعب الكريكت يا مستر وينكل؟

ولا شك إنه كان حرياً أن يجيب بالإيجاب، في أي ظرف آخر، ولكنه قدر دقة الموقف، فأجابه في تواضع قائلًا:

– كلا..

فقال مستر بيكويك:

– إن المباراة الكبرى بين فريقي «دينجلى دل» و«ماجلتون» ستتم اليوم فيما أعتقد.

فقال رب البيت:

– ذلك كذلك، وأنتم راغبون طبعًا في مشاهدتها.

فأجابه مستر بيكويك قائلًا:

– إنني يا سيدي ممن يسرون بمشاهدة أي لعبة أمينة العواقب، لا يهدد فيها الفاشلون الحمقى حياة الناس.

وتوقف مستر بيكويك عن الكلام ثم صوب نظره واثبه في مستر وينكل، الذي ارتعد تحت نظرة زعيمه الفاحصة.. ثم تساءل مستر بيكويك:

– هل تستطيع أن تترك صديقنا الجريح في عناية السيدات؟

فأجاب مستر تابمان:

– لن يتسنى لكم أن تتركوني بين خير من أيديهن.

فلما تقرر هذا، نهض السادة للسير إلى ماجلتون، حيث تقام المباراة الكبرى. وترك مستر تابمان وحيدًا مع السيدات في مزرعة التفتيش.

مستر تابمان يتقدم بخطبة

لقد كانت عزلة دينجلى دل الهادئة، وحضور هذا العدد من السيدات، وما أظهرنه من قلق عليه، كان كل هذا مواتيًا لنمو العواطف الرقيقة التي ركبتها الطبيعة في صدر مستر تراسي تابمان، تلك العواطف التي كانت مركزة في الوقت الحاضر في موضوع محبب واحد، هو العمة العانس.

وقد تكون السيدتان الشابتان فيهن حلاوة وفتنة، ولكن كان ثمة وقار في منظر العمة العانس، وترفع وجلالة في عينيها.. وهي مزايا لا يمكن أن تصبوا إليها في سنهما المثيرة لأنها مزايا تفردها بين جميع الإناث اللواتي وقعت عليهن أنظار مستر تابمان في يوم من الأيام.

وأما أن هناك تعاطفًا وجدانًا غامضًا بينهما، فأمر محقق، فهذا اسمها كان أول الأسماء التي طفرت إلى شفتي مستر تابمان حين سقط جريحًا فوق العشب، وكان ضحكها الهستيري أول صوت وقع على سمعه وهو محمول أو مستند إلى الأذرع في طريقه إلى البيت، ولكن هل كان جزعها صادرًا عن الضعف الأنثوي، أو كان سببه شعور أعنف من هذا قوة اختص هو – من دون الرجال جميعًا- بانبعاث هذا الشعور؟

وكانت الإجابة على هذا السؤال هي ما عقد مستر تابمان العزم على اكتشافه بغير إبطاء.

وكان الوقت مساءً، وكان البيت مهجورًا، وقد جلس الإثنان، لا يكترثان لأحد، وإنما ما يحلمان بذات نفسهما ليس إلا.

وقالت العمة العانس:

– لقد نسيت أزهاري.

فقال مستر تابمان وفي صوته نغمة الإغراء ظاهرة:

– قومي أسقيها الآن.

فقاومت العمة العانس في شعور متدفق قائلة:

– ولكنك ستصاب ببرد من هواء الليل يا سيدي.

قال مستر تابمان ناهضًا:

– كلا كلا، بل سيفيدني ذلك، فدعيني أصحبك.

فتمهلت السيدة كي تضبط الضمادة التي تضم ذراع الشاب الأيسر، ثم تناولت ذراعه الأيمن وسارت به إلى الحديقة.

وكان في نهاية الحديقة القصوى مكمن بين الأشجار يعشش عليه الياسمين البري، والنباتات المتسلقة، مكمن لطيف مما يبنيه الناس لاستضافة العناكب.

وتناولت العمة العجوز رشاشة كبيرة للماء كانت ملقاة في ركن، وأوشكت أن تغادر المكمن بيد أن مستر تابمان احتجزها وجذبها إلى مقعد بجواره، وقال لها:

– مس واردل.

فارتعدت العمة العانس، حتى أن بعض الحصى الذي كان بطريق المصادفة في رشاشة الماء راح يهتز فكأنها (شخشيخة) طفل.

وعاد مستر تابمان يقول:

– يا مس واردل، أنت ملاك.

فتعجبت راشيل، وقد تضرج وجهها بحمرة قانية أشبهت بها شاشة الماء الحمراء، وصاحت:

– مستر تابمان!

فقال البيكويكي الفصيح:

– أجل، أني أعرف ذلك معرفة اليقين.

فغمغمت السيدة في تدلل:

– كل النساء ملائكة، هكذا يقولون.

فقال مستر تابمان:

– إذن ماذا يمكن أن تكوني؟ وبأي شيء أشبهك؟ وأين هاتيك النساء اللواتي فيهن مشابه منك؟ وأين يمكن أن يخطر على وجود مثل هذا المزاج النادر من الطيبة والجمال؟ أين أين؟!

وتمهل مستر تابمان، وضغط اليد التي كانت قابضة على رشاشة الماء، فأشاحت السيدة برأسها جانبًا وهمست في ضعف:

– يا للرجال من مخادعين.

فصاح مستر تابمان:

– وإنهم لكذلك، كذلك هم حقًا، ولكن ليس جميعهم على الإطلاق فهناك واحد منهم يرضيه أن يخصص حياته كلها لإسعادك، فلا يعيش إلا لك، ولا يحمل عبء الحياة الثقيل إلا من أجلك.

فقالت السيدة:

– إذا كان يوجد مثل هذا الشخص..

فقال مستر تابمان يقاطعها:

– بل يمكن أن يوجد.. بل موجود، بل إنه هنا يا مس واردل.

وقبل أن تتنبه السيدة إلى نيته، كان مستر تابمان قد ركع على ركبتيه عند قدميها وأنشأ يقول:

– آه يا راشيل! قولي إنك تحبينني..

فقالت العمة العانس وهي مشيحة برأسها:

– يا مستر تابمان، لا يطاوعني لساني على أن أقول هذه الكلمات، لكن.. لكن ..لست مجردًا من الأهمية في نظري.

فما أن سمع مستر تابمان هذه الكليات حتى قفز واقفًا، وألقي ذراعيه حول جيد العمة العانس وطبع على شفتيها جملة قبلات!

وكان من المستحيل أن تتنبأ كم قبلة كان خليقًا أن يزيد على تلك التي طبعها على فم السيدة، لولا أنها أجفلت إجمالًا غير مصطنع، وصاحت في فزع:

– نحن مراقبون يا مستر تابمان، لقد انكشف أمرنا.

والتفت مستر تابمان خلفه، فرأى الغلام البدين، جامدًا في مكانه لا يبدي أي حركة، وليس على وجهه أقل تعبير، لا بالدهشة ولا بالاستطلا ع، وحدق مستر تابمان، وكلما طال تحديق مستر تابمان في وجه الغلام الدين الخالي من المعاني كل الخلو، زاد اقتناعه أن الغلام أما لا يدري، وإما إنه لم يفهم شيئًا ما كان يحدث، وعلى هذا الأساس قال له في حزم شديد:

– ماذا تريد هنا؟

فكان الجواب العاجل هو:

– لقد أعد العشاء يا سيدي.

فسأله مستر تابمان وهو يرمقه بنظرة ثاقبة:

– هل وصلت من توك إلى هنا؟

فأجابه الغلام البدين قائلًا:

– من فوري.

فعاد مستر تابمان ينظر إليه بحدة، ولكنه لم يجد أي ظل للتعبير في وجهه، فتناول مستر تابمان ذراع العمة العانس وسارا في اتجاه المنزل، والغلام البدين يتبعهما من خلف، وهمس تابمان قائلًا:

– إنه لا يدري شيئًا مما حدث.

فقالت العمة العانس:

– مطلقًا.

وفي هذه اللحظة صدر من خلفهما صوت يشبه ما يند عن المرء من ضحك لم يفلح في كتمانه كل الفلاح، فالتفت مستر تابمان خلفه بحدة، ولكن كلا، ليس من الممكن أن يكون صاحبه هو الغلام البدين، فلم تكن هناك أدنى علامة من علامات الإبتهاج في سحنته، فلا شيء، هناك يدل إلا على الإفراط في التغذية، فهمس مستر تابمان:

– لابد إنه كان مستغرقًا في النوم.

فأجابت العمة العانس قائلة:

– ليس عندي أدنى شك في هذا.

وضحك الاثنان من أعماق قلبيهما.

بيد أن مستر تابمان كان مخطئًا، فلم يكن الغلام البدين في هذه المرة غارقًا في النوم، بل كان يقظًا كل اليقظة لكل ما وقع أمامه.

وانقضى العشاء دون أن تحدث محاولة لتجاذب أطراف محادثة عامة، فقد كان التفات العمة العانس موجهًا كله إلى مستر تابمان.

ودقت الساعة الحادية عشرة، ثم الثانية عشرة، دون أن يحضر السادة؛ فظهر القلق على كل وجه، أترى قطع عليهم الطريق وسرقوا؟ هل ينبغي أن يرسلوا رجالًا بمصابيح في كل اتجاه للبحث عنهم؟ أم هل ينبغي؟ ولكن ها هم، وهذا صوت غريب معهم أيضًا! فلمن يمكن أن يكون هذا الصوت؟

وفي هذه اللحظة دخل البيكويكيون ومستر واردل الحجرة، وكان معهم رجل غريب، وكان الغريب متوسط الطول تقريبًا، بيد أن نحافة جسده، وطول ساقيه، جعلاه يبدو أطول من حقيقته كثيرًا، وكانت سترته الخضراء في يوم من الأيام على آخر طراز، بيد أنها كانت ولابد مجعولة في ذاك الأوان البعيد لرجل أقصر قامة من لابسها الحالي، ذلك أن الأكمام الباهتة اللون لم تكن تصل إلى معصمه إلا بصعوبة؛ وكانت سراويله أيضًا قصيرة عما ينبغي، وتحمل تلك البقع اللامعة التي تشي بطول عهد الاستعمال، أما شعره الأسود الطويل فكان يتدلى في تموجات مهملة على جانبي رأسه، وكان وجهه

نحيلًا هزيلًا، وفي مظهره العام شيء لا يمكن وصفه بوجه التحديد من الجرأة الوقحة والثقة بالنفس الفاشية في سحنته جميعًا.

وقال مستر واردل متجهًا إلى الغريب بوجهه:

– يا أعزائي، هذا هو صديق مستر جينجل صديق مسير بيكويك بالأكثر.

فتدخل مستر بيكويك وقال:

– لقد تقابلنا معه أول مرة في عربة البريد القادمة إلى روشستر، وكان من أعظم دلائل حسن الطالع أن نلقاه اليوم مرة أخرى في مباراة الكريكت.

فقال مستر واردل:

– لقد جاء في زيارة قصيرة، ولهذا يجب أن تعرفوه جميعًا.

فسألت إميلى الرجل الغريب:

– هل لذت لك المباراة يا سيدي؟

فقال مستر جينجل:

– مباراة عظيمة، مأدبة بعد المباراة، مجموعة رائعة، أغانٍ فخمة، خمر.. خمر جيدة، نبيذ جيد جدًا يا سيدتي، نبيذ.

فقد كان الزائر الجديد ثرثارًا، ولم يكن يبز كثرة حكاياته إلا إفراط أدبه مع السيدات وقد شهد مستر تابمان بذلك، فلما رأى جاذبية مستر جينجل تزداد، انسحب وانزوي، ولما وضع رأسه فوق وسادته خطر له، إنه سيكون سعيدًا سعادة وحشية لو أن رأس مستر جينجل كانت في هذه اللحظة في متناول يده مدفونة بين الوسادة والحشية (المرتبة)!

ونهض الغريب النشيط من نومه مبكرًا في الصباح التالي، ثم وجه نفسه إلى إمتاع الجماعة وإشاعة السرور في نفوسهم على مائدة الإفطار، فوفق في جهوده إلى درجة أن السيدة العجوز الصماء ألحت في استعادة نكتة أو نكتتين من أحسن نكاته خلال سماعتها الصناعية، بل أنها تنازلت قالت عنه (أي عن مستر جينجل) أنه فتى فاجر!

وكان من عادة السيدة العجوز في صباح أيام الصيف الرائقة أن تعتكف بعض الوقت في المكمن القائم بين الأشجار، وفي معيتها الغلام البدين، فتعتمد بإحدى يديها على عصاها، وباليد الأخرى على كتفه، وتمشي ببطء حتى تبلغ المكمن، حيث يتركها الغلام البدين لتستمتع بالهواء النقي مدة نصف ساعة، وفي نهايتها يعود لاقتيادها إلى البيت.

وقد اتبعت هذه المراسم مدة الصيف في ثلاثة أعوام متعاقبة بدون أقل تغيير، ولهذا لم تكن وحشتها يسيرة ذلك الصباح بالذات، حين رأت الغلام البدين لا يترك المكمن، وأما يخطو خارجه بضع خطوات، فيتلفت

حوله في كل اتجاه بعناية، ثم يعود إليها متسللًا بطريقة تدل على إنه يطوي في نفسه نية غامضة.

وكانت السيدة العجوز عصبية المزاج –شأنها في ذلك شأن معظم السيدات العجائز– فكان أول ما تبادر إلى ذهنها أن الغلام البدين هم بالهجوم عليها بقصد سرقة ما تحمله من نقود لنفقتها؛ ولهذا راقبت حركاته بشعور من الفزع المتزايد، ولم يكن اقترابه منها من عوامل تخفيف ذلك الفزع، حتى بعد أن صاح صارخًا في أذنها:

– يا ستي!

وقد تصادف أن كان مستر جينجل يتمشى في الحديقة في هذه اللحظة قريبًا من المكمن فسمع هو أيضًا تلك الصيحات «يا ستي» فوقف ليستمع إلى المزيد، وصاح الغلام اليدين مرة أخرى:

– ستي!

فقالت السيدة العجوز وهي ترتعد:

– يا جو، لقد كنت ولا شك مولاة طيبة لك، وقد عاملتك على الدوام أرق معاملة، فلم يوكل إليك أبدًا عمل شاق، وكنت على الدوام تحظى من الطعام بما يكفيك.

وكانت هذه العبارة الأخيرة عبارة عن مناشدة لأرق ما لدى الغلام البدين من الشاعر، فبدا عليه التأثر وهو مجيبها بلهجة التأكيد:

– أعلم هذا.

فقالت السيدة العجوز وقد استردت شجاعتها:

– إذن ماذا تريد أن تصنع؟

فأجابها الغلام:

– أريد أن أجعل بدنك يقشعر.

فكان هذا وجهًا دمويًا للغاية من وجوه إظهار الامتنان وعرفان الجميل، فعادت للسيدة العجوز مخاوفها، وسألها الغلام:

– ماذا تظنين أني رأيت في هذا المكمن بالذات في الليلة الماضية؟ فصاحت السيدة العجوز وقد أفزعها مظهر الفتى البدين الجدي:

– حمانا الله! ماذا رأيت؟

– رأيت الرجل البدين، الذي أصيب ذراعه، يقبل ويحضن..

– من يا جو؟ أرجو ألا تكون إحدى الخادمات.

فزأر الفتى السمين في أذن السيدة العجوز قائلًا:

– أسوأ من هذا.

– لعلها ليست واحدة من حفيداتي؟

– أسوأ من هذا!

فصاحت السيدة العجوز، التي كانت تظن أن هذا أقصى حد ممكن للشر الإنساني:

– أسوأ من هذا يا جو؟! من كانت يا جو؟ ألح في أن أعرف.

فتلفت الفتى البدين حوله بحذر، ثم صاح في أذن السيدة العجوز:

– الآنسة راشيل!

فصاحت السيدة العجوز بصوت متحشرج:

– ماذا؟ ارفع صوتك.

فزأر الفتى البدين قائلًا:

– الآنسة راشيل!

– ابنتي؟

فراح خداه السمينان يهتزان كأنهما قطعتان من الفالوذج وهو يهز رأسه بالإيجاب هزات متوالية، فصاحت السيدة العجوز:

– وهل سمحت له؟

فتسللت إلى وجه الفتى البدين ابتسامة وهو يقول:

– لقد رأيتها تبادله القبلات.

وكان مستر جينجل يصغي بانتباه، فسمع نتفًا من عبارات حانقة مثل:

– أفي سنها؟ كان ينبغي لها أن تنتظر حتى أموت .

ثم سمع بعد ذلك صوت وقع أقدام الفتى البدين على الحصى، وهو عائد إلى البيت تاركًا السيدة العجوز وحدها.

ولعله يكون أمرًا غريبًا، بيد أنه لا يخلو أن يكون صحيحًا، أن مستر جينجل كان قد قرر بعد وصوله إلى مزرعة التفتيش بخمس دقائق أن يتقدم بطلب يد العمة العانس، وقد رأى أن جرأته قد راقت في نظرها، وكان يرجح ترجيحًا شديدًا أن لديها أحب المزايا على الإطلاق ألا وهي مزية الدخل المالي المستقل، وتوسلًا منه إلى الاستيلاء لنفسه على ذلك الدخل رأي ضرورة استبعاد منافسه بطريقة من الطرق، وشرع في الحال في رسم الخطة لتحقيق هذه الغاية، فصمم على تسوء سمعة مستر تابمان، ثم عول على مغازلة العمة العانس مغازلة ملتهبة.

وكان غارقًا في التفكير في هذا القرار الهام وهو متجه ببطء نحو البيت. وكان القدر كأنه يحابي خطته، فقد كانت العمة العانس وحدها في قاعة الجلوس تحيك الصوف، فدخل عليها وسعل فنظرت إليه وابتسمت. ولم يكن التردد يومًا من خصال مستر ألفريد جينجل، فوضع إصبعه على شفتيه ودخل ثم أغلق الباب، وقال بجد عميق:

– يا مس واردل. اغفري لي تطفلي، فلم أعرفك منذ أمد بعيد، ولكن ليس هناك وقت للبروتوكول، فقد انكشف كل شيء.

فقالت العمة العانس وقد دهشت دهشة عظيمة، وخامرتها الشكوك في سلامة عقل مستر جينجل: «سيدي!».

فقال جينجل هامسًا:

– صه! الغلام البدين.. الكلب الخائن.. جو.. أخبر السيدة العجوز.. السيدة العجوز خائفة جدًا.. ثائرة.. المكمن.. تابمان.. قبلات وعناق.. أليس كذلك يا سيدتي؟

فقالت العمة العانس:

– يا مستر جينجل، إذا كنت قد أتيت إلى هنا كي تهينني ..

فقال جينجل العديم الحياء:

– كلا مطلقًا. قد ترامت القصة إلى سمعي، فأتيت كي أحذرك من الخطر، وأعرض خدماتي لتحاشي المتاعب.

فقالت العانس المسكينة وهي تنفجر بالبكاء:

– وماذا أستطيع أن أصنع؟ إن شقيقي سيثور غضبًا.

فقال مستر جينجل:

– إنه طبعًا سيثور، فهذا شيء يهيج الغضب.

فقالت العمة العانس وقد انهمر دمعها:

– آه يا مستر جينجل. ماذا أستطيع أن أقول؟

فقال مستر جينجل بهدوء:

– قولي إنه كان يحلم، فليس أسهل من هذا، ولد شرير، امرأة حسناء، سيجلدون الغلام البدين ويصدقونك، ويسوي الموضوع، وكل شيء على ما يرام.

ولا ندري إذا كان احتمال إفلات العانس من عواقب افتضاحها هو الذي سرها أو أن الذي سرها هو أن تسمع نفسها توصف بأنها امرأة حسناء، فخفت حدة حزنها، وتضرج وجهها بحمرة خفيفة، ثم رمقت مستر جينجل بنظرة شكر وامتنان.

وبدا أن ذلك السيد الماكر يقاوم انفعالات نفسه بضع ثوان قال بعدها في صوت عميق منخفض:

– آن تابمان لا يريد إلا مالك.

فصاحت العانس في استنكار شديد:

– يا له من تعس!

وبهذا انقضت شكوك مستر جينجل، وأيقن أنها تملك مالًا فعلًا.

وقال جينجل:

– وأكثر من هذا، يحب امرأة أخرى فقالت العانس:

– امرأة أخرى! من؟

– فتاة قصيرة، سوداء العينين، ابنة أخيك إملي.

وساد صمت، فإنه إذا كان في العالم كله شخص واحد تغار منه العمة العانس فهو بنت أخيها هذه بالذات. وأخيرًا هزت رأسها وعضت شفتيها الرفيعتين وقالت:

– هذا غير ممكن. أنا لا أصدقه أبدًا.

فقال مستر جينجل: «راقبيهما».

فقالت العمة: «سأفعل». فقال: «راقي نظراته» قالت: «سأفعل».

– إنه سيجلس بجوارها إلى المائدة.

– ليجلس.

– وسيتملقها ويتقرب إليها.

– ليفعل.

– وسيحوطها بكل عناية ممكنة لديه.

– ليفعل.

– وسيقاطعك.

وحينئذ صرخت العمة العانس:

– يقاطعني! أسيقاطعني؟

ثم أخذتها رعدة غضب وخيبة رجاء، فقال جينجل:

– ستقتنعين من تلقاء نفسك. وهل تقبلينه زوجًا بعد ذلك؟

– كلا مطلقًا.

– وتقبلين شخصًا سواه حينئذ؟

فسكتت هنيه ثم قالت: «أجل».

وحينئذ سقط مستر جينجل على ركبتيه، ولبث كذلك خمس دقائق، نهض بعدها عاشقًا ارتضته لنفسها العمة العانس، بشرط إثبات خيانة تابمان إثباتًا واضحًا جليًا قاطعًا.

وكان على مستر جينجل أن يقيم البرهان، وقد أقام ذلك البرهان في اليوم نفسه على مائدة العشاء. حتى لقد كادت العمة العانس ألا تصدق عينيها. فهذا مستر تراس تابمان جالس إلى جوار إملي يغمز لها بجانب عينه، ويهمس، ويبتسم، وما من كلمة أو نظرة رمق بها العمة العانس، فقال واردل الشيخ لنفسه:

– لعنة الله على هذا الغلام. لابد إنه كان نائمًا.

فقد بلغته حكاية أخته ومستر تابمان من فم والدته.

أما العمة العانس فقالت في نفسها:

– يا له من خائن! لم يخدعني هذا العزيز مستر جينجل، رباه كم أكره مستر تابمان هذا! ولعل الحديث التالي يفسر هذا التغير غير المنتظر في مسلك مستر تراس تابمان:

كان الوقت مساء، ومكان المنظر هو الحديقة. وكان مستر تابمان ومستر جينجل يتمشيان في ممر جانبي، فبدأ مستر تابمان الحديث سائلًا:

– كيف قمت بدوري؟

– بديع. رائع، يجب أن تعيد تمثيل الدور غدًا. وكل ليلة. لحين صدور أوامر أخرى فسأله مستر تابمان:

– وهل لاتزال راشيل راغبة في ذلك؟

– طبعًا. لتبديد الشكوك. إنها خائفة من شقيقها. تقول إنه لابد من ذلك التمثيل بضع أيام أخرى فقط. ذرًا الرماد في عيون العجوزين. ثم تتوج بعد هذا سعادتك.

فقال مستر تابمان السليم النية وهو يشد على يد «صديقه»:

– يا صديقي العزيز، احمل إلى راشيل حبي، وقل لها أي صعوبة أجد في الخداع والتمويه، بيد أني أقدر ضرورة ذلك لنجاح خطتها. وقل لها أنني أصفق إعجابًا لحكمتها. وأنت يا صديقي، تقبل أحر تشكراتي لعطفك النزيه. هل تراني يومًا أستطيع سداد هذا الدين؟

فقال جينجل: «لا تتكلم في هذا الموضوع».

ثم توقف عن الكلام فجأة كمن تذكر شيئًا، ثم قال:

– وبهذه المناسبة هل يمكنك أن تستغنى عن عشرة جنيهات؟ لسبب خاص جدًا، وسأسددها في مدة ثلاثة أيام.

فقال مستر تابمان وقد امتلأ قلبه امتنانًا:

– بأعظم سرور. أقول بعد ثلاثة أيام؟

– ثلاثة أيام فقط. سينتهي بعدها كل شيء. لا متاعب بعدئذ.

فأحصى مستر تابمان المبلغ في كف صاحبه، ثم سارا معًا نحو البيت:

وقال جينجل:

– كن على حذر، ولا نظرة واحدة، وجه كل عنايتك لبنت الأخ. وكن إميل إلى الفظاظة مع العمة. هذه هي الطريقة الوحيدة للتمويه على العجوزين.

وقال مستر تابمان بصوت مرتفع:

– سأكون على حذر.

وقال مستر جينجل لنفسه وهما يدخلان البيت:

– وأنا أيضًا سأكون على حذر.

وقد تكرر مشهد هذا الأصيل في الليل، وفي ثلاثة أصائل وليال أعقبته. وفي اليوم الرابع كان مستر واردل الشيخ في ذروة السرور، لأنه اطمأن إلى إنه لا أساس للتهمة التي وجهت إلى مستر تابمان.

وكذلك كان مستر جينجل والآنسة واردل في غاية السرور أيضًا، وذلك لأسباب لها من الأهمية في هذه القصة ما يرشحها للسرد في فصل مستقل خاص بها.

افتضاح ومطاردة

في قاعة طعام مزرعة التفتيش، كانت المقاعد قد حلقت حول المائدة، وكل شيء يدل على اقتراب ساعة العشاء. وسأل مستر واردل قائلًا:

– أين راشيل؟

وأضاف بيكويك:

– أجل، وأين جنجل؟

ودق الجرس فظهر الغلام البدين، فسئل أين الآنسة راشيل، ولكنه لم يكن يعلم. وسئل أين مستر جنجل، فلم يكن يعلم أيضًا. فبدا العجب على الجميع، فقد كان الوقت متأخرًا والساعة قد جاوزت الحادية عشرة. أما مستر تابمان فضحك في سره، لأنه لم يشك في أن الاثنين كانا يتسكعان في مكان ما، بصدد رسم خطط جديدة لخداع العجوزين.

– ها. ها! فكرة جميلة .. مضحكة!

وقال واردل بعد برهة:

– لا بأس. سيظهران بعد قليل فيما أعتقد.. أما أنا فلا أؤخر عشائي من أجل أي إنسان..

فقال مستر بيكويك:

– قاعدة عظيمة. رائعة ..!

وقال رب البيت:

– اجلسوا من فضلكم ..

وجلس الجميع، وفي أولهم مستر بيكويك.

وكانت على المائدة فطمة هائلة من لحم البقر البارد، فتزود مستر بيكويك منها بجانب كبير ورفع شوكته إلى شفتيه، وصار على وشك فتح فمه ليتلقى قطعة اللحم، حينما سمعت أصوات كثيرة صادرة من المطبخ، تمهل ووضع الشركة من يده. وهل مستر واردل أيضًا وترك السكين المعقوفة، فبقيت مغروسة في اللحم البقري، ونظر إلى مستر بيكويك، كما نظر مستر بيكويك إليه.

وسمع في الدهليز وقع أقدام ثقيلة، ثم فتح باب البهو فجأة وبعنف، ثم اقتحم القاعة خادم راح يصيح:

– لقد ذهبا واختفيا تمامًا يا سيدي!

وعندئذ لوحظ أن مستر تابمان وضع سكينه وشوكته وشحب لونه وقال مستر واردل بعنف:

– من هما اللذان ذهبا؟

– مستر جينجل والآنسة راشيل، ذهبا في مقعد سفر من حانة الأسد الأزرق بقرية ماجلتن. لقد كنت هناك ورأيتهما، ولكني لم أستطع إيقافهما.

فصاح تابمان وهو يقفز من مكانه في احتداد:

– لقد دفعت لها مصاريف السفر. لقد أخذ من عشرة جنيهات! أوقفوه. لقد نصب على! أنا لا أحتمل هذا! ماذا يجب أن نصنع؟

فقال رب البيت العجوز البدين، الذي لم يفقه إلا الكلمات الأخيرة من غضبة مستر تابمان:

– نصنع؟ سنضع حصانًا في عريش العربة، ثم نحصل على مقعد بريد من حانة الأسد ونتبعهما في الحال.

فصرخت الشابتان:

– لا تتركوه يذهب وحده والا قتل أحدًا!

فقال مستر بيكويك: «سأذهب معه».

فقال رب البيت: «أنت رجل شهم يا بيكويك. والآن، هل أنتم مستعدون؟».

ولف مستر بيكويك فيه وذقنه في شال كبير بسرعة، ثم وضع قبعته فوق رأسه، وألقى معطفه فوق ذراعه، وأجاب على سؤال مستر واردل بالإيجاب.

استقرت العربة أمام الباب، فقفزوا إلى داخلها، وصاح مستر واردل:

– أرخ لها العنان يا توم!

فانطلقت بهم تخترق الحارات الضيقة، وتهتز هم اهتزازًا عنيفًا بسبب الأخاديد التي حفرتها آثار العربات في الطريق، ومرتطمة أو محتكة بأسوار الحشائش على الجانبين، حتى خيل إليهم أنهم سيتحطمون أشلاء متفرقة في أي لحظة.

فلما وصلوا إلى حانة الأسد الأزرق، صاح مستر واردل:

– بكم من الوقت سبقانا؟

فكان الجواب من كل فم أنهما لم يسبقا إلا بثلاثة أرباع الساعة على الأكثر.

فجعل مستر واردل يصيح:

– مقعد سفر بأربعة خيول حالًا! اخرجوا الجياد! ثم أقيموا العربة بعد ذلك!

وصاح صاحب الخان في أعوانه:

– هيا أيها الغلمان! اخرجوا مقعدًا وأربعة خيول. أسرعوا. انشطوا!

فخلف السياس والغلمان لتنفيذ هذه الأوامر. ولمعت الفوانيس في أيديهم وهم يغدون ويروحون، واصطكت حوافر الخيل فوق أرض الفناء غير المستوية، وقرقعت العربة وهم يجرونها من مخزن العربات، وسادت الضجة والعجلة وصاح واردل نافد الصبر:

– وبعد! هلا تخرج العربة المطلوبة هذه الليلة إذن؟

فأجابه السائس بقوله:

– بل ستخرج إلى الفناء حالًا يا سيدي.

وخرجت العربة الخفيفة (مقعد السفر)، وربطت إليها الخيول الأربعة، وقفز فوقها الغلمان، وركب داخلها المسافرون.. وصاح واردل:

– اسمعوا! لابد من قطع مرحلة الأميال السبعة في أقل من نصف ساعة!

وأعمل الغلمان المهماز والسياط في الخيل، وصاح السقاء، وصرخ السياس، فاندفعت العربة اندفاعًا عنيفًا.

وقال مستر بيكويك في نفسه، حين انفسح له بعض الوقت للتفكير:

– يا له من موقف بديع! موقف بديع حقًا لرئيس نادي بيكويك: عربة رطبة، وخيل غريبة، وسرعة تزيد على خمسة عشر ميلًا في الساعة.. والساعة الآن الثانية عشرة مساء.

هكذا كان مستر بيكويك يفكر بينه وبين نفسه، بيد أن السادة لم يتبادلوا حديثًا مسموعًا لانشغال كل واحد منهم بخواطره الخاصة عن رفاقه. وكانت العربة تمضي في سبيلها غير وانية نحو نهاية المرحلة. وكان القمر على وشك الغروب، وقطع الليل، والسحب الثقيلة التي كانت تنتشر فوق وجه السماء منذ حين، قد انقلبت ستارًا أسود متصلًا فوق الرؤوس، وأخذت قطرات المطر الكبيرة ترتطم بنوافذ العربية، وكأنها نذير

لهم باقتراب العاصفة. وأخذت الرياح تهب عليهم في اتجاه معاكس، فتذرو في الطريق الضيق عصفًا عنيفًا، وتزأر بين أوراق الشجر الذي يحف بالطريق .. فمع مستر بيكويك أطراف سترته حول جسده، ولاذ بركن العربة، ثم استغرق في نوم عميق، استفاق منه على وقوف العربة، وصوت ناقوس السائس، وصياحه العالي قائلًا:

– الخيل فورًا..

وقفز مستر واردل من العربية، وتلاه مستر بيكويك في أناة أقرب إلى وقاره وأشبه به. وتكررت في هذا المكان تلك الضجة والعجلة اللتان صاحبتا خروج العربة من حالة الأسد الأزرق.. فلم يمض إلا وقت قصير جدًا حتى كان كل شيء أعد للمرحلة التالية.

وما من شك في أن الطريق أمام المطاردين لم يكن مشجعًا بحال من الأحوال. فقد كانت هذه المرحلة تبلغ خمسة عشر ميلًا، والليل حالك السواد، والريح عاصفة، والمطر ينهمر مدرارًا. فلم يكن من الممكن الإسراع مع وجود هذه العقبات مجتمعة. فالساعة تقارب الواحدة ومضت ساعتان قبل بلوغ مدى هذه المرحلة. وهناك وجدوا ما أنعش آمالهم ورفع روحهم المعنوية الهابطة. إذ صاح واردل الشيخ وهو يقفز من العربة، مشيرًا إلى عربة مغطاة بالطين اللزج، كانت واقفة في الفناء، قائلًا:

– متى وصلت هذه العربة؟

– منذ أقل من ربع ساعة.

– أكان فيها رجل طويل نحيف وسيدة مسنة معروفة؟

– نعم يا سيدي

فصاح الشيخ متهللًا:

– وحق السماء يا بيكويك! هاتوا عربية وأربعة جياد فورًا. سندركهما قبل أن يصلا إلى نهاية المرحلة القادمة، ولكل منكم جنيه كامل أيها الغلمان، فأنشطوا، وعجلوا!

وراح السيد العجوز بذرع الفناء صائحًا بعبارات الحث والتشجيع، وهو في حال من التوتر العصبي لا مزيد عليها، وحذا مستر بيكويك حذوه، فتعثر في لجام، وضل طريقه بين عجلات العربات والخيول، اعتقادًا منه بفائدة هذا كله في استعجال معدات الرحلة!

وصاح واردل الشيخ وهو يقفز إلى العربية ويغلق الباب بعنف:

– اقفزوا أيها الغلمان! هيا! أسرعوا!

وقبل أن يدرك مستر بيكويك ما هناك، وجد نفسه مدفوعًا داخل باب العربة الآخر، بجذبة شديدة من يد واردل، ودفعة شديدة من الخلف من يد السائس ..

وانطلقت العربة ..

وقال واردل أخيرًا جذلانًا:

– آه! لقد تحركنا أخيرًا ..

والحق إنهم كانوا مسرعين فعلًا، وقد ثبت ذلك لدى بيكويك بالاحتكاك المتصل الذي مبني به إما بجدار العربية الخشبي الصلد، وإما بجسم مرافقه..

وأخيرًا اهتز بيكويك هزة عنيفة جدًا، فقال له واردل: «اثبت!».

– لم يحدث لي مثل هذا الارتجاج من قبل!

– لا بأس! سينتهي كل شيء عما قريب. الثبات الثبات!

واجتهد بيكويك في تثبيت نفسه في ركن العربة ما استطاع، وانطلقت العربة في مزيد من السرعة، مسافة تزيد على ثلاثة أميال .. وإذا مستر واردل الذي كان يطل من نافذة العربة ..

وأخرج مستر بيكويك رأسه من النافذة، وصاح: «أسرعوا! فلا تدعوهم يبتعدون»

وقد أدخل رأسه وصاح متقطع الأنفاس من فرط اللهفة:

– ها هما أخيرًا! ..

فأخرج مستر بيكويك رأسه من النافذة، فإذا عربة أمامهما على مسافة قصيرة، سائرة بأقصى سرعة. فصاح السيد العجوز بالقائد والسياس:

– أسرعوا! جنيهان كاملان لكل منكم أيها الغلمان، فلا تدعوهم يبتعدون، ثابروا. ثابروا!

وانطلقت خيول العربة الأولى بأقصى سرعة تستطيعها، ولاحقتها خيول عربة واردل، الذي جعل يصيح:

– إني أرى رأسه، لعنه الله! هذا رأسه!

فقال مستر بيكويك:

– وأنا أراه أيضًا.. إنه هو.

ولم يكن مستر بيكويك مخطئًا، فقد شوهد وجه مستر جنجل فعلًا وقد غطاء الطين المتطاير من العجلات، مطلًا من نافذة عربته، وشوهدت حركة ذراعه وهو يلوح به مشجعًا الغلمان على مزيد من الإسراع.

وكان الاهتمام بالغًا، والحقول والأشجار والأسوار الخضراء كأنها تندفع متراجعة بتأثير الرياح، لشدة السرعة التي كانت العربة تسير بها. وكان صوت مستر جنجل يسمع بوضوح، مرتفعًا فوق ضجة العجلات، مستحثًا غلمان عربته على الإسراع. أما مستر واردل العجوز فكان يرغي ويزيد غضبًا وثورانًا، ويرسل كلمات السباب بالعشرات من «الأنذال» إلى «الأوباش» ويضم قبضتيه ويهزهما متوعدًا مستنكرًا. فيجيبه مستر جنجل بابتسامة ساخرة، أو صيحة انتصار يرسلها حين تمعن جياده في العدو فتسبق مطارديه.

وما كاد مستر بيكويك يدخل رأسه من النافذة، وكذلك مستر واردل، وقد أضناهما الصياح، حتى اهتزا اهتزازًا قويًا ألقاها إلى الأمام، وحدثت دقة شديدة، ثم ارتطام عال، وانفصلت عجلة عن العربة، ثم انقلبت العربة على أحد جانبيها.

وبعد بضع ثوان من البغتة والاضطراب والحيرة، لم يتبين فيها شيء اللهم إلا رفس الخيل، وتحطيم الزجاج، تخلص مستر بيكويك من حطام العربة، واستطاع أن يرى فداحة المصيبة.

فهذا واردل العجوز بغير قبعة، وقد تمزقت ثيابه في مواضع كثيرة، وقد وقف بجانبه، وحطام العربة متناثر تحت قدميه. وعلى بعد مائة خطوة تقريبًا وقفت العربة الأخرى عندما سمعت صوت الانقلاب، وقد أطل منها مستر جينجل ينظر بارتياح عميق إلى ذلك الحطام.

وكان النهار على وشك أن ينبثق، فأنوار الفجر الرمادية تضيء المشهد كله..

وصاح جنجل الذي لا يعرف الحياء قائلًا:

– هالو! هل أصيب أحد؟ سادة مسنون، وأوزان غير خفيفة، فالخطر كبير.. كبير جدًا!

فزأر مستر واردل قائلًا:

– إنك لوغد!

فكان جواب مستر جنجل على ذلك قهقهة عالية، ثم أردف بعدها بغمزة، وإشارة من إبهامه إلى داخل عربته قائلًا:

– إنها بخير حال. تقرئكم السلام. وترجوكم ألا تتعبوا أنفسك من أجلها. وتحياتها إلى «تابي». والى الأمام أيها الغلمان ..

وصدع غلمانه بالأمر فساروا بالعربة، ولوح مستر جنجل بمنديل أبيض من النافذة للسيدين البدينين الواقفين تحت المطر.

ولم يكن شيء في هذه المغامرة كلها قد زعزع هدوء مستر بيكويك. ومع هذا فإن النذالة التي سولت لجنجل أن يقترض من تابمان نقودًا، ثم يختصر اسمه بعد ذلك إلى «تابي» كانت في الواقع أقوى من احتماله .. فزفر واحمر وجهه حتى أطار منظاره، وقال ببطء ولدد:

– لو لقيت يومًا هذا الرجل مرة أخرى، فإني ..

فقاطعه مستر واردل قائلًا:

– نعم نعم. هذا كله جميل. ولكن في الوقت الذي تقف نحن فيه هنا نتكلم، سيحصلان هما على ترخيص ويتزوجان في لندن.

فتمهل مستر بيكويك لحظة، وكظم غيظه وأخفى معالمه، وسأل مستر واردل أحد غلمان العربة:

– كم تبعد عنا محطة المرحلة الثانية؟

– أكثر من ستة أميال يا سيدي.

– لا مناص إذن من أن نمشيها يا بيكويك

فقال له ذلك الرجل العظيم حقًا:

– أجل لا مناص!

وهكذا أقدم مستر بيكويك ومستر واردل في شجاعة على المشي، بعد أن أحكما وشاحيهما حول عنقيهما، وجذبا قبعتهما إلى أسفل لتجنب وابل المطر قدر الإمكان، ذلك المطر الذي هدأ لحظة ثم عاد إلى الانهمار مرة أخرى مدرارًا .

في خان الغزال الأبيض

في فناء خان قديم من خانات مدينة لندن، هو خان الغزال الأبيض في حي «بورو» وفي الصباح الباكر بعيد الأحداث التي أجرينا ذكرها في الفصل الأخير، كان تنظيف الأحذية الشغل الشاغل لرجل لف حول عنقه منديلًا أحمر فاقع اللون، وعلى رأسه قبعة قديمة يضاء ألقاها على جانب ناصيته في إهمال، وأمامه صفان من الأحذية، ينتظم أحدهما ما تم تنظيفه، وينتظم الآخر ما لا يزال قذرًا منها، وكلما أضاف إلى الصف النظيف زوجًا جديدًا، تمهل ونظر إلى صنع يده نظرة إعجاب صريح.

وظهرت في النافذة العليا وصيفة مليحة، ونادت متجهة إلى الفناء قائلة:

– سام..

فأجابها الرجل ذو القبعة البيضاء قائلًا:

– لبيك ..

– إن النزيل رقم اثنين وعشرين يريد حذاءه ..

– إذن اسألي رقم اثنين وعشرين هل يريده الآن، أو ينتظر حتى يأتيه..

فقالت الفتاة في لهجة المداعبة والمزاح:

– لا تكن أبله يا سام، فالسيد يريد حذاءه فورًا. فقد حضر في ساعة مبكرة جدًا هذا الصباح، ومعه سيدة في عربة، وقد حجزا حجرة جلوس خاصة، الحجرة رقم خمسة، في الطابق الأول. فأوحت كلمة «حجرة جلوس خاصة» إلى عقل سام أن النزيل رجل ثري، وأنه سيناله منه خير، واستحسنه هذه الفكرة، فراح يعمل فرشاته في نشاط صادق وهمة قلبية، فما انقضت بضع دقائق حتى وصل الحذاء إلى باب «حجرة الجلوس الخاصة».

وكان صدى قرع سام على الباب، صوت رجل يقول:

– ادخل ..

فانحنى سام خير انحناءة: يعرفها، وتقدم فمثل بين يدي سيدة وسيد جالسين إلى مائدة الإفطار.

وقال السيد موجهًا إليه الخطاب:

– يا صاحب الأحذية. هل تعرف ماذا أقول؟ مكتب ترخيصات الزواج؟

– أليس هو المكان الذي يستخرج فيه المحامون ترخيصات الزواج؟ أجل يا سيدي، أعرفه. إنه على بعد عشر دقائق من هنا لا أكثر.

فلما فرغ سام من الإدلاء بهذه المعلومات غادر الحجرة وقال السيد، وهو السيد جنجل، كما لا يحتاج إلى تقديم أو تعريف:

– الساعة الآن منتصف العاشرة.. الوقت المناسب تمامًا.. سأذهب فورًا فقالت راشيل على استحياء:

– الوقت المناسب لأي شيء؟

فقال جنجل وهو يقرص يد العمة العانس:

– لاستخراج الترخيص، يا أعز الملائكة طرًا، والتنبيه على الكنيسة، لعقد قراني عليك غدًا!

فقالت راشيل وقد تضرج وجهها خجلًا:

– الترخيص تقول؟

– الترخيص أقول!

وفي سرعة، سرعة عربات البريد، سأسعى إلى الترخيص وفي سرعة، دج دونج، سأعود بالترخيص فقالت له العمة العانس في حرارة:

– لا تطل الغياب ..

– أطيل الغياب بعيدًا «عنك»؟ يا لك من فاتنة قاسية القلب!

ووثب مازحًا على العمة العانس، فطبع قبلة طاهرة عفيفة على خدها، ثم خرج من الحجرة في خطوات راقصة ..

فقالت العمة العانس حين أغلق الباب من ورائه:

– أي رجل عزيز!

أما مستر جنجل، فكان يقول في نفسه وهو يجتاز الدهليز:

– أي فتاة عجوز بلهاء!

لما كان من المؤلم أن يفكر الإنسان في خسة الجنس البشري، فلن نتابع أفكار مستر جنجل وهو يشق طريقه إلى مكتب عقود الزواج. ويكفي في هذا المقام أن نذكر إنه ما أن حصل على ترخيص بزواج ألفريد جنجل من راشيل واردل، حتى وضع الوثيقة الخفية في جيبه، وعاد إلى خان الغزال الأبيض منتصرًا مزهوًا.

وكان جنجل في طريقه عائدًا إلى الخان حين دخل فناء ذلك الخان سيدان على شيء من البدانة، ومعهما سيد ثالك نحيف الجسم، وتلفت السادة الثلاثة فيما حولهم لعلهم يرون شخصًا يتوجهون إليه ببضعة أسئلة. واتفق في هذه اللحظة أن كان مستر صمويل ويلر يطلي زوجًا من الأحذية فتقدم منه السيد النحيف ثم قال: «أيها الصديق».

فقال سام في نفسه:

– أنت لا شك تريد أن تحصل مني على شيء بعنيك أمره، وإلا لما نزل على قلبك سهم غرامي في التو والساعة.

بيد إنه لم يصرح بشيء من هذا الذي دار في نفسه، وإنما هو قد اكتفى بأن يقول: «لبيك يا سيدي».

فعاد الرجل النحيف إلى خطابه قائلًا":

– هل لديكم أيها الصديق نزلاء كثيرون في الوقت الحاضر؟ إن الزحام شديد. أليس كذلك؟

فاسترق سام النظر إلى محدثه، فوجده رجلًا مقددًا، عيناه السوداوان لا تستقران على شيء، فهما تدوران ملتمعتين على جانبي أنف فضولي صغير الحجم، وكان لباسه السواد في جميع أطرفه، وله حذاء يلمع فرداه الأسود ببريق يضاهي التماع عينيه، وقد استعرضت صدارة سلسلة ساعة من الذهب علقت فيه.

فعاد الرجل يكرر عليه المقطع الأخير من سؤاله:

– إن الزحام شديد أليس كذلك؟

فراح سام يجيب في حذر قائلًا:

– إن الحال على ما يرام يا سيدي، فلسنا على شفا الإفلاس، ولسنا كذلك ممن يجنون ثروة طائلة

وبدا على الرجل النحيل أن الضيق قد أخذ به الطريقة سام في الجواب، وراح يستشير صاحبيه البدينين، وفي ختام تلك الاستشارة تدخل

أحد هذين السيدين البدينين، وكان يجمع إلى سماحة خلقته منظارًا ذهبيًا فوق عينيه وتزلكا أسود فرق حذائه. فقال ذلك السيد السمح:

– واقع الأمر أن صاحبي هذا الماثل هنا (وأشار إلى السيد البدين الآخر) سيمنحك نصف جنيه إذا أجبت على سؤال أو سؤالين.

فقاطعه الرجل النحيف قائلًا:

– سيدي العزيز، ألا اسمح لي يا سيدي العزيز أن أقول لك، إنك إذا وضعت أمرًا بين يدي رجل من رجال القانون، فينبغي أن لا تتدخل في تطورات المسألة، وينبغي أن تثق به كل الثقة. والواقع يا مستر .. (ثم التفت إلى السيد البدين الآخر وقال له) لقد نسيت اسم صديقك.

فقال مستر واردل: «بيكويك» فلم يكن ذلك الشخص سوي صاحبنا بيكويك الظريف.

– أجل بيكويك. والواقع يا مستر بيكويك إنك ينبغي أن تدرك مبلغ الخروج على اللياقة حين تتدخل في مثل هذا الموضوع معتمدًا على حجة أو سلاح عبارة عن جائزة مقدارها نصف جنيه. الواقع يا سيدي العزيز، الواقع ..

ثم سكت الرجل النحيف عند هذا الحد، وتناول نشقة من النشوق، ثم بدت عليه أمارات التعقل والحكمة، فقال مستر بيكويك:

– لقد كانت رغبتي الوحيدة يا سيدي أن أضع حدًا لهذه المسألة المزعجة بأسرع وقت مستطاع. فاستعملت سلاحًا أو حجة طالما علمتني خبرتي ببني الإنسان أنها خليقة أن تنجح في جميع الظروف.

فقال الرجل النحيف:

– كلام صحيح. كلام صحيح. شيء جميل حقًا، ولكن كان يجب أن توعز إلى أنا بالفكرة. ومما لا شك فيه عندي أنك لا يمكن أن تكون جاهلًا بمبلغ الثقة التي ينبغي أن توضع في رجل محترف مثلي، وإذا..

وهنا قاطع سام صاحب الأحذية المحامي النحيف قائلًا:

ليس مهما عندي من الذي يقدم الجائزة. فليست هذه النقطة ذات بال (لا هي هنا ولا هناك) إنكم تريدون مني أن أقبل من نصف جنيه. وهذا في حد ذاته جميل، وأنا رجل سهل التناول، وليس في مقدوري أن أزيد على ذلك. أليس كذلك يا سيدي؟

فابتسم له مستر بيكويك، فاستطرد قائلًا:

– إذن فالمسألة هي: ماذا تريدون مني بحق الشيطان، كما قال الرجل في (الرواية المشهورة) حين تراءى له الشبح؟

فقال مستر واردل:

– إننا نريد أن نعرف ..

فقاطعه الرجل النحيف الثرثار قائلًا:

– الآن يا سيدي العزيز.. من فضلك يا سيدي العزيز..

فهز مستر واردل كتفيه وسكت، ليتكلم الرجل النحيف بكل وقار:

– إننا نريد أن نعرف من هم المقيمون في الخان في وقتنا الراهن!

فقال سام، الذي يتمثل النزلاء لذهنه دائمًا على صورة الأحذية التي تقع تحت حسه على الدوام:

– من النزلاء الآن؟ هناك في الحجرة رقم ٦ ساق خشبية، وهناك زوج من أحذية الركوب في الحجرة رقم ١٣ وهناك زوجان من الأحذية الحريمي في الحجرة رقم ٢٠ وهناك سنة أزواج أخرى من أحذية الركوب في غرفة التجار، وهناك زوج من الأحذية طراز ولنجتون نال منها البلي، ومعه زوج من أحذية السيدات في الحجرة الخاصة، حجرة الجلوس رقم ٥

فسأله مستر واردل متلهفًا:

– ألا يوجد اسم الصانع على الحذاء الحريمي في هذه الغرفة الأخيرة.

– بلي. براون بلدة ماجلتون.

فصاح واردل متهللًا:

– إنهما هما. لقد وجدناها بحق السماء!

فقال له سام:

– صه. فقد ذهب إلى مكتب ترخيصات الزواج.

فقال الرجل النحيف: أحقًا؟

فقال سام: «أجل. ليستخرج ترخيصًا بالزواج».

فقال واردل في لهفة:

– لقد وصلنا في الوقت المناسب، دلنا على الغرفة، فليس أمامنا لحظة واحدة نضيعها سدى فقال الرجل النحيف وهو يخرج من جيبه نصف جنيه ويضعه في يد سام:

– يا سيدي العزيز. الحذر الحذر. والآن اذهب بنا (موجهًا الكلام لسام) إلى تلك الغرفة، وأدخلنا بدون أن تعلن قدومنا، وفورًا.

فسار بهم سام مخترقًا ممرًا مظلمًا، ثم صعدة في سلم عريض، ووقف عند نهاية دهليز وأشار إلى باب هناك. ففتح مستر واردل العجوز ذلك الباب، ودخل الثلاثة الجرة في اللحظة عينها التي كان فيها مستر جنجل قد أخرج من جيبه بعيد وصوله ترخيص الزواج ليطلع العمة العانس عليه وأطلقت العمة العانس صرخة عالية، ثم ألقت بنفسها في مقعد، وغطت وجهها بيديها، فكور مستر جينجل الترخيص ودسه في جيبه، وتقدم الضيوف المقتحمون داخل الغرفة.

وصاح واردل وقد تلاحقت أنفاسه لفرط انفعاله:

– يا لك من وغد مليح!

فتدخل المحامي النحيف قائلًا:

– سيدي العزيز. أرجوك أن تقدر وتتدبر. أرجوك. هذه ألفاظ يترتب عليها اتهام بالقذف والسب، وترتب عليها تعويضات ورد شرف. ناهدًا يا سيدي العزيز. أرجوك.

فعاد الرجل العجوز يقول:

– كيف تجسر على انتزاع شقيقتي من بيتي؟

فقال المحامي الهزيل:

– أجل أجل. جميل جدًا. هذا سؤال يمكن أن تسأله. كيف تجاسرت يا سيدي؟ ما قولك؟

فتساءل مستر جنجل صارخًا بصوت عنيف، حتى لقد تراجع الرجل النحيف أمام عنفه خطوة أو خطوتين:

– من تكون بحق الشيطان؟

فتدخل مستر واردل قائلًا:

– من يكون؟ يا لك من وغد! إنه موكلي المحامي مستر بيركر. أعلم يا بيركر أنني سأتعقبه وإنني.. إنني سأطبق عليه الخراب.

ثم التفت مستر واردل نحو شقيقته الفضلى وقال:

– أما أنت. أنت يا راشيل، فكيف سولت لك نفسك في هذا الأوان من حياتك، وكان ينبغي أن تخلدي فيه إلى الحكمة والتعقل، أن

تفري مع أفاق، فتصمي أسرتك بميسم العار، وتجرى على نفسك الشقاء والشنار؛ احضر لنا عربة في الحال– أسامع أنت؟

وكانت هذه الكلمة الأخيرة موجهة إلى سام الذي دخل عقيب جذب مستر واردل لحبل الجرس في عنف، وكان دخوله تلبية له سريعًا جدًا، سرعة تدهش أي إنسان ما لم يعلم أن عين سام كانت على خرق مفتاح الباب خلال المشهد الأخير. ولي سام أمر مستر واردل.

والتقت مستر واردل بعد ذلك إلى شقيقته وقال:

– هيا إلبسي قبعتك.

فقال مستر جنجل:

– لا تفعلي شيئًا من هذا. وأنت يا سيدي أترك الغرفة فورًا. لا شأن لك هنا، فالسيدة حرة في تصرفاتها تفعل ما تشتهي. آنها تجاوزت الحادية والعشرين من عمرها.

فصاح واردل في بغض وازدراء:

– تجاوزت الحادية والعشرين! بل قل تجاوزت الحادية والأربعين..

فقالت العمة العانس مستنكرة:

– كلا. لم أبلغ هذه السن

فعاد مستر واردل يقول في إصرار:

– بل بلغتها. بل إنك قد جاوزت الخمسين، لا تقلين عنها ساعة!

وهنا أطلقت العمة العانس صرخة مدوية ثم غشي عليها. فقال مستر بيكويك الحنون، مناديًا ربة الخان: «كوب ماء».

فقال مستر واردل المهتاج:

– كوب؟! بل مات دلاء كاملًا، وألفه كله فوقها، فسيجدي ذلك عليها، ولقد والله استحقته عن جدارة.

وعندئذ أفاقت العمة العانس من إغمائها بسرعة عظيمة، خشيت اقتراح أخيها، ودخل في هذه اللحظة سام من الباب قائلًا:

– العربة حاضرة يا سيدي فصاح مستر واردل:

– هيا بنا يا راشيل. انزلي معي.

فقاطعه مستر جنجل قائلًا:

– يا صاحب الأحذية ادع لي شرطيًا فقال مستر بيركر النحيل:

– مهلًا مهلًا. تدبر يا سيدي تدبر.

فصاح مستر جنجل:

– كلا. لن أتدبر. فهي سيدة نفسها. وأحب أن أرى من ذا الذي يجسر على إخراجها من هنا، إلا إذ أرادت ذلك.

فنعمت الهمة العانس وهي تنشج ببكاء هستيري:

– لن أخرج. لا أريد أن أخرج.

قال المحامي النحيف على مستر بيكويك ومستر واردل، وقد انتحى بهما جانبًا، وراح يقول لهما في صوت خفيض:

– إننا في مأزق حرج. حرج للغاية، فالواقع يا سيدي العزيزين، إنه لا سلطة لنا على تصرفات هذه السيدة، وقد نبهتكما قبل أن نحضر إلى هنا أن أملنا الوحيد هو أن ندفع لهذا السيد من تخليه عن الآنسة واردل، فينصرف عنها.

فقال واردل:

– أني مستعد أن أدفع أي مبلغ، فذلك خير من الخنوع لهذا العار، ومن ترك هذه الحمقاء تتردي في هاوية الشقاء ما عاشت.

فقال المحامي النحيف:

– أكبر ظني أن هذا ممكن.

ثم انتهي بستر جنجل جانبًا، بعيدًا عن سمع الآخرين.

قال المحامي لجنجل:

– والآن يا سيدي، أما من وسيلة لتسوية هذا الموضوع.. لندخل هذه المعرفة يا سيدي حتى نكون بمعزل. والآن يا سيدي العزيز، إننا نعلم تمام العلم، وهذا بيني وبينك طبعًا يا سيدي العزيز، أنك إنما فررت بهذه السيدة من أجل مالها. لا تعبس يا سيدي. لا تعبس، أننا نعلم هذا فيما

بيننا، فكلانا رجل خبر الدنيا، ونحن نعلم أن صاحبينا هذين ليسا من ذلك الطراز. أليس كذلك؟

اختفى العبوس من وجه مستر جنجل ولمعت في عينه اليسرى ومضة خاطفة، فلما رأى المحامي ذلك استأنف كلامه:

– جميل جدًا. جميل جدًا.. والآن نتكلم في الموضوع، أن هذه السيدة لا علك شيئًا ما دامت والدتها على قيد الحياة، اللهم إلا بضع مئات من الجنيهات، ووالدتها يا سيدي العزيز عجوز قوية البنية.

فقال جنجل في حرارة واختصار:

– عجوز!

– صدقت يا سيدي العزيز. أنت صادق في هذا يا سيدي العزيز، فهي فعلًا عجوز. ولكن تذكر إنه ما من فرد من أفراد أسرتها مات قبل الخامسة والثمانين. وتذكر أن السيدة العجوز لم تبلغ بعد الثالثة والسبعين من عمرها.

وتمهل المحامي الهزيل لحظة، نشق فيها نشقة، فقال جنجل:

– وبعد..

– وبعد يا سيدي العزيز، فأنت شاب مليح، ورجل عرك الحياة، وفي مقدورك أن تبني مستقبلك الزاهر إذا توفر لديك رأس المال. أليس كذلك؟

– وبعد..

– أفهمتني؟

– لا كل الفهم.

– ألست ترى الآن يا سيدي العزيز– وهذا هو ما أعرضه عليك– إن خمسين جنيهًا مع الحرية خير لك من الآنسة واردل مع الانتظار!

فأشاح جنجل بوجهه وقال:

– غير مجد. فهو لا يبلغ نصف مطمعي.

فتشبث المحامي بزر في ثوبه وأهاب به قائلًا:

– انتظر انتظر يا سيدي العزيز. إن خمسين جنيهًا مبلغ طيب، وما أكثر ما يقضي بهذه الجنيهات الحسين يا سيدي العزيز.

فأجابه جنجل في برود قائلًا:

– وقضى أكثر منها بكثير مائة وخمسين.

– جميل يا سيدي العزيز. فلن نضيع الوقت في المساومة. لنقل. لنقل. سبعين.

– لا فائدة ..

– لا تتصرف يا سيدي العزيز. أرجوك ألا تتعجل. ثمانين. هيا. سأكتب لك شيكًا بها في الحال.

– لا فائدة ..

فقال المحامي النحيف وهو لا يزال يستبقيه:

– يا سيدي العزيز. قل لي بالضبط كم يرضيك؟

– مسألة باهظة التكاليف. أنفقت كثيرًا من جيبي، عربة بتسعة جنيهات، ترخيص بثلاثة. المجموع أثنى عشر، تعويض مائة جنيه. المجموع مائة واثني عشر. رد شرف، وفقدان السيدة.

فقاطعه الرجل الهزيل وهو ينظر إليه نظرة العارف:

– نعم يا سيدي العزيز نعم، دعك من النقطتين الأخيرتين. إن المجموع حتى الآن مائة واثني عشر. فلتقل مائة.

– وعشرين ..

فقال المحامي وهو يجلس إلى مائدة ويستعد الكتابة:

– هيا هيا. سأكتب لك شيكًا بمائة جنيه في الحال– وعشرين..

– يا سيدي العزيز!!

وهنا قال مستر واردل الذي كان قد سمع الجانب الأخير من الحوار:

– اعطه. اعطه ما يريد، وليذهب

وحرر الشيك ودسه مستر جنجل في جيبه.

وصرخ مستر واردل في وجهه صائحًا:

– والآن اترك هذا البيت فورًا، وما من شيء كان يمكن أن يحملني على إعطائك هذا المال، لولا أني أعلم أنك ما أن تضعه في جيبك حتى تذهب إلى الشيطان به، بأسرع من ذهاب إليه من دونه فقال المحامي الهزيل محذرًا:

– سيدي العزيز!

– اسكت يا بيركر. اخرج من هذه الغرفة.

فقال مستر جنجل الذي لا يعرف الحياء:

– سأخرج حالًا.

ثم التفت ذلك الخائن المتبجح، إلى مستر بيكويك فقذف بالترخيص تحت قدميه وهو يقول له:

– وداعًا يا بيكويك. اشطب الاسم، وخذ السيدة إلى البيت، فمن الممكن أن ينتفع به (تابي).

وكان مستر بيكويك فيلسوفًا، بيد أن الفلاسفة إن هم إلا بشر ذو جلد وزرد، وقد نفذ السهم من زرده الفلسفي فأصاب سويداء قلبه، ففي ثورة الخنق الجنوني قذف بالدواة في وجه مستر جنجل، ثم أتبعها بنفسه، ولكن مستر جنجل كان قد اختفى خارج الباب، فألقى مستر بيكويك نفسه بين ذراعي سام! فقال سام:

– يبدو أن الأثاث رخيص الثمن في حيثما جئت يا سيدي. فهذا حبر ثابت. فأنت قد تركت أيها السيد العجوز أثرك على الجدار. اثبت يا سيدي حيث أنت، فما جدوى العدو وراء رجل لاذ بالفرار، ولا شك إنه قد أصبح في آخر الحي هذه اللحظة.

وقد وهب الله مستر بيكويك عقلًا كعقول كبار الرجال حقًا، مستعدًا للاقتناع، فكان حسبه لحظة تفكير واحدة لتبين أن غضبه غير مجد، فخمدت جذوته كما اتقدت وشيكًا. وأخذ يلهث ليسترجع أنفاسه، وهو يرمق من حوله بنظرة سمحة.

أترانا بحاجة بعد ذلك إلى سرد الألم الذي حاق بالآنسة واردل حين ألفت نفسها وقد هجرها جنجل الذي لا عهد له؟

أترانا بحاجة إلى نقل ذلك الوصف الرائع الذي صور به مستر بيكويك هذا المشهد الذي تتفتت له الأكباد؟

ولكن كلا. سنجنح إلى الحزم، ونجنب القارىء آلام تلك الأوصاب!

وفي هدوء حزين أقل الصديقان والسيدة المهجورة في اليوم التالي مستقلين عربة بريد ماجلتون، وكانت ظلال الليل القاتمة قد خيمت حين وصلوا إلى دنجلر دل، ووقفوا عند مدخل مزرعة التفتيش.

مستر تابمان يعتزل العالم

تخلص مستر بيكويك من كل أثر لعناء الجسد وحيرة العقل بعد ليلة من نعاس هادئ بين ربوع دنجلي دل الساكنة، أعقبها مشي ساعة في الهواء المنعش في الصباح التالي. وفي عودته من هذه الجولة الباكرة سره وأثلج صدره أن يلقي مستر وينكل ومستر سنود جراس. كما سر هذين الصديقين أن يلقياه. فمن ذا الذي يقع نظره على وجه مستر بيكويك الباسم ولا يخالجه انفعال السرور؟

وقال مستر بيكويك بعد أن شد على يدي حوارييه:

– وكيف حال تابمان؟

وكان ذلك السؤال موجهًا إلى مستر وينكل، بيد إنه لم يجب، بل أشاح برأسه في غموض وسهوم، لم يخفيا على فطنة مستر بيكويك، فقال في اهتمام:

– يا سنود جراس، كيف حال صديقنا؟ أهو مريض؟

فأجاب مستر سنود جراس وقد اختلجت دمعة فوق جفنه الرقيق كما تختلج قطرات المطر على زجاج نافذة، قال:

– كلا. ليس مريضًا.

فوقف مستر بيكويك وراح ينقل تحديقه بين صاحبيه، ثم قال:

– يا وينكل، ويا سنود جراس، ما معنى هذا الغموض؟ أين صاحبنا؟ ماذا حدث له؟ خبراني أرجوكما، كلا، بل آمركما أن تصارحاني.

فقال سنود جراس: «لقد ذهب».

فصاح مستر بيكويك: «ذهب! ذهب!».

فعاد مستر سنود جراس يقول مؤكدًا ومكررًا:

– ذهب!

– أين ذهب؟

فأجاب مستر سنود جراس وهو يخرج من جيبه قصاصة:

– لبس في وسعنا إلا التخمين. فأمس صباحًا، حينما وصل خطاب من مستر واردل يقرر فيه أنكما ستعودان في المساء بشقيقته، زادت على صديقنا وطأة الكآبة السوداوية التي رزح تحتها طول اليوم السابق، وبعد قليل اختفى، وظل مختفيًا طول النهار، فلما كان المساء حملت إلينا هذه الرسالة من خان التاج في ماجلتون.

وفض مستر بيكويك الخطاب، وكان بخط صديقه وفيه ما يلي:

«عزيزي بيكويك:

لقد أحلك الله أيها الصديق العزيز بموضع لا ترقى إليه أفانين الضعف البشري، ذلك الضعف الذي ليس في مقدور عامة الناس أن يتغلبوا عليه. فلست تدري ما معنى هجران امرأة فاتنة حسناء، أو كيف يكون المرء فريسة لألاعيب وغد يخفي ابتسامته الماكرة تحت قناع الصداقة. وإني لأتمنى لك ألا تعرف طعم هذه النوازل يومًا من الأيام.

إن أي خطاب يرسل بعنوان خان الزق، ببلدة كوبهام مقاطعة كنت حري أن يصل إلي، إن كنت على قيد الحياة، فإني أحث الخطى مبتعدًا عن مشهد هذا العالم الذي أمسى كريهًا عندي. ويا ليتني أفارق العالم فراقًا بائنًا. فأشفق علي واغفر لي، فإن الحياة يا عزيزي بيكويك أصبحت لا تطاق، حتى أنخت تحت عنها الثقيل. ولك أن تخبر بذلك راشيل. آه من ذلك الاسم!

تراس تابمان»

وقال مستر بيكويك بعد أن قرأ الخطاب:

– يجب أن تغادر هذا المكان فورًا. فما كان يليق بنا أن نبقى هنا بأي حال، وقد صار من واجبنا الآن أن نبحث عن صديقنا.

وتقدم صاحبيه نحو المنزل، وسرعان ما عرفت نواياه، فاشتد عليه الإلحاح كي يبقى، بيد أن مستر بيكويك كان حازمًا، فتعلل بأن أعماله أصبحت تتطلب عنايته العاجلة.

ومشي مستر بيكويك وصاحباه سيرًا على الأقدام إلى ماجلتون، حيث اكتروا عربة إلى روشستر فلما حان الوقت لوصولهم إلى ذلك الموضع، كان حزنهم قد تضاءل بما يكفي للسماح لهم بتناول طعام فاخر بشهية عظيمة. ثم سألوا عن الطريق واتجهوا سيرًا على الأقدام عصرًا إلى كوبهام.

فلما وصلوا إلى كوبهام، اتجهوا إلى خان الزق، وهناك سألوا عن سيد يدعي تابمان، فقالت ربة الخان للساقي:

– خذ هؤلاء السادة إلى قاعة الجلوس يا توم.

وفتح الغلام القروي بابًا في نهاية دهليز، فدخل الأصدقاء الثلاثة حجرة منخفضة السقف، في أقصاها مائدة عليها مفرش أبيض اللون، وفوقها شواء دجاجة كاملة، وخمر ولحم خنزير مملح (جامبون). وإلى هذه المائدة جلس مستر تابمان، وعليه مخايل مي نقيض مخايل اعتزال العالم والزهد فيه، فلما رأى أصحابه داخلين عليه، وضع من يده الشوكة والسكين، ثم تقدم لملاقاتهم في اكتئاب، وقال وهو يهز أيديهم:

– لم أتوقع حضوركم، وإنه لكرم عظيم.

فقال مستر بيكويك وهو يجلس:

– أكمل طعامك، ثم تعال معي نتمشي، فإني أريد أن أتحدث معك على انفراد.

وصدع مستر تابمان بالأمر، وجلس مستر بيكويك ينعش فؤاده بزجاجة من الخمر (البيرة) ثم انتظر حتى أشبع مستر تابمان شهوته الطعام، ثم خرجا معًا.

وتمشيا في فناء الكنيسة جيئة وذهابًا. واستخدم مستر بيكويك كل قوة ونشاط رزقهما عقله الكبير في إقناع صديقه بالرجوع عن عزمه. وبعد نصف ساعة اقتنع مستر تابمان بحجج زعيمه، وأعلن عن استعداده للعودة إلى رفاقه ومشاركتهم مغامراتهم.

وقضى السادة الأربعة تلك الليلة في خان الزق، وفي الصباح تناولوا إفطارًا دسمًا، ثم رحلوا سيرًا على الأقدام إلى جريف سند، فبلغوا تلك المدينة في نحو الساعة الواحدة بعد الظهر (وكانت حقائبهم قد أرسلت إلى لندن من روشستر رأسًا) فأسعدهم الحظ بالحصول على: أما كن خارج عربة البريد، ووصلوا إلى لندن في خير وصحة وانشراح خاطر في عصر ذلك اليوم.

وبعد خمسة أيام كان مستر بيكويك منهمكًا في مسكنه بشارع جوزويل، يعد العدة لرحلة إلى ايتانسويل، حيث قرر أن يحضر معركة انتخابية لعضوية البرلمان. ونطلع عليه استعداده وصول رفاقه الثلاثة، الذين أخبروه فور وصولهم أن في الدهليز رجلًا ينتظر الإذن بمقابلته.

فقال مستر بيكويك:

– إنه الرجل الذي حدثتكم عنه. فقد أرسلت إليه في خان الغزال الأبيض بحي بورو هذا الصباح. فأرجوك يا سنود جراس أن تتكرم بإدخاله.

وصدع سنود جراس بالأمر، ودخل مستر صمويل ويلر الحجرة فقال له مستر بيكويك:

– أظنك تذكرني؟

فأجاب سام وقد غمز بعينيه:

– أعتقد هذا. فقد كانت مسألة تلك السيدة العجوز طريفة، بيد أن ذلك الفتى جنجل كان أطول منكم باعًا. أليس كذلك؟

– لا علينا من ذلك الآن. فإني أريد أن أتحدث إليك في موضوع آخر. اجلس.

– شكرًا لك يا سيدي.

وجلس فعلًا دون حاجة إلى تكرار الرجاء، وكان قد ترك قبعته العتيقة البيضاء في الدهليز خارج الباب، ثم ابتسم ابتسامة لطيفة وهو ينظر إلى البيكويكيين المجتمعين أمامه، وقال مستر بيكويك:

– لنتكلم في الموضوع الذي أرسلت إليك من أجله.

– هذا هو المهم يا سيدي. ألفظه يا سيدي، على حد تعبير الوالد الذي ابتلع وليده بنسًا.

– أريد أن أعرف قبل كل شيء إذا كان لديك من الأسباب ما يجعلك غير راض عن وظيفتك الحالية.

– قبل أن أجيب على هذا السؤال يا سيدي، أحب قبل كل شيء أن أعرف إذا كانت لديك وظيفة خير لي منها؟

فتلاعبت ابتسامة سمحة على وجه مستر بيكويك وهو يقول:

– إني أراود عقلي على استلحاقك خادمًا لي.

– والأجر؟

– اثنا عشر جنيها في السنة.

– والملابس؟

– بدلتان في السنة.

– والعمل؟

– تخدمني، وتسافر معي ومع هؤلاء السادة.

–إن هذا يوافقني. فأنا منذ الساعة خادمك يا سيدي، وجميع هذه الشروط موضع اتفاق متبادل.

– هل تقبل هذه الوظيفة؟

– لا شك. وإذا كانت الثياب توافقني نصف ما يوافقني المكان، فهي إذن حسبي.

– في وسعك طبعًا أن تقدم شهادة حسن سير وسلوك.

– سل في هذا الصدد ربة خان الغزال الأبيض يا سيدي.

– هل تستطيع أن تحضر منذ الليلة؟

– بل إني على استعداد لارتداء الملابس في هذه الدقيقة!

– إذن تعال في الساعة الثامنة هذا المساء، وإذا كانت المعلومات عنك مرضية، فستقدم لك الثياب.

وكان تاريخ حياة مستر صمويل ويلر خالية من الشوائب، فأقر مستر بيكويك تعيينه منذ تلك الليلة. وبما عرف عن جميع أعمال ذلك الرجل الفذ من نشاط وحزم، اقتاد خادمه إلى دكان يبيع الملابس الجديدة والمستعملة، وقبل حلول الليل كان مستر ويلر قد تزود بسترة رمادية اللون، تحمل شعار نادي بيكويك، وقبعة سوداء ذات (توكة) وصدار له حرف قرمزي وبنطلون للركوب من قماش خفيف وتزلك، وأشياء أخرى من هذا القبيل أكثر من أن تحصى.

فلما كان الصباح التالي، وقد أتخذ سام مكانه خارج عربة البريد المتجه إلى ايتانسويل، قال لنفسه:

– لست والله أدري هل أنا خادم أو وضيف أم سائس أم صاحب صيد؟ فإني أبدو خليطًا من كل هذا. ولكن لا ضير، ففي هذا العمل تبديل للهواء، ونزهة خاطر ومشاهدة للكثير من أمور العالم، والعمل قليل. وذلك شيء يلائمني إلى أبعد حد. فليحيا البيكويكيون.

الزرق والصفر

كان أهالي بلدة ايتانسويل، شأنهم في ذلك شأن أهالي كثير من البلدان الصغيرة، يظنون أنفسهم في الدرجة القصوى من الأهمية. فكان كل إنسان في ايتانسويل يشعر إنه مطالب بالانضمام قلبًا وروحًا إلى أحد الحزبين السياسيين الكبيرين الذين كانا يقتسمان المدينة. وما حزب الزرق وحزب الصفر.

وكان الزرق لا يدعون فرصة تمر إلا وانتهزوها لمعارضة الصفر، ولم يكن الصفر يدعون فرصة تمر دون أن ينتهزوها لمعارضة الزرق. وكانت عاقبة هذا الأمر أنه أينما تقابل الزرق والصفر في اجتماع عام، كأن يكون ذلك في قاعة البلدية أو في السوق، كانت المناقشات الحامية والعبارات النابية تحتدم بين الفريقين.

وكان من الضروري الجوهري بطبيعة الحال أن يكون لكل حزب من هذين الحزبين القويين صحيفته الخاصة، ومن ثم كانت في البلدة صحيفتان: ايتانسويل جازيت، وايتانسويل المستقلة، والصحيفة الأولى تحمل راية مبادئ، الزرق. والأخيرة تتعصب تعصبًا واضحًا للصفر والحق أنهما كانتا صحيفتين مليحتين! فما أبدع المقالات الافتتاحية، والهجمات التي تنم عن ألمعية! من قبيل «قالت زميلتنا المبتذلة الجازيت» أو «تلك الصحيفة الحسية الكذوب، المسماة، بالمستقلة» وما إلى ذلك من الاتهامات المثيرة

التي كانت تنتشر بين أنهار كلتيهما، فتثير أعنف مشاعر السرور أو الاستنكار في صدور قرائها من أهالي البلدة.

وقد اختار مستر بيكويك بما عهد فيه من ثاقب النظر والحكمة وقتًا مناسبًا جدًا لزيارة تلك المدينة، فلم يسبق لتلك المعركة الانتخابية مثيل، وكان الاونرابل صمويل سلامكي، صاحب قصر سلامكي، مرشح الزرق. أما المحترم هوراشيو فيزكن، صاحب دار فيزكن، فكان مرشحًا على مبادئ الصفر.

وقد أنذرت الغازيت الناخبين في ايتانسويل أن أنظار العالم المتمدين قاطبة لا أنظار إنجلترا فحسب، تتطلع إليهم، وأما صحيفة ايتانسويل المستقلة فطالبت بأن تعرف هل رجال ايتانسويل هم الفتية الأمجاد كسابق المهد هم، أو هم أدوات وضيعة مهينة لا تستحق أن يطلق عليها اسم الإنجليز، وليست أهلًا لبركات الحضارة. فلا تعرف المدينة من قبل انتخاب اهتزت له اهتزازها لذلك الانتخاب.

وكانت ساعة متأخرة من المساء حينما وصل مستر بيكويك وأصدقاؤه الثلاثة وترجلوا عن سقف عربة بريد ايتانسويل، أمام خان «شعار المدينة». وكانت الرايات الزرقاء الكبيرة تخفق من النوافذ، وجمع غفير من التسكعين قد ازدحمت به الطريق، فراحوا ينظرون إلى رجل في صوته بحة ماثل في شرفة، يخطبهم في حدة صبغت وجهه بحمرة قانية، مؤيدًا ترشيح مستر سلامكي، وعند مواقف منتظمة متواترة، كان هؤلاء المتسكعون يرفعون عقيرتهم بالهتاف

الحماسي. وما أن ترجل البيكويكيون حتى أحاط بهم جمع من رعاع المدينة، هتفوا ثلاث مرات هتافًا يصم الآذان (وليس ضروريًا على الإطلاق أن يفقه العامة ما يهتفون به) وتضخمت الهتافات حتى صارت زئيرًا. وصاح الخطيب القرمزي الوجه: «وهتفة أخرى!».

فانطلق الرعاع يهتفون هتفة أخرى، كأن رئاتهم صيغت من حديد مصفح بالفولاذ، ودوي هتاف الناخبين الأحرار الشرفاء: (مع سلامكي إلى النهاية!».

فرفع مستر بيكويك فمنه وهتف وراءهم: «مع سلامكي إلى النهاية».

ودوي هتاف الغوغاء: «لا فزيكن بعد اليوم».

فصاح مستر بيكويك: «أبدًا أبدًا!».

«فانطلق الهتاف القاصف مرة أخرى، كأنه زئير الأسود ساعة تقديم الطعام في حديقة الحيوان «مرحى مرحى!».

وهمس مستر تابمان في أذن مستر بيكويك: «من هو سلامكي؟».

فأجابه مستر بيكويك بمثل طبقة الصوت التي خاطبه بها:

– لا أدري! صه! دعك من الأسئلة الآن. فمن الخير دائمًا في مثل هذه المناسبات أن تصنع ما يصنع الغوغاء.

فتساءل مستر سنود جراس:

– ولكن هب إنه كان هناك جمعان من الغوغاء في وقت واحد؟

فجاءته الفتوى من مستر بيكويك:

– اهتف في هذه الحالة مع الجمع الأكبر والأقوى!

وهي كما ترى حكمة وفصل خطاب، لا يبلغها في عمق مراميها مائة كتاب!

وكان مستر بيكويك يحمل خطاب تقدم إلى شخص يدعى مستر بوت، هو محرر صحيفة ايتانسويل جازيت، الذي كان الأمر مرتبًا معه من قبل على أن يقيم لديه مستر بيكويك ومستر وينكل. أما مستر تابمان ومستر سنود جراس فينزلان في خان «شعار المدينة». وعلى هذا غادر مستر بيكويك ومستر وينكل صديقهما في الخان وتوجها للبحث عن منزل مستر بوت، فلم يجدا أدنى صعوبة في العثور على مواطنين مستعدين ومتلهفين على توجيههم إلى مقر ذلك المواطن المشهور، وسرعان ما وصلا أمام بابه، فدنا الجرس، وأدخلا في الحال إلى حضرة مستر بوت العظيم شخصيًا.

فلما أن تبودلت عبارات الترحيب المألوفة، التفت مستر بوت إلى مستر بيكويك، وقال له في جد جاد:

– ما هو يا سيدي موقف الرأي العام في لندن بخصوص خصومتي مع صحيفة ايتانسويل المستقلة؟

فتدخل مستر وينكل في الحديث، قائلًا وهو يرمي بنظرة ماكرة أغلب الظن أنها صدرت عنه عفوا: «إن الرأي العام شديد الاهتمام بها ولا شك».

فقال بوت: «إن الخصومة ستطول وتمتد طالما لدي الصحة والقوة وذلك النصيب من الألمعية الذي أتمتع به، ولن أتراجع يا سيدي عن هذه الخصومة حتى أضع قدي فوق صدر صحيفة ايتانسويل المستقلة. وأود أن يعلم أهالي لندن وأهالي هذا الإقليم أن في مقدورهم أن يعتمدوا على».

وهنا توقف فيض فصاحة مستر بوت بسبب دخول مسز بوت.

وكانت حياة مستر بوت المنزلية لا تتعدى شخصه وزوجته. ومعلوم أن جميع الرجال الذين ارتفع بهم نبوغهم الفائق إلى مكانة رفيعة في الحياة الدنيا بهم في الغالب ضرب من ضروب ضعف الشخصية. فإذا كان مستر بوت به ضعف، فذلك الضعف ربما كان شده خنوعه لسيطرة زوجته الطاغية وتسلطها عليه. وكانت الزوجة مستعدة في الوقت الراهن لإبراز ألوان ظرفها لمناسبة استقبال هذين السيدين. وقال لها مستر بوت:

– يا عزيزتي هذا مستر بيكويك من لندن، وهذا صديقه مستر وينكل.

فقال مستر بيكويك:

– نحن مدينون لك باعتذارات كثيرة يا سيدتي، لما سببناه لنظام حياتك المنزلية من اضطراب، ودون إنذار سابق بمدة تذكر.

فقالت بوت في حماسة:

– لا تقل شيئًا من هذا يا سيدي. فإنه ليسرني أعظم السرور أن أرى وجوها جديدة لأنني أعيش بمعزل عن العالم في هذا المكان الميل الذي لا

تبديل فيه على الأيام والأسابيع، ولا أرى فيه إنسانًا. فقال مستر بوت ممازحًا في دهاء: «ألا ترين أحدًا حقًا يا عزيزتي؟

فأفحمته مسز بوت قائلة في ازدراء: «لا أحد سواك».

فالتفت رب الدار إلى مستر بيكويك محاولًا تبرير تذمر زوجته:

– ها أنت ذا ترى يا مستر بيكويك إنا إلى حد ما منقطعون عن المسرات التي كان من الممكن أن نستمتع بها. فمركزي العام بوصفي محرر صحيفة ايتانسويل جازيت، والمكانة التي تحتلها هذه الصحيفة في بلادنا، وانشغال المتصل بالسياسة ..

فقاطعته مسز بوت قائلة: «أرجو منك يا عزيزي ..».

– إن حياتي ..

– كم أود يا عزيزي أن نجتهد في العثور على مادة لحديثك يمكن أن يجد فيها هذان السيدان شيئًا من اللذة الفكرية.

– ولكن يا حبيبتي، هذا مستر بيكويك يلذ له هذا الموضوع.

– هو وما أراد إن كان يستطيع أن يجد فيه لذة. أما أنا فقد حطمني وأفسدت حياتي سياساتك، وخصوماتك مع الصحيفة المستقلة، وما إلى ذلك الهراء. فإني لأعجب أشد العجب لإصرارك على فضح حماقتك بهذا الشكل.

ثم التفتت إلى مستر وينكل وقالت: «هل تلعب الايكارتيه يا سيدي؟».

– كم يسعدني أن أتعلمها على يديك.

– اجذب هذه المنضدة الصغيرة نحو هذه النافذة، ودعنا ننأى بأسماعنا عن حديث السياسة الممل.

– وعكف مستر وينكل ومسز بوت على لعبتهما. أما مستر بوت فاستخرج مجموعة من أعداد الغازيت منذ سنة ١٨٢٥، وراح يقرأ لمستر بيكويك بعضًا من مقالاته الافتتاحية عن تعيين الصفر لجابي ضرائب المدينة، وراح يؤكد لمستر بيكويك إنه سيجد تلك المقالات مسلية للغاية.

وكان مستر بيكويك يصغي لهذه المقالات وقد أغمض عينيه، كمن يستمتع بما يسمع، ولم يقطع هذه القراءة إلا إعلان إعداد مائدة العشاء، فانتهت بذلك لعبة الايكارتيه، كما انتهت قراءة بدائع الجازيت، ولم يلبث الصديقان بعد ذلك إلا قليلًا حتى أويا إلى فراشهما.

وقد ذكرت الضجة والحركة الدائمة في الصباح التالي مستر بيكويك أن ذلك اليوم كان يوم الانتخاب العظيم. وكان قد أتم زينته العاجلة حين برز خادمه عند عتبة مخدعه، فقال له مستر بيكويك:

– يا سام. نظف قبعتي يا سام، فإني أسمع مستر وينكل يدعوني إلى الإفطار.

وهبط مستر وينكل بعد هذه الكلمات إلى حجرة الجلوس، حيث وجد الإفطار حاضرًا، وقد اجتمعت حوله الأسرة. فانتهت الوجبة على عجل، وندب مستر وينكل نفسه لصحبة مسز بوت إلى سطح منزل ملاصق لحلبة الخطابة الانتخابية. أما مستر بيكويك ومستر بوت فأخذا سبيلهما معًا إلى خان شعار المدينة، حيث لجان الدعاية لمستر سلامكي.

وكان المنظر في فناء الخان يشهد العالم على مجد حزب الزرق في ايتانسويل وشدة بأسهم.

فقد كان ثمة جيش منتظم من الرايات الزرقاء، بعضها ذو حامل واحد، وبعضها ذو حاملين، وقد نقشت فوقها عبارات تناسب المقام بأحرف يبلغ ارتفاعها أربعة أقدام. وكان هناك أيضًا فريق موسيقي ناشط جدًا، وخاصة الناقرون على الطبل. كما كانت هناك فرق من المنظمين الزرق، وعشرون عضوًا من أعضاء اللجان يلبسون أوشحة زرقاء. وكان بعض الناخبين يركبون الجياد، وبعضهم راجلين. وقد أعدت عربة مفتوحة تجرها أربعة جياد ليركبها الأونرابل صمويل سلامكي. كما أعدت أيضًا أربع عربات يجر كل منها جوادان، لركوب أصدقائه ومؤيديه. وكانت الرايات تخفق، والموسيقى تعزف، والمنظمون يسبون ويصخبون وأعضاء اللجان يتنازعون، والغوغاء يهتفون، والجياد تجفل، فكل من هناك وما هناك كان مشغولًا ومسخرًا لتمجيد وتكريم وتزكية الأونرابل صمويل سلامكي،

صاحب قصر سلامكي، وأحد المرشحين لتمثيل مدينة ايتانسويل في مجلس العموم، أحد مجلسي برلمان المملكة المتحدة.

وقال الأونرابل صمويل سلامكي لوكيله الانتخابي، وهو رجل نحيل لباسه السواد:

– هل كل شيء قد أعد؟

– كل شيء على ما يرام يا سيدي العزيز.

– أرجو ألا يكون قد أغفل أي شيء.

– لم نترك شيئًا يا سيدي دون إتمامه، لم نترك شيئًا على الإطلاق فهناك عشرون رجلًا اعتنينا بغسلهم جيدًا ستجدهم في انتظارك عند باب الشارع كي تصافحهم. وهناك أيضًا ستة أطفال محمولين على الأكتاف كي تربت على وجوههم وتسأل أمهاتهم عن أعمالهم، وأرجو أن تكون شديد الاهتمام بهؤلاء الأطفال يا سيدي العزيز، فهذه المسألة لها دائمًا أثر كبير.

– سأهتم بها جدًا.

– وربما أيضًا يا سيدي العزيز.. رعا إذا استطعت– ولا أقول إن هذا حتم لزام– حاول أن تقبل طفلًا من بينهم. فإن هذا سيكون له أعظم الأثر على الجماهير.

– ألا يكون هذا العمل نفس الأثر إذا قام به مساعدي؟

– أخشى ألا يكون الأمر كذلك. وأعتقد أنك لو قت بهذا العمل بنفسك يا سيدي العزيز، فإن شهرتك ومكانتك ستزداد كثيرًا.

قال الأونرابل صمويل سلامكي في استسلام:

– وهو كذلك. لا بد مما ليس منه بد.

وصاح رجال اللجان العشرون: «رتبوا الموكب!» وبين هتاف الجماهير المجتمعة، وضجة فرقة الموسيقي، والمنظمين، وأعضاء اللجان، والناخبين، والراكبين والراجلين، أخذ الموكب ينتظم. وكان مستر بيكويك ومستر بوت في إحدى العربات.

وسادت الموكب كله لحظة قلق وانتظار، إلى أن ركب الأونرابل صمويل سلامكي عربته.

وفجأة، أطلقت الجماهير هتافًا مدويًا، فقد صاح الوكيل الانتخابي في حماسة عظيمة: «لقد خرج» وتوالت الهتافات أشد وأعنف، ثم صاح الوكيل في الناس:

– لقد صافح الرجال بيده الكريمة.

فانطلق هتاف جديد أشد حماسة. وحينئذ صرح الوكيل الانتخابي وهو يرتعد حماسة:

– ها هو يربت على رؤوس الأطفال.

فشق الفضاء دوي عاصفة من التصفيق الحاد.

– يا الله. لقد قبل واحدًا منهم!

فارتفعت عاصفة أخرى من التصفيق.

– ها هو يقبل طفلًا آخر!

فدوت عاصفة ثالثة من التصفيق.

– هذا هو يقبلهم جميعًا!

ووسط عاصفة هائلة من التصفيق والهتاف شق الركب طريقه قدمًا.

وليس في مقدورنا أن نفسر كيف وبأي طريقة اختلط ذلك الموكب موكب للصفر، فسقطت قبعة بيكويك فوق عينيه وأنفه وفمه، بضربة حامل راية من رايات الصفر، وأحس مستر بيكويك إنه أصبح مركز دائرة من السجن الحاجة الضارية، وقد أحاطت به سحابة من التراب يثيره عراك الرجال من حوله. ووجد نفسه مضطرًا بدافع خفي إلى النزول من العربة، والاشتباك في العراك، وإن كان لا يدري مع من، وكيف، ولماذا، ثم وجد نفسه وقد اضطر إلى صعود بضع درجات خشبية، دفعه إلى ارتقائها بضعة أشخاص من خلفه، فلما رفع قبعته عن عينيه وجد نفسه في الصف الأول من الجانب الأيسر من حلبة الخطابة.

والجانب الأيمن من تلك الخلية كان مخصصًا لحزب الصفر. أما الوسط فللعمدة والضباط وكان أحد الضباط يدق ناقوسًا ضخمًا لاستدعاء انتباه الناس للصمت. وكان مستر هوراشيو فزكن والاونرابل

صمويل سلامكي ينحنيان البحر هائج من الرؤوس كان يملأ الرحبة الأمامية، حيث تصاعدت زوبعة من الأنين والهتاف والصراخ والعواء، زوبعة تكفي لرفع رأس زلزال عنيف.

وتقدم المحترم هوراشيو فزكن إلى الأمام وفي نيته أن يخطب الناخبين. وما كاد يتقدم حتى راحت الفرقة الموسيقية التي استخدمها الأونرابل صمويل سلامكي تعزف ما تعرف بأقوى عزم لدها. وكان جواب الصفر من الغوغاء على هذا التحرش أن راحوا ينهالون على رؤوس جماعة الزرق، وبهذا بدأ مشهد من العراك والتدافع والمقاتلة لا نستطيع أن نوفيه حقه من الوصف.

أمر العمدة اثني عشر شرطيًا بالقبض على محدثي الشغب، وعددهم قد بلغ مائتين وخمسين. وبعد نقاش حام من الجانبين، أسكنت الفرقة عن العزف، وهدأت الجماهير بعض الشيء، وسمح للمحترم هوراشيو فزكن بالتقدم الكلام.

وقد أجمع المرشحان في خطبتهما على امتداح مزايا أهالي ايتانسويل، وان كانا قد اختلفا فيها وراء ذلك، فكلاهما قد أعلن صراحة إنه لا يمكن أن يوجد على وجه الأرض رجال أفضل من سيمنحونه أصواتهم، من حيث الاستقلال، والثقافة، والاستنارة، ونزاهة القصد.

وكلاهما أيضًا قد ألمع تلميحًا إلى أن لديه ما يحمله على الشك في أن ناخبي الحزب المعارض قوم جهلاء رعاع ليسوا أهلًا لممارسة واجباتهم الخطيرة المطلوب منهم أداؤها.

وأعلن فزكن عن استعداده للقيام بأي عمل يطلب إليه، وكذلك مستر سلامكي أعرب عن ذلك العزم، وصرح كلامًا بأن التجارة والصناعة وازدهار المرافق العامة في ايتانسويل هي أقرب الأشياء إلى قلبهما في هذه الحياة الدنيا.

ورفعت الأيدي للاقتراع، فأعلن العمدة انحيازه للاونرابل صمويل سلامكي، صاحب قصر سلامكي فطلب المحترم هوراشيو فزكن صاحب دار فزكن أن يتم الاقتراع، فكان له ما أراد. ثم وافق المجتمعون على اقتراح بشكر العمدة، والتأم بعد ذلك شمل الموكب، فشقت العربات طريقها بين الجموع، التي كانت تصرخ في وجه الركاب بما يمليه عليها شعورها، وظلت المدينة تحت وطأة القلق العصبي طول وقت الاقتراع. وبقي عدد قليل من الناخبين دون اقتراع حتى آخر النهار. فقد كان هؤلاء الناخبون من أهل الفطنة والتدبير، ولم يكن في حجج حزبهم لهم مقنع وقبل انتهاء الاقتراع بساعة واحدة حزموا أمرهم على اختيار الحزب الذي يمنحونه أصواتهم. فقد تلاشي من رؤوسهم كل شك. فاتجهوا بجمعهم إلى صندوق الاقتراع، فلما رجعوا كان الاونرابل صمويل سلامكي، صاحب قصر سلامكي، قد فاز في الانتخاب.

مأدبة إفطار

مضى بعد الانتخاب يومان، فلما كان صباح اليوم الثالث وضع سام بين يدي مستر بيكويك بطاقة نقشت عليها هذه الكلمات: «مسز ليوهنتر العرين– ايتانسويل)!»

[وليوهنتر معناها صائد الأسود، ومعناها المجازي مترصد المشاهير يتعقبهم بالثناء ويحسب نفسه عليهم ليكسب الجاه من مخالطتهم والظهور معهم. وكانت هذه السيدة من ذلك الطراز].

وكان مستر بيكويك يجهل ذلك الاسم، فنزل في الحال لاستقبال هذه السيدة في حجرة الجلوس، فإذا رجل وقور كان جالسًا فيها، ما أن رأى مستر بيكويك داخلًا حتى هب واقفًا في احترام عميق وقال:

– مستر بيكويك فيما أعتقد؟

– بعينه.

– اسمح لي يا سيدي بشرف مصافحتك، وإذن لي يا سيدي أن أهز يدك بحرارة.

– بكل تأكيد.

فمد الغريب يده واستطرد قائلًا:

– لقد سمعنا بشهرتك يا سيدي، فقد بلغت سمعة ناديك أذني مستر ليوهنتر، أعني زوجتي يا سيدي، فأنا «مستر» ليوهنتر.

وتوقف الغريب عن الكلام، كأنه يتوقع أن يقوم مستر بيكويك ويقعد لهذا النبأ، فلما رآه على وقاره وهدوئه استأنف كلامه:

– وإن زوجي يا سيدي– أعني مسز ليوهنتر– تعتز بأن يكون من عداد أصدقائها كل من ارتقت بهم أعمالهم ومواهبهم ذوي الشهرة: فاسمح لي يا سيدي أن أضع في هذه القائمة اسم مستر بيكويك وأسماء إخوانه أعضاء النادي الذي يحمل اسمه.

– إنه ليسعدني غاية السعادة أن أعرف سيدة من طرازها.

– وستعرفها يا سيدي. فغدًا صباحًا سنقيم مأدبة إفطار ثقافية أدبية لعدد كبير من هؤلاء الذين تسنمت بهم أعمالهم ومواهبهم ذوي الشهرة. فاسمع يا سيدي لمسز ليوهنتر أن تحظى رؤيتك غدًا صباحًا في العرين!

سيسرني هذا جدًا..

– إن مسز ليوهنتر ستعتز بهذا يا سيدي ولكني أراني أضيع وقتك وأنا أعرف مبلغ قيمته، لهذا سوف لا أحتجزك. عم صباحًا. أرجوك لا تخط خطوة واحدة يا سيدي، لا تقل كلمة واحدة.

وبدون أن يتيح لمستر بيكويك فرصة الجواب، انصرف مستر ليوهنتر موفور الوقار.

وحل الصباح التالي، وكانت معدات مسز ليوهنتر لإقامة مأدبة الإفطار على أتمها وأبهاها. وكانت الأرض المقامة عليها المأدبة يزيد اتساعها على فدان ونصف، غصت كلها بالناس. فلم يجتمع قط في مكان واحد كل ذلك الجمال الباهر، والأناقة، والأدب الرفيع! فجميع العبقريات الأدبية الخلية كانت حاضرة. مضافًا إليها عدد من «أسود» لندن، ومن المؤلفين– مؤلفون حقيقيون، كتبوا بأيديهم مؤلفات بأكملها، ثم طبعوها أيضًا! وها أنت تراهم الآن، يتجولون كأنهم من عامة البشر، باسمين ومتحدثين. أجل، ومتحدثين ينطقون عن كثير من اللغو والهذر الفارغ. ولا شك أنهم يفعلون ذلك رغبة منهم في أن يفهمهم من يحيط بهم من العامة.

وكانت هناك فرقة موسيقية للترفيه عن الضيوف، وقبل هذا وذاك كانت مسز ليوهنتر، تستقبل الجماعة، وقد انتفخت أوداجها فخرًا باجتماع هؤلاء المشاهير في رحابها.

وقال لها بعض خدمها حينما اقترب مستر بيكويك منها، وقبعته في يده، وفي معيته أصدقاؤه الثلاثة:

– مستر بيكويك يا سيدتي.

فصاحت مسز ليوهنتر متوثبة بدهشة مصطنعة وفرح زائد:

– ماذا؟ مستر بيكويك هنا؟ أين هو؟

– أنا هنا يا سيدتي.

– أصحيح حقًا أنني أتمتع فعلًا برؤية مستر بيكويك بلحمه ودمه؟

فانحنى مستر بيكويك انحناءة عميقة جدًا، ثم قال:

– أنا هو بعينه يا سيدتي. واسمحي لي أن أقدم أصدقائي: مسير تابمان ومستر وينكل ومستر سنود جراس، إلى حامية من حماة الأدب والفنون.

– يا مستر بيكويك. لابد لي أن أحملك على أن تعدني ألا تفارق جواري طول هذا النهار فهنا مئات من الناس لابد أن أقدمك إليهم بأي حال من الأحوال.

وقبل أن تتاح الفرصة لمسز ليوهنتر كي تقدمه إلى أي إنسان، كانت حجرة المرطبات قد فتحت على مصراعيها، وإذا جميع من كانوا حاضرن قد اندفعوا داخلين إليها بأقصى ما يستطيعون من سرعة.. فإن مسز ليوهنتر كانت متعودة على أن تدعو إلى ولائمها مائة شخص، وأن تعد طعام الإفطار لخمسين منهم فقط، وبعبارة أخرى لا تطعم إلا خاصة «الأسود» أما الحيوانات الدنيا فتركها لمصيرها وحظها، ولما كان مستر بيكويك وأصحابه من خاصة ضيوف الشرف، فقد أجلسوا بجوار ربة الدار.

ونظرت مسز ليوهنتر فيما حولها نظرة انتصار، وهي ترتب الأسود من حولها. وبدا أن دائرة الضيوف الممتازين كملت فلا ينقصها شيء، وإذا مستر ليوهنتر يصيح فجأة موجهًا الخطاب إلى زوجته من عند الباب:

– هذا يا عزيزتي هو مستر تشارلس فتز ماريشال.

– أهلًا أيها العزيز: لقد لبثت أتطلع إلى حضوره في توجس خشية ألا يحضر، افسحوا الطريق من فضلكم لمرور مستر فتز ماريشال!

– إني قادم يا سيدتي العزيزة. بأسرع ما أستطيع. زحام شديد. عمل شاق. شاق جدًا وسقطت سكين مستر بيكويك وشوكته من يديه، وحملق عبر المائدة ناظرًا إلى مستر تابمان، الذي أسقط هو أيضًا سكينه وشوكته، وبدا عليه كأنه على وشك الانخساف في باطن الأرض بغير سابق إنذار.

وعاد صوت ذلك القادم يصيح، وهو يشق طريقه بين الضيوف:

– آه ما أشد الضغط. لقد تلاشت آخر كسرة في ملابسي بعد هذا. فقد كووا ملابسي وأنا أمر بينهم. هاهاها! فكرة لا بأس بها. غريب حقًا أن أكوي ملابسي وهي على جسمي تقدم. تقدم مجهد مع هذا. مجهد جدًا.

وبانتهاء هذه الكلمات ظهر عند المائدة شاب يرتدي ثياب من آخر طراز، فإذا به يتمثل للبيكويكيين المبهوتين في صورة ملامح مستر ألفريد جنجل.

ولم يكد مستر جنجل يتناول يد مسز ليوهنتر، حتى التقت عيناه بعوينات مستر بيكويك التي تفيض بالاستنكار، فصاح جنجل:

– رباه! لقد نسيت. لم أعط تعليماتي لسائق العربة. سأذهب لأعطيها فورًا. سأعود بعد دقيقة واحدة.

فقالت مسز ليوهنتر:

– إن الخادم كفيل أن يقضي هذه المهمة في لمحة يا مستر فتز مارشال.

– كلا كلا. سأذهب أنا. لن ألبث طويلًا. سأرجع حالًا.

واختفى مع هذه الكلمات بين الزحام، فقال مستر بيكويك المستثار الأعصاب وهو ينهض عن مقعده:

– من هو هذا الشاب، إذا سمحت لي يا سيدتي أن أسأل، وأين يعيش؟

– إنه رجل من أبناء الأسر الكريمة العريضة الثراء يا مستر بيكويك، وأود كثيرًا أن أقدمك إليه.

– نعم نعم. ولكن أين يعيش؟

– إنه في الوقت الحاضر مقيم بخان الملاك في بيوري سانت ادمونتر، على مسيرة أميال قليلة من هنا. ولكن ربك يا مستر بيكويك! لا أظنك تفكر في مغادرتنا بهذه السرعة.

ولكن قبل أن تتم مسز ليوهنتر كلامها كان مستر بيكويك قد ألقى بنفسه في الزحام، وغاص فيه حتى وصل إلى الحديقة، حيث لحق به بعد قليل مستر تابمان الذي كان قد اقتفى أثر صديقه عن كثب، وقال تابمان:

– لا أري فائدة، فقد فر.

– أعلم هذا، ولكن لأتبعه.

– تتبعه؟ إلى أين؟

– إلى خان الملاك في بيورى سانت ادمونتز، فمن أدرانا بصدد خداع من هو الآن؟ لقد خدع مرة رجلًا فاضلًا، واحتال عليه، وكنا نحن آلته البريئة في ذلك، فلن تكون كذلك هذه المرة ما استطعنا. سأفضحه! يا سام! أين خادمي؟

فبرز سام الذي كان يساعد السقاة في خدمة الوليمة وقال:

– لبيك سيدي. هذا هو خادمك يا سيدي، الفخور بهذا اللقب، على حد قول الهيكل العظمي الحي في الرواية المشهورة.

– اتبعني الآن يا سام. وأنت يا تابمان إذا رأيتني أقمت في بيوري، ففي مقدورك أن تلحق بي حين أكتب إليك. وإلى اللقاء حتى ذلك الحين.

ولم يكن هناك محل للمناقشة. فقد استثير مستر بيكويك، واستقر رأيه، فعاد مسير تابمان إلى رفيقيه، وبعد ساعة كان مستر بيكويك ومعه سام ويلر معلقًا خارج عربية صغيرة، تنهب بهما الأرض نحو مدينة بيوري سانت ادمونتز العريقة.

مغامرات

فيما كانت العربة منطلقة بأقصى سرعتها بين الحقول والبساتين التي تحف بجانبي الطريق، كانت جميع النساء والأطفال الذين يجنون الفاكهة في السلال، أو يلتقطون ما انتثر من سنابل القمح، يكفون عن العمل برهة ليتتبعوا العربة بأنظارهم حتى تختفي وهم في دهشة.. وكان الحصاد يعطل حصاده، ليقف مكتوف الذراعين محدقًا في العربة وهي عرق من أمامه. أما الجياد التي تجر عربات النقل فكانت تلقي نظرة ناعسة على جياد العمرية الفاخرة ولسان حالها يقول:

– خير لنا أن نمشي الهوينى فوق أرض الحقل المقلقلة، من أن نجد السير هكذا في طريق كثير الغبار ..

وألقى مستر بيكويك نظرة إلى الوراء، والعربة تدور في منعطف الطريق. واستأنفت النساء عملهن، واستأنف الحصاد عمله، وتحركت الخيل بعربات النقل، وعاد كل شيء إلى الحركة والنشاط.

وكانت المسافة قصيرة، فلم تلبث العربة إلا قليلًا حتى درجت بين الشوارع البديعة الرصف في مدينة بيوري سانت ادمونتز الجميلة الصغيرة، حتى وقفت أمام خان «الملاك» القائم على أحد جوانب ميدان فسيح، فقال مستر كويك لام:

– سننزل هنا، ولكن لا بد من بعض الاحتياط، فاحجز لي غرفة خاصة، ولا تذكر اسمي. أفاهم أنت؟

– إذا كان لي أن أدلي بنصح يا سيدي، فإني أرى الأوفق أن تتناول عشاءك، ثم تنعم بنوم هادئ، ولا نبدأ في الاستعلام عن جنجل هذا حتى صباح الغد ..

– أحسبك على صواب يا سام، ولكن يجب أن أتحقق أولًا من وجوده في الخان، ومن إنه غير معتزم الرحيل عنه.

– دع ذلك يا سيدي. فسآمر لك بعشاء طيب، وأتولى أمر الاستعلام من صاحب الأحذية في الخان (ماسح أحذية الفندق).

ثم انصرف سام لتنفيذ هذا الوعد ..

وبعد نصف ساعة كان مستر بيكويك جالسًا إلى مأدبة العشاء، حين دخل عليه سام وأخبره أن مستر تشارلس فتز مارشال وخادمه مقيمان في هذا الخان حقًا.. ثم عقب على ذلك التقرير بقوله:

– وأعتقد يا سيدي أني لو سنحت لي الفرصة لتبادل الحديث مع خادمه في صباح غد، لباح لي بسر سيده.

– ومن أدراك إنه فاعل؟

– بارك الله في سيدي! هذا دأب الخدم في كل زمان ومكان.

– أوه. آه. لقد أنسيت هذه الحقيقة! وبعد؟

– وعلى ضوء هذه الأسرار ترى لنفسك ما ترى على بيئة يا سيدي.

ولما كان هذا خير ترتيب ممكن، فقد نال حسن القبول.

وفي ساعة مبكرة من الصباح التالي، كان سام ويلر يغتسل تحت المضخة في فناء الخان حين استرعى انتباهه شاب في كسوة خدمة بلون التوت، كان جالسًا على مقعد بالفناء يطالع كتاب أناشيد دينية، في جد عميق. وكان يسترق نظرة إلى سام بين الحين والحين، كأنه يتمنى أن يتصل بينهما الحديث، وأخيرا مهد له سام الفرصة بقوله: «كيف حالك أيها الرئيس!» فأجابه الشاب ببطء شديد وهو يقفل كتاب التراتيل:

– يسعدني يا سيدي أن أقول إني بخير حال.. وأرجو أن تكون كذلك.

– لقد عرفت أيامًا أسوأ من يومي هذا على كل حال. أنازل أنت بهذا الفندق؟

فأجاب الشاب ذو الزي التوتي اللون بالإيجاب، فهو مقيم مع سيده.

– وما اسم هذا السيد؟

– فيتز مارشال ..

فتقدم إليه سام مادًا يده وقال:

– هات يدك. فإني أحب أن أتعرف إليك، لأني أستظرفك.

– وهذا والله من أعجب العجب. فقد استظرفتك أنا أيضًا حتى إنني أردت أن يتصل الحديث بيننا منذ وقع عليك نظري وأنت تستحم تحت مضخة الماء..

– أحقًا! ما اسمك؟ ومن أي طراز من الناس سيدك؟ آن اسمي [وتردد سام لحفلة ثم قال].. «ووكر». (أي المشاء).

– وأنا اسمي جوب تروتر (أي أيوب العداء) يا مستر ووكر، وسيدي يقيم هنا لغرض لا يبشر بالخير.. إنه مزمع أن يفر مع وارثة غنية من مدرسة البنات الداخلية.

– يا له من أفعوان! وهل في هذه البلدة مدرسة بنات داخلية؟

فراح بوب تروتر يتلفت حوله ويغمز بعينيه ثم قال أخيرًا:

– لا. لا. هذا كلام لا يقال لكل إنسان.. إنه سر. سر عظيم.

– وأعتقد أن سيدك واسع الثراء.

فابتسم تروتر، دق بيده جيوب سرواله أربع مرات، إشارة إلى الإفلاس وخلو الوفاض، فقال سام: «آه. إذن هذا سر اللعبة. أليس كذلك؟».

فهز الشاب ذو الزي التوتي اللون رأسه إيجابًا، فقال سام:

– ألا ترى أنك إذا تركت سيدك يفر بهذه السيدة فأنت وغد زنيم؟

فتنهد تروتر، وظهرت على وجهه علامات الحسرة والأسى وقال:

– أعلم هذا. وهذا ما يزعجني، ولكن ماذا أصنع؟

– ماذا تصنع؟ أخبر أيها الرجل مديرة المدرسة، وافضح سيدك.

– ومن ذا الذي يصدقني؟ إن الفتاة خليقة أن تنكر الموضوع، وكذلك سيدي، وسأطرد من عملي وأفقد وظيفتي.

– هذا كلام لا يخلو من وجه صواب.

– آه لو كنت أعرف سيدًا محترمًا يتكفل بهذه المسألة، إذن لأملت أن يحبط هذا الفرار ولكني لا أعرف أحدًا في هذا البلد الغريب، وحتى لو عرفت، لما صدقني هذا السيد.

فوثب سام من مكانه فجأة، وقال وهو يأخذ بذراع تروتر:

– تعال معي من هنا. إن سيدي هو ضالتك ..

وبعد مقاومة ضعيفة من تروتر، تمكن سام من اقتياد صديقه المستحدث إلى جناح مستر بيكويك الخاص، حيث قدمه إليه، مشفوعًا بملخص للحوار الذي دار بينهما منذ قليل وافتتح جوب تروتر الكلام قائلًا، وهو يرفع إلى عينيه منديلًا قرمزي اللون يبلغ حجمه ست بوصات مربعة:

– إني لآسف أشد الأسف لاضطراري لخيانة سيدي.

– هذا شعور يحمد لك كثيرًا، ولكن هذا واجبك على كل حال..

فقال تروتر، وهي يبكي بحرقة:

– أعلم أن هذا هو واجبي، ولكن ما أصعب أن يخون المرء سيده يا سيدي، وعلى جسده ملابسه، وفي بطنه طعامه، مهما كان ذلك السيد وغدًا يا سيدي ..

فتأثر مستر بيكويك كثيرًا وقال له:

– إنك لفتى طيب العنصر جدًا، ومخلص أمين ..

وهنا تدخل سام الذي ضاق صدره بكاء تروتر فقال:

– اسمع! اسمع! دع عنك مسألة «عربة مياه الرش، هذه» فلا خير في هذا البكاء.. فما أنجز البكاء أمرًا أو قضى مصلحة لإنسان.. فجفف دمعك، وارحمنا من هذا المنديل الأحمر، ودسه في جيبك، وتكلم ..

– أنت محق يا سيدي فيما تقول .. ولن أترك العنان لعواطفي بعد..

فقال مستر بيكويك على الأثر:

– ومن تقرر تنفيذ هذه الخطة النكراء؟ متى سيتم هذا القرار؟

– في هذه الليلة يا سيدي.

– إذن لابد من اتخاذ تدابير عاجلة..

– إن سيدي قد استولى وسيطر على قلب السيدة العجوز (أي مديرة المدرسة) فلن تصدق فيه سوءًا! فيجب أن تضبطه متلبسًا بجريمة الفرار كي تقنعها بسفالته.

– ولكني أخشى أن يكون ذلك من أصعب الأمور ..

– لا أدري يا سيدي. بل أحسب إنه سهل التحقيق ..

– وكيف كان ذلك؟

– هكذا.. فإن سيدي قد اشتري تواطؤ الخدم. ففي العاشرة مساء سنكون– أنا وهو– مختبئين في المطبخ. فحينما يأوي الجميع إلى فراشهم نخرج من المطبخ، وتخرج الفتاة من مخدعها، وستكون عربة السفر في الانتظار، فننطلق بها.

– وبعد؟

– وبعد يا سيدي؟ أعتقد أنك إذا كنت في الحديقة الخلفية، ثم فتحت لك أنا باب المطبخ في تمام الحادية عشرة والنصف، سنكون قد حضرت في الوقت المناسب لإحباط خطة ذلك الرجل الشرير الذي أوقعني في شراكه.

وحينئذ تنهد تروتر، وبك مرة أخرى ضاربًا بتحذيرات سام عرض الحائط. فقال سام مندًدا به: «لم أر في حياتي مثل هذا الفتى».

فانتهره مستر بيكويك ونهاه عن الحملة على ترور، ثم قال:

– ولكن كيف أبلغ داخل هذه الحديقة؟

– إن حائطها منخفض جدًا يا سيدي، ويستطيع خادمك أن يعينك على ارتقائه.

– هذه خطة لا أميل إليها، ولكني لا أرى مندوحة عنها. ولما كانت سعادة هذه السيدة الشابة مدى حياتها في كفة القدر، فسأقدم غير متهيب.

فانحني تروتر، وهم بالانصراف، فوضع مستر بيكويك في راحة يده جنيهًا ذهبيًا، فشكره تروتر وانصرف يتبعه سام.

وفي منتصف الساعة الحادية عشرة [العاشرة والنصف] مساء، انطلق مستر بيكويك وسام في المهمة الدقيقة، وكانت ليلة رائقة جافة لا مطر فيها.. ولكنها كانت حالة الظلام،فغمضت المعالم جميعًا ما بين بيوت وشجر وحقول وأسوار. وكان الهواء حارًا جافًا، والبرق يلمع على حافة الأفق .. والهدوء ضارب بجرانه. واهتديا إلى البيت المقصود، وقرأ بيكويك اللافتة النحاسية، ودارًا حول السور، ووقفًا عند الوضع الذي يفصلهما من الحديقة، وحينئذ قال بيكويك لسام:

– عد إلى الخان يا سام بعد أن تساعدني على التسلق ..

وتعلق مستر بيكويك بقمة السور ثم قال: «ارفع»، فأطاعه سام فورًا، ولكن في غير اللطف الذي أوصاه به بيكويك .. وكانت نتيجة ذلك أن قذف بذلك الرجل الفاضل الخالد إلى حوش الزهر الواقع في الجهة الأخرى من السور .. بيد إنه نهض من سقطته، بعد أن حطم بقدمه شجرة ورد وثلاث شجيرات من عنب الديب .. وقال له سام في همسة عالية:

– هل أصبت نفسك بمكروه يا سيدي؟

– لم أصب نفسي، ولكن يبدو أنك أصبتني. لا بأس. فإن هي إلا سحجات سطحية. اذهب أنت وإلا سمعونا .

وتسلل سام ويلر عائدة، تاركًا مستر بيكويك وحده في الحديقة.وكانت الأنوار تبدو تخبو في نوافذ الدار، فكان السكان يتأهبون للإخلاد إلى مخادمهم. وبعد فترة انتظار مملة، دقت ساعة الكنيسة القرية منتصف الثانية عشرة (الحادية عشرة والنصف) فقال مستر بيكويك لنفسه وهو يتطلع إلى الدار:

– هذا هو الموعد ..

واختفت الأنوار، مما دله على أن الجميع قد ناموا ولا مراء. فمشى على أطراف قدميه حتى وصل إلى الباب، وطرقه طرقًا خفيفًا.

ومرت دقيقتان أو ثلاث دون جواب، فطرق مرة أخرى طرفة أشد من الأولى .. وأخيرًا سمعت ضجة سلاسل الباب ترفع، والمزاليج تدفع، ثم فتح الباب بطء..كان الباب يفتح نحو الخارج، لا إلى الداخل كما هو مألوف، وظل الباب ينفرج، ومستر بيكويك يتقهقر وراءه شيئًا فشيئًا، وكانت دهشة مستر بيكويك عظيمة حينما رأى أن الذي فتح له الباب ليس هو «جوب تروتر»، بل فتاة خادم في يدها شمعة، وقالت الفتاة:

– لابد أنها الهرة .. بس. س. بس..

ولكن لم يحجب هذه البسبسة مواء، فأغلقت الفتاة الباب بأناة، ثم أعادت وضع المازاليج، تاركة مستر بيكويك حيث كان، ملتصقًا بالحائط!

ولم يمض عليه في موضعه ذاك إلا خمس دقائق حينما أضاء السماء نور ثاقب من وميض البرق، وأعقبه قصف الرعد، ثم انهمر المطر بقوة اكتسحت أمامها كل شيء.. وسقط المطر على بيكويك، بغزارة، حتى انساب بين الياقة والعنق، فرفع نظره إلى الدار، فإذا الظلام مخيم عليه، مما يدل على أن أهله قد ناموا .. فعزم على أن يحاول مرة أخرى .. فمشى على أطراف أصابعه وقرع الباب فلم يجيبه مجيب. فأستغرب وأعاد الطرق وراح يصغى، فإذا صوت يصيح من الداخل:

– من هناك؟

وتبين فيه مستر بيكويك صوت امرأة، لا صوت جوب تروتر ثم فتح شباك في الطابق العلوي، وسمع ثلاثة أصوات نسائية أو أربعة تصيح:

– من هناك؟

فلم يجسر مستر بيكويك على تحريك كن أو قدم. فقد وضح له أن المدرسة كلها قد استيقظت.. وأعقب ذلك مباشرة صوت رفع السلاسل وجذب المزاليج، ثم فتح الباب على اتساعه، فتراجع مستر بيكويك وراء مصراع الباب خطوة خطوة، حتى بلغ أقصى الركن. وصاح «جوق» الأصوات الأنثوية من فوق السلم الداخلي: «من هناك؟».

وكان هذا الجوق مكونًا من ناظرة المدرسة، وثلاث معلمات، وخمس خادمات، وثلاثين طالبة.. كلهن نصف عاريات، وحول رؤوسهن هالة من الورق المبروم (يستعمل لتصفيف الشعر وحفظ تموجاته أثناء النوم)!

وغنى عن البيان أن مستر بيكويك لم يقل من الذي كان هناك، وعندئذ قال «الجوق» كله بأصوات متفرقة متلاحقة متضاربة: «رباه! أنا خائفة والله العظيم».

فقالت الناظرة، التي حرصت على أن تكون فوق أعلى درجات السلم، في مؤخرة المجموعة كلها:

– يا طاهية.. لماذا لا تخرجين للنظر في الحديقة؟

– أرجوك يا سيدتي. أنا لا أحب هذا ..

فقالت الناظرة بكل وقار: «أنا مصرة على أن تنظري في الحديقة فورًا».

فشرعت الطاهية المسكينة تبكي، ولكنها لم تجد مناصًا تحت ضغط هذا الإلحاح من التقدم خطوة أو خطوتين، وفي يدها الشمعة التي كانت تحول بنورها نفسه دون رؤيتها أي شيء ..

ثم أكدت أنها لا ترى شيئًا، وأن الرياح ولا شك هي سبب هذا الصوت الذي ظننه جميعًا طرقًا على الباب..

وأوشك الباب أن يقفل ثانية، حينما تجاسرت تلميذة طلقة فنظرت من بين مفصلات الباب، ثم أطلقت صرخة مدوية، فقالت الناظرة تستوضحها:

– ماذا جرى يا آنسة سيمندرس؟

– رجل. رجل وراء الباب!

فما إن سمعت حضرة الناظرة هذا الكلام حتى كانت في مخدعها بأسرع من وميض البرق، فأغلقت على نفسها الباب بالمفتاح دورتين، ثم استسلمت للإغماء بكل ارتياح وطمأنينة! أما التلميذات والمعلمات والخادمات فارتددن مذعورات متقهقرات فوق السلم، فوقع بعضهن فوق بعض، ولم يحدث قط مثيل لما حدث ساعتئذ من الصراخ والإغماء والصراع! وفي وسط هذه الملحمة برز مستر بيكويك من مخبئه، ومثل بينهن..

– سيداتي. سيداتي العزيزات..

فصاحت أقبح المعلمات شكلًا:

– أوه.. إنه ينادينا «يا عزيزاتي» .. يا له من شقي!

فراح مستر بيكويك يزأر، وقد استيأس من خطورة موقفه:

– سيداتي. استمعن لي.. لست لصًا ..

فصاحت عشرة أصوات:

– جرس الخطر. جرس الخطر..

– كلا. لا تفعلن هذا، وانظرن إلي.. هل أبدو لكن كاللصوص؟ أيتها العزيزات، في وسعكن أن تقيدنني يدًا وقدمًا، أو تحبسنني في دولاب ملابس إذا أحببتن. ولكن استمعن إلى ما سأقول لكن .. نادين ربة الدار، وسأقول لها كل شيء ..

وعندئذ اقترح المتعقلات من المجموعة (ولا يزيد عددهن على أربع) أن يختبرن صدق مستر بيكويك، بأن يحبسنه، فوافق على أن يعقد مؤتمرًا مع ناظرة المدرسة من داخل دولابي وفعلًا دخل باختياره الدولاب وأقفلته عليه. وانتعشت الفتيات لهذا الحادث، ونوديت الناظرة فهبطت وبدأت المباحثات، بأن قالت الناظرة:

– ماذا كنت تصنع في حديقتي أيها الرجل؟

فأجابها مستر بيكويك من داخل الدولاب:

– لقد حضرت كي أحذرك من هرب إحدى تلميذاتك هذه الليلة..

فصاحت الناظرة والمدرسات الثلاث، والثلاثين طالبة، والخادمات الخمس، في صوت واحد:

– تهرب!! ومع من؟

– مع صديقك مستر فتز مارشال.

–أصديقي تقول؟ لا أعرف شخصًا بهذا الاسم ..

– ليكن.. هو إذن مستر جنجل..

– لم أسمع هذا الاسم في حياتي ..

– إذن خدعت وضللت وغرر بي. إني ضحية مؤامرة سافلة. وإذا كنت لا تصدقيني، فأرجو منك يا سيدتي أن ترسلي في طلب خادم مستر بيكويك من فندق الملاك..

وانطلقت خادمتان إلى فندق الملاك بحثًا عن مستر ويلر، وجلس مستر بيكويك في الدولاب ينتظر مقدمه بكل ما أنجدته به فلفته من الصبر..

وبعد ساعة ونصف عادت الخادمتان، وتين مستر بيكويك من داخل الدولاب بالإضافة إلى صوت سام، أصوات مستر «دواردل» وصهره مستقبلًا «تراندل».وأعقب ذلك حوار قصير، فتح على أثره باب الدولاب، وخرج منه الأسير .. فأسرع نحو مستر واردل يهز بده قائلًا:

– أرجو منك يا صديقي العزيز بحق السماء أن توضح لهذه السيدة موقفي التعس الفظيع الذي تورطت فيه.

– لقد فعلت يا صديقي وانتهى الأمر ..

وفي الطريق إلى فندق الملاك قال مستر واردل إنه حضر إلى بيوري للصيد. أما مستر بيكويك فلم ينطق، وما وصل إلى الفندق حتى أوى إلى مخدعه.. ثم رن الجرس فدخل عليه سام فقال له من تحت أغطية الفراش:

– أين جوب تروتر يا سام؟

– ذهب يا سيدي.

– مع سيده فيما أظن

– سيده أو صديقه، لا أدري، ولكنه ذهب معه على كل حال. فهما رفيقان مليحان يا سيدي، متناسبان..

– أحسب أن جنجل حدس خطتي، فوضع ذلك الشيطان في طريقك وأوهمك صدق هذا الملعوب..

وكان مستر بيكويك يهتز بالغيظ اهتزازًا وهو يتكلم..

– تمامًا يا سيدي!

– أينما رأيت هذا الجنجل مرة أخرى ..

ونهض في فراشه وضرب الوسادة بقبضته ضربه هائلة واستطرد:

– سأقتص منه، وسأفضحه الفضيحة المشهرة التي يستحقها. وإلا لما كنت جديرًا باسم بيكويك..

– وأنا، أينما وجدت هذا المخلوق التوتي الملبس الأسود الشعر، فسأجعله يذرف دموعًا صادقة، وإلا فليس اسمي ويلر.. طاب ليلك يا سيدي.

اكتشاف مستر جنجل

وإن تكن بنية مسن بيكويك قوية، إلا أنها لم تستطع احتمال ما أصيبت به من الضغط والإرهاق في تلك الليلة المأثورة التي جرى ذكرها في الفصل السابق، فقد غسله بماء المطر المنهمر في الهواء الطلق، ثم جفت عليه ثيابه داخل الدولاب، وذلك أمر فيه من الخطورة قدر ما فيه من الشذوذ. وكذلك رقد مستر بيكويك صريع الروماتزم، فلازمه مستر واردل العجوز ومستر تراندل، وفي اليوم الثالث من مرضه أرسل خطابًا إلى أصحابه الثلاثة كي يلحقوا به في بيوري سانت ادموندس.

وفي اليوم التالي وصل مستر تابمان ومستر وينكل ومستر سنود جراس في عربة إلى فندق الملاك، حيث استقبلهم مستر سام ويلر، وأدخلهم فورًا مخدع سيده متر بيكويك. وكانت دهشة وينكل وسنود جراس كبيرة، وحرج تابمان لا يقل عن دهشة صاحبه لرؤية واردل المجوز وتراندل هناك.

وشد مستر واردل العجوز على يد تابمان بحرارة، وقال:

–كيف حالك؟ لا تتحرج ولا تحزن لذلك الموضوع. فما في ذلك الذي حدث حية أيها الصديق.. وقد كنت أرجو لها لو أنك تزوجتها. ولكني مسرور لك كثيرًا، لأنك لم تتزوجها، فإن شابًا مثلك خليق أن يفوز بخير منها يومًا ما ..

ثم ربت على كتف تابمان مسربًا عنه، وضحك من أعماق قلبه، فقال مستر تابمان، بعد جهد جهيد:

– أين.. أين «هي» يا سيدي؟

ثم ما لبث بعد أن نطق بهذه الكلمات أن أشاح بوجهه وغطي عينيه بيديه، فقال السيد المجوز وهو يهز رأسه هزة العارف العليم:

– هي؟ أتعني شقيقي الوحيدة؟

فأومأ مستر تابمان برأسه إيماءة تفيد أن سؤاله ينصرف إلى راشيل، المنكوبة الحظ، فقال السيد العجوز:

– لقد ارتحلت عنا، وهي تقيم الآن في دار بعض ذوي قربانا في مكان بعيد عنا بعدًا كبيرًا. لأنها لم تستطع مواجهة ابنتي، لهذا سمحت لها بالرحيل. ولكن هيا بنا، فهذا هو الغداء قد حضر. ولا بد أنك جائعون بعد هذا السفر.. فإني جائع بدون سفر، فلنأكل ووفوا الأكل حقه عن سعة، فلما انتهى أعلن سام أن العربة التي عقد مستر بيكويك عزمه على العودة بها إلى لندن قد أوشكت أن ترحل، ثم تولى سام وضع الحقائب في مخزن العربة، وارتقى البكويكيون إلى المقاعد الخارجية، وانطلقت العربة مخلفة وراءها مستر واردل ومستر تراندل يلوحان بيديهما تحية قلبية، ثم انعطفت عند زاوية الميدان ..

وبعد خمسة أيام كان مستر بيكويك يشاهد خارجًا من مكتب مستر بيركر المحامي النحيف في مدينة لندن، عائدًا إلى بيته، وفي صحنه سام ويلر. وكان يومًا دافئًا، فشعر مستر بيكويك بالحاجة إلى استنشاق الهواء والانتعاش، فقال لسام:

– اشتهي أن أتناول كأسًا من البراندي بالماء يا سام، فأين أستطيع أن أحصل على مطلوبي في هذه الجهة ؟

وكانت معرفة ويلر بلندن معرفة شاملة ودقيقة في آن واحد، لهذا أجاب سيده قائلًا بغير تردد:

– الشارع الثاني على اليمين. البيت الذي قبل الأخير من جهة اليمين.

واتبع مستر بيكويك إرشادات خادمه بدقة، ثم أمر سام أن يتبعه، ودخل الحانة، حيث وضع البراندي بالماء أمامه في سرعة، في حين جلس سام ويلر باحترام على مسافة غير يسيرة، ولكن على المائدة نفسها التي جلس عليها سيده، وجيء له بقدح من الجعة.

وكانت هذه الدار مرتادًا لسائقي عربات البريد فيما يظهر، لأن عددًا من السادة الذين يدل مظهرهم على الانتماء لهذه المهنة الراقية كانوا جلوسًا إلى مواد مختلفة، يشربون ويدخنون.

وكان من بينهم رجل بدين، أحمر الوجه، كهل، استرعى انتباه مستر بيكويك.. فقد كان يدخن بشراهة، ولكنه كان يقطع التدخين المتصل كل عشرة أنفاس تقريبًا مرة، فيخرج غليونه من فمه وينقل بصره بادئًا بمستر سام ويلر، ثم ينظر إلى مستر بيكويك.. ثم يدفن أكبر جانب ممكن من وجهه في قدح الجعة. الكبير، ويختلس وهو على هذا الوضع النظر إلى ويلر وبيكويك مرة أخرى ..

وأخيرًا وضع الرجل البدين رجليه على مقعد، ثم أسند ظهره للحائط، وراح يدخن بلا توقف، محرفًا في حلقات الدخان، ومحدقًا من خلال هذه الحلقات في الجالسين الغريبين عن المكان.. كأنه آلى على نفسه إلا يصرف عنهما نظراته..

وقد غاب مسلك هذا الرجل البدين لأول وهلة عن عيني مستر ويلر، لكنه لم يلبث تدريجيًا أن رأي عيني مستر بيكويك تتجهان نحوه، فنظر في ذلك الاتجاه نظرة من يعرف الشيء معرفة جزئية، ويريد أن يستوثق من حقيقته.

وسرعان ما تبددت شكوكه، ذلك أن الرجل البدين أطلق من فمه وأنفه سحابة كثيفة من الدخان، ثم خرج من تحت اللفاع الذي كان يحيط برقبته وصدره صوت أجش غريب الجرس قائلًا بأناة:

سأل مستر بيكويك خادمه عن الرجل من هو، فقال سام والدهشة ظاهرة في عينيه:

– كدت والله لا أصدق عيني يا سيدي. فهذا أبي..

ثم اتجه إلى والده في حماسة مندفعة من الحب البنوي، ثم أجلس أباه بجانبه.. فانتقل إلى المائدة بإناء الجعة في يده، والغليون في فمه ..

وقال والد سام:

– لم أرك منذ أكثر من عامين يا سام..

وأسر ويلر لوالده إنه في الوقت الحاضر خادم عند مستر بيكويك، قلع مستر ويلر الأب قبعته وقال لمستر بيكويك:

– أرجو عفوك يا سيدي. وأرجو ألا تكون قد وجدت في سام نقصًا.

– كلا على الإطلاق.. ليس هناك ما أشكوه من جانبه..

فقال الرجل العجوز في سرور:

– إن سروري عظيم لسماع هذا الرأي في سام يا سيدي. فقد تجشمت متاعب كثيرة في تربيته. تركته يجوب الشوارع ويتسكع في الطرقات وهو صغير، كي يتدبر أمر نفسه بنفسه في خضم الحياة. وتلك لعمري هي الطريقة الفريدة الشحذ قريحة الناشئين!

– يا لها من طريقة خطرة، فيما يخيل إلى ..

وابتسم مستر بيكويك ابتسامة ذات معنى وهو يقول هذا الكلام.. أما سام فأدرك مغزى هذه الابتسامة التي ارتسمت فوق شفتي سيده الفاضل، فقال:

– وهي كذلك طريقة في التربية غير مضمونة العواقب، فقد استغفلت من أيام أيما غفلة فصاح الوالد في دهشة ظاهرة:

– أحقًا؟

– هذا ما حدث فعلًا ..!

ثم راح الولد يقص على الوالد كيف انطلقت عليه حيلة جوب تروتر، وكيف راح سيده ضحية هذه الخدعة والغفلة .. وكان مستر ويلر الوالد يصغي القصة ولده باهتمام وانتباه شديدين فلما انتهى سام منها قال له أبوه على غير انتظار:

– ألم يكن أحد هذين المخلوقين طويلًا نحيلًا، طويل الشعر، سريع الكلام جدًا، كأن وراء لسانه مطارد؟

فلم يفهم مستر بيكويك الشطر الأخير من هذا الوصف، ولكنه اعتمد على فهمه للشطر الأول منه، فأسرع بقوله:

– نعم. نعم. إنه هو ..

– أليس رفيقه مخلوقًا أسود الشعر يرتدي زيًا بلون التوت، وله رأس كبير ظاهر الكبر؟

فقال مستر بيكويك وسام في نفس واحد وبلهفة شديدة:

– نعم. نعم.. هو بعينه

فقال مستر ويلر الكهل:

– إذن فأنا أعرف مكان هذين المخلوقين. فهما في «ابسوتش» بلا شك ..

فصاح مستر بيكويك في دهشة من لا يصدق أذنيه:

– أحقًا

– هذا هو الواقع. وسأخبرك الآن كيف عرفت ذلك معرفة موثوقًا منها، فقد كنت أسوق عربة الركاب إلى ابسوتش غداة يوم إصابتك بالروماتيزم يا سيدي، وكان هذان من بين ركابي، وأنزلتهما في تلك البلدة، حيث قال لي الخادم– وهو لابس الكسوة التوتية اللون– إنهما سيقيمان أمدًا طويلًا ..

فصاح مستر بيكويك في حزم وتحفز:

– سألاحقه! سألاحقه!

فقال سام يستوثق من أبيه صحة الخبر:

– هل أنت واثق يا أبي أنهما بعينهما هذا الشخصان؟

– طبعًا يا سام، واثق جدًا. فإن منظرها ليس مألوفًا، لهذا استرعي انتباهي. يضاف إلى ذلك أنني سمعتهما. فقد كانا جالسين في المقعد الأمامي خلف مكاني بالضبط– يضحكان طول الوقت ويقولان فيما بينهما إنهما استغفلا «الصاروخ» العجوز كل الغفلة ..

فصاح مستر بيكويك مستعيدًا:

– العجوز من تقول؟

– «الصاروخ العجوز» يا سيدي. وهما لا يعنيان بذلك طبعًا أحدًا سواك يا سيدي ولا شك! وليس في كلمة «صاروخ عجوز» ما يفيد الإهانة أو التحقير على وجه التحديد، ولكن لا شك أيضًا أنها تسمية ليست غاية في التوقير والإطراء .. لهذا جددت هذه الكلمة ذكري جميع الأخطاء التي ارتكبها مستر جنجل في حق مستر بيكويك، تلك الأخطاء التي كانت حديثة العهد، فكانت كلمة «الصاروخ العجوز» بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير. فصاح مستر بيكويك وهو يدق المائدة بقبضته في حنق:

– لأطاردنه!

فقال مستر ويلر الكبير:

– سأسوق العربة إلى ابسوتش بعد غد يا سيدي. وسيكون القيام من حانة «الثور» في «هوايت شابل»، فإذا أردت أن تذهب حقًا، فمن الخير أن تذهب معي ..

– ليكن، فهذا رأي صائب. وسآمر أصحابي أن يلحقوا بي في ابسوتش. وسنذهب معك.ولكن فيم العجلة يا مستر ويلر؟ ألا تشرب شيئًا؟

وكان مستر ويلر قد نهض للانصراف، فلما سمع هذه الدعوة إلى الشراب جلس ثانية وقال:

– ما أكرمك يا سيدي. أشرب كأسًا من البراندي في صحتك يا سيدي، وتخب نجاح سام ..

– كأسًا من البراندي هنا يا ساقي ..

وجيء بالبراندي. فانحنى مستر ويلر لمستر بيكويك، وأومأ برأسه لسام، ثم تجرع الكأس مرة واحدة كأنه (كستبان) صغير، فتوارى في حلقة الواسع، ثم وضع الكاس متمهلًا، وانحنى مرة أخرى لمستر بيكويك، وانصرف في أناة ..

ودفع مستر بيكويك الحساب، ثم استأنف سيره إلى ممكنه في شارع جوزويل .

مغامرة عاطفية

بعد الحوادث التي أسلفنا ذكرها في الفصل السابق بيومين صحب مستر بيكويك تابعه سام في عربة، الساعة التاسعة صباحًا، ونزلا منها أمام خان الثور في هوايت شابل، ودخلا الفناء حيث وجدًا في انتظارهما مستر ويلر الأكبر.

وكان هناك رجل أحمر الشعر له نظارة زرقاء، هبط في هذه اللحظة من عربة أخرى ثم وجه الكلام إلى بيكويك قائلًا:

– أمسافر أنت إلى ابسويتش يا سيدي؟

– أجل ..

– يا للمصادفة العجيبة، وكذلك أنا ..

فانحنى مستر بيكويك في صمت، فعاد ذو الشعر الأحمر إلى الكلام:

– وهل ستسافر في المقاعد الخارجية؟

فانحنى مستر بيكويك مرة أخرى من دون أن يتكلم.

– ما أعجب هذا! فإني مسافر في المقاعد الخارجية أيضًا.

وابتسم ذو الشعر الأحمر، كأنه وفق إلى اكتشاف أعجب حقيقة كشف عنها الإنسان النقاب. فقال مستر بيكويك:

– إني سعيد بالتفكير في أنني سأسافر في صحبتك يا سيدي، وهذه بطاقتي.

وتناول ذو الشعر الأحمر البطاقة فوضعها في حافظته، وقال:

– آه. بيكويك، حسنًا، وهذه بطاقتي يا سيدي. وستري منها أن اسمي «ما جنوس» وهو اسم جميل جدًا فيها أعتقد، أليس هذا رأيك أيضًا يا سيدي؟

فلم يستطع مستر بيكويك مغالبة الابتسام وقال:

– إنه فعلًا اسم جميل جدًا في الواقع.

– أجل. أعتقد هذا. أعتقد أنه اسم جميل. وسترى أن الاسم الذي قبل ماجنوس اسم جميل أيضًا. اسمح لي يا سيدي. امسك البطاقة في وضع مائل قليلًا حتى يسقط عليها الضوء وتبدو في أحسن صورها. انظر هنا: «بيتر» ماجنوس. وبيتر اسم جميل. والاسمان معا لهما جرس حسن فيما أعتقد يا سيدي

– جدًا ..

وقطع عليهما حبل هذا الحوار صوت السائس الذي صاح فجأة:

– والآن أيها السادة العربة على أهبة السفر، فتفضلوا.

فسأله مستر بيتر ماجنوس قائلًا:

– هل وضعت جميع حقائبي في العربة؟

– كل شيء في مكانه يا سيدي.

وأخيرا قال مستر بيكويك لماجنوس الذي كان واضعًا إحدى رجليه فوق العجلة، فلا هو صعد ولا هو أفسح الطريق.

– والآن هل لك أن تصعد؟

فلم يتزحزح عن موضعه وقال:

– عفوك. عفوك يا مستر بيكويك. فأنا لا يمكن أن أقبل الصعود وأنا غير واثق أو مطمئن على حقائبي. فأنا واثق جدًا من سحنة هذا الرجل، إن صندوق البرانيط الجلدي ليس في العربة .

ولما صمم مستر بيتر ماجنوس على رفض الاقتناع، اضطروا لإخراج صندوق البرانيط الجلدي من أسفل كومة حقائب الركاب، كي يقنعوه بأنه موجود هناك في أمان الله. فلما اطمأن من جهة هذه المسألة، خامره شعور قوي، أولًا بأن الحقيبة الحمراء فقدت، وثانيًا بأن الحقيبة المخططة سرقت، وثالثًا بأن اللفة الرمادية اللون حل رباطها بشكل من الأشكال. فلما أمكن أخيرًا أن يتأكد بنفسه أن جميع مخاوفه لا أساس لها من الصحة، وافق على الصعود فوق سطح العربة، وقد بدأت تظهر عليه علائم راحة البال والسعادة.

وهكذا احتل مستر بيتر ماجنوس، ومستر بيكويك، وسام ويلر مقاعدهم العليا، ثم فرقع مستر ويلر الكبير بسوطه، فانطلقت العربة مخترقة هوايت شابل، ترمقها نظرات الإعجاب.

وكان مستر ويلر الكبير يبدد عنهم سآمة الرحلة بالتحدث إليهم عن معلوماته الخاصة عن كل قرية يمرون بها. وكان مستر بيتر ماجنوس رجلًا ثرثارًا، فكان عند كل مرحلة يقفون فيها يبدي قلقه الشديد على سلامة حقيبتيه، وصندوق البرانيط الجلدي واللفافة البنية اللون.

وبهذا لم تكن الرحلة تنقصها موضوعات الحديث المتنوعة، إلى أن وقفت العربة عند خان الحصان الأبيض الكبير في ابسويتش فترجل من فوقها مستر بيكويك، ومستر بيتر ماجنوس، وسام ويلر تابع مستر بيكويك الأمين.

وسأل مستر بيتر ماجنوس قائلًا:

– هل ستنزل هنا يا سيدي؟

ولكنه لم يوجه ذلك السؤال إلا بعد أن استوثق أكثر من مرة من سلامة وحضور الحقيبة الحمراء والحقيبة المخططة وصندوق البرانيط الجلدي واللفافة البنية اللون، ووجودها جميعًا متجاورة عند مدخل الخان. وأجابه مستر بيكويك بالإيجاب، فقال ماجنوس:

– إني لم أر في حياتي أغرب من هذه المصادفات المتلاحقة! أتدري؟ أنا أيضًا نازل هنا. فآمل أن نتغدى معًا.

– بكل سرور. اذهب بنا إلى غرفة خاصة أيها الساقي.

فذهب بهما الساقي إلى جناح كبير سيء التأثيث، وفيه مدفأة بها نار هزيلة تحاول محاولة تثير الإشفاق أن تجلب الدفء والبهجة إلى هذا المكان الكئيب، بيد أن كآبة المكان كانت لها الكلمة العليا، فأخذت النار تخبو تحت وطأة اليأس.

وقدم إليهما بعد ذلك غذاء متواضع، فلا انتهى منه مستر بيكويك ومستر بيتر ماجنوس قربا مقعدهما من النار، ثم أمرا بإحضار زجاجة من النبيذ. وراح مستر بيتر ماجنوس بين المقعد المريح ودف، النار ودف، النبيذ، ودف، السمر، يقع على مستر بيكويك تاريخ حياته الشخصية، وحياة أسرته، ومعارفه، وأصدقائه، ويحدثه حديثًا مستفيضًا عن أعماله التجارية واتصالاته، وعن إخوته، وعن كل شيء يتصل به. فلما فرغ من ذلك ألقى على مستر بيكويك نظرة زرقاء، من خلال منظاره الأزرق اللون دامت بضع دقائق، ثم قال له في شيء من الحياء:

– والآن ماذا تظن، ماذا تظن يا مستر بيكويك أنت لماذ أنا جئت هنا في هذا البلد؟

– لعمري هذا أمر يستحيل تخمينه. أهي الأعمال؟

فأطلق مستر بيتر ماجنوس ضحكة عالية تنم على الحقر وقال:

– ماذا عساك أن تقول، إذا كان حضوري إلى هذا البلد إنما هو بقصد خطبة الزواج؟

فأجابه مستر بيكويك بابتسامة من أشد ابتساماته إشراقة:

– ماذا أقول؟ أقول إنك خليق أن توفق.

– سأطلعك على سر صغير.. إنني أيضًا أعتقد أني سأوفق. وليس عندي مانع أن أقول لك يا مستر بيكويك، وإن كنت غيورًا جدًا بطبعي، إن السيدة موضوع الخطبة موجودة في هذا الفندق. ولكني سوف أتقدم للخطبة في صباح الغد. فليس هذا لائقًا أن يحدث بعيد الوصول من سفر متعب. فالانتظار إلى الغد يضاعف من فرص النجاح. أليس كذلك؟

– محتمل جدًا أن تكون على صواب.

– يضاف إلى هذا يا سيدي مستر بيكويك أن في هذه الحقيبة بدلة جديدة كاملة، وفي هذا الصندوق قبعة جديدة، وأعتقد أن الأثر الذي سيحدثانه غدًا سوف لا يقدر عندي بمال.

– أحقًا !

– طبعًا. ولا شك أنك لاحظت قلقي على هذه الأشياء طول النهار. فأنا أعتقد أن هذه البدلة وهذه القيمة لا يمكن تعويض خسارتهما بأي مبلغ من المال يا مستر بيكويك.

فهنأه مستر بيكويك على امتلاك مثل هذه المقتنيات التي لا يقوم لسحرها راق ولا يقي من تأثيرها واق، ولبث مستر بيتر ماجنوس بعدئذ بضع دقائق في حالة تفكير عميق، ثم قال:

– إنها مخلوق رائع جدًا.. أتسمع؟ فهي تعيش على بعد نحو عشرين ميلًا من هنا يا مستر بيكويك، وقد علمت أنها ستكون في الفندق هذه الليلة وطول نهار غد، فحضرت لانتهاز هذه الفرصة السانحة. فأنا أعتقد أن الفندق مكان مناسب جدًا كي يتقدم الإنسان فيه بالخطبة إلى امرأة وحيدة في الدنيا لا أهل لها. فهي حرية أن يزداد شعورها بوحدتها ووحشة حياتها وهي مسافرة، فإن تلك الوحشة تقل في البيت وتزيد في الاغتراب. فما رأيك يا مستر بيكويك؟

– أظن أن هذا رأي يحتمل الصواب إلى حد كبير.

فقال مستر بيتر ماجنوس بعد لحظة صمت:

– عفوك يا مستر بيكويك، أنا في الواقع رجل أحب استطلاع أحوال الناس. فماذا جاء بك يا ترى إلى هنا؟

فصعد الدم إلى وجه متر بيكويك وقد خطر بباله جنجل وقال:

– لقد حضرت في أمر أبعد عن البهجة من مهمتك بكثير. فقد جئت إلى هنا يا سيدي لأفضح غش وتزييف شخص كنت قد وضعت في شرفه ثقتي الوطيدة.

– واها لي! إن هذا أمر شديد الإزعاج. أهي سيدة؟ إن فيهن دهاء يا مستر بيكويك. ولكني لا أحب أن أثير شجنك بأي ثمن. ومثل هذه الموضوعات أليمة جدًا. لا تكترث لي يا مستر بيكويك ولا تهتم لوجودي. وإذا كنت تريد أن تترك العنان لمشاعرك فافعل. فأنا أدرك معنى أن يخدع الإنسان في محبوبته. فقد جربت هذا يا سيدي وبليت به مثنى وثلاث ورباع.

فقال مستر بيكويك وهو مخرج ساعته فيملؤها ويضعها على المنضدة:

– أنا شاكرك جدًا رقة شعورك مناسبة ما ظننته سر مسألتي المحزنة، ولكني أؤكد لك ..

– كلا كلا. لا تزد على ذلك كلمة واحدة. هذا موضوع مؤلم. أنا فاهم جيدًا حالتك فلا تتكلم. كم الساعة الآن يا مستر بيكويك؟

– تجاوزت الثانية عشرة.

– واها لي، فهذا أوان الرقاد، وليس في الجلوس خير بعد الآن، وإلا بدوت غدًا شاحب اللون يا مستر بيكويك.

وكان مجرد تفكر مستر ماجنوس في هذه الكارثة كافيًا لأن يجذب الجرس فيدعو الوصيفة ويأمرها بإحضار الحقيبة المخططة والحقيبة الحمراء وصندوق البرانيط الجلدي واللفافة البنية اللون إلى مخدعه الخاص. ثم انسحب ليأوي إليه وفي يده شمعدان من النحاس، كما اتجه مستر بيكويك

بشمعدان نحاس آخر إلى الطرف الآخر من الفندق، مخترقًا دهاليز كثيرة متعرجة. فلما أوصلته الوصيفة إلى هناك شكرها وراح ينظر حوله، فوجد حجرة واسعة فيها سريران وبها نار موقدة وحينئذ قال للوصيفة:

– أخبري خادمي أن يحضر إلى شيئًا من الماء الساخن في منتصف الساعة التاسعة صباحًا، لا حاجة بي إليه هذه الليلة.

وانصرفت الوصيفة وتركته وحده بعد أن ألقت عليه تحية المساء. وجلس مستر بيكويك فوق مقعد أمام النار، وسرعان ما نبهه عنف تمايل رأسه فوق صدره إلى شدة هبوط النعاس عليه، فنهض وشرع يخلع ملابسه، وعندئذ تذكر أنه ترك ساعته فوق المائدة في قاعة الجلوس الخاصة في الطابق الأسفل.

وجدير بالذكر أن هذه الساعة كانت لها منزلة خاصة لدى مستر بكويك، فقد حملها تحت صدارة عددًا من السنوات ليس في عزمنا أن نحدده، ولم يخطر له قط إنه من الممكن أن ينام ليلة دون أن نؤنس نومه بدقاتها المتلاحقة اللطيفة تحت وسادته.

ولما كان الوقت متأخرًا جدًا، لم يرغب في جذب الجرس في هذه الساعة من الليل لاستدعاء الوصيفة، فتناول الشمعدان النحاس في يده وهبط السلم وحده بكل هدوء.

وجعل مستر بيكويك كلما أمعن في الهبوط، يشعر أن عدد الدرجات التي لا تزال أمامه قد ازداد، ثم بعد ذلك دخل في دهليز ضيق، وهو يحسب إنه قد أتم الهبوط، فإذا عدد آخر من السلالم يتراءى له.

وأخيرًا وصل إلى البهو الحجري الذي يذكر أنه رآه عند دخوله الفندق لأول وهلة، فراح يرتاد دهليزًا بعد دهليز، ويسترق النظر في الغرفة بعد الغرفة، حتى كاد أخيرًا أن ييأس، وإذا به يضع يده على باب الغرفة التي قضى فيها السهرة، ورأى ساعته المنشودة فوق المائدة، فتناولها في فرح وانتصار، ثم عاد أدراجه إلى مخدعه.

ولئن كانت عملية الهبوط قد اكتنفتها المصاعب والمشاق، فإن عملية الصعود كانت أصعب وأشق. فكر من مرة وضع يده على مقبض باب يسمع صوتًا بداخله ينتهره فيتراجع على أطراف أصابعه، وأخيرًا لاح له باب مفتوح، فاسترق بداخله النظر، وأخيرًا وجد ضالته، فهذان هما السريران، وهذه هي النار لا تزال موقدة، فدخل مستر بيكويك ثم أغلق الباب وراءه.

وكان السريران على جانبي الباب، وبين كل منهما والحائط الذي يليه ممر ضيق ينتهي بمقعده. فبعد أن أسدل ستائر فراشه المواجهة للباب، جلس مستر بيكويك فوق المقعد وراح يخلع حذاءه وتزلكه بكل أناة. ثم خلع بعد ذلك سترته وصداره وطواهما. وعندئذ تبدت له الناحية الفكاهية في وقع فيه من تيه، فأستلقى على الكرسي وراح يضحك من أعماق قلبه.

– إنها والله أطرفة، أن أضل في هذا المكان، وأظل أجوب السلالم والدهاليز. إن هذا مضحك. مضحك جدًا.

وهم بعد ذلك أن يستأنف خلع الباقي من ثيابه، أعني السروال حين أوقفه عن ذلك شيء غير منتظر، هو دخول شخص إلى الغرفة وفي يده شمعة. وبعد أن أغلق الباب بالمفتاح من الداخل، تقدم إلى مائدة الزينة ووضع فوقها الشمعة. فتلاشت الابتسامة من وجه مستر بيكويك، وحلت محلها نظرة دهشة وبغتة.

– من تراه يكون هذا الشخص؟ أهو إنسان سيء الطوية رآه يصعد السلالم وفي يده ساعته الجميلة؟

كانت الطريقة الوحيدة التي يستطيع بها مستر بيكويك أن يلقي نظره على زائره الغامض من دون أن يتعرض إلا الحد الأدنى من الخطر على نفسه، هي الصعود فوق السرير واستراق النظر من فرجة ستائره. وهذا هو ما فعله مستر بيكويك، فإنه حافظ بإحدى يديه على انطباق الستائر، ثم لبس منظاره وسواه فوق أنفه، واستنجد بشجاعته ونظر من بين الستائر وكاد يغمى على مستر بيكويك رعبًا وهلعًا. فقد كان الشخص الواقف أمام مائدة الزينة سيدة في أواسط العمر، حول شعرها شرائط ملتوية من الورق الأصفر، وكانت منهمكة في تفريش ما يسميه السيدات الشعر الخلفي، وكان واضحًا من هذا المسلك أنها تنوي قضاء الليلة في الحجرة، فقال مستر بيكويك في نفسه: "ويحي أنا الشقي! هذا أمر مائل"!

وفي هذه اللحظة تنحنحت السيدة، فتراجع مستر بيكويك برأسه إلى الوراء. وقال المسكين لنفسه وقد نضح العرق البارد نقطًا كبيرة فوق جبهته:

– لم يصادفني مثل هذا الأمر الفظيع من قبل. أبدًا. مطلقًا. إن هذا لمخيف!

وكان من المستحيل عليه مقاومة رغبته في رؤية ما يحدث عبر الستائر، فبرز مستر بيكويك برأسه إلى الأمام مرة أخرى، فإذا بالموقف وقد ازداد سوءًا عن ذي قبل، فقد انتهت السيدة الصف من تصفيف شعرها، وراحت تحدق في النار الموقدة شأن من تفكر تفكيرًا عميقًا.

فقال مستر بيكويك لنفسه:

– لقد جد الجد. ولا يمكن أن أسمح بأي حال أن تستمر الأمور على هذا الوضع. فمن الواضح جدًا أن هذه السيدة لابد قد دخلت الحجرة خطأ. فإذا ناديتها ستصرخ وتوقظ الفندق كله. ولكن إذا سكت فإن النتيجة ستكون أدهى وأمر.

وغني عن البيان أن مستر بيكويك كان من أشد الرجال حياء وخفرًا، فأذهله هذا الموقف الحرج الذي وجد نفسه فيه عن صوابه. فهو يرى ضرورة إشعار السيدة بوجوده، وليس لهذا إلا طريقة واحدة، فتقهقر وتواري بالستائر ثم قال بصوت عال: «إحم. إحم!».

فانتفضت السيدة لهذا الصوت غير المتوقع، حتى لقد شعر بيكويك بانتفاضها من صوت اهتزاز الكرسي. ولكن يظهر أنها حسبت ما سمعته من قبيل الوهم، لأنه عندما لم يسمع مستر بيكويك أي حس صادر عنها حسب أنها غشي عليها، فخاطر بالتلصص من بين الستائر مرة أخرى، فوجدها تحدق في النار متفكرة كسابق شأنها.

فقال مستر بيكويك لنفسه وهو يتراجع إلى الوراء:

– يا لها من أنثى عظيمة الشذوذ. احم! احم!

فخرجت هذه الجمجمة وكأنها زوم عمالقة من الجن في بعض الأساطير. فلم يكن من الممكن أن تعزى هذه المرة إلى الوهم. فقالت السيدة النصف: يا ألطاف السماء! ما هذا؟

فأجابها مستر بيكويك من خلف ستائر السرير:

– لا أحد. رجل ليس غير يا سيدتي!

فقالت السيدة في صرخة مروعة: «رجل؟!».

فقال مستر بيكويك في نفسه: «قضي الأمر!».

وعادت السيدة تصرخ بأعلى صوتها: رجل غريب!».

فلا تمر بعد ذلك لحظة حتى يكون الفندق كله قد صحا على صوت النذير، وسمع حفيف ثيابها وهي تندفع نحو الشباب، فأخرج مستر بيكويك

رأسه كلها من بين الستائر وهو في حالة فزع لاحد لها وصاح: «سيدتي. سيدتي. أرجوك».

وكان لبروز رأسه من بين الستائر تأثير حسن لم يخطر بباله حين أبرزه. فإن ذلك الرأس قد برز في مكان متوسط بين السيدة وباب الحجرة، فكانت رؤيته كافية على هذا الوضع لتراجعها مذعورة، كي تلوذ بركن الغرفة القصي، حيث وقفت تحملق في مستر بيكويك حملقة وحشية، في حين كان مستر بيكويك يحملق فيها على نفس الطريقة. وأخيرًا غطت السيدة عينيها بيدها وقالت: «أيها الشقي! ماذا تريد هنا؟

– لا شيء يا سيدتي. لا شيء على الإطلاق. وإني لآسف ومرتبك لهذا الموقف المحرج يا سيدتي. وقد وضح لي الآن أنني أخطأت الغرفة، فحسبتها غرفتي. ولم يكن قد انقضى على فيها أكثر من خمس دقائق حين دخلت أنت.

فقالت السيدة وهي تنشج بالبكاء في حرقة:

– إذا كانت هذه القصة الواهية صحيحة فأخرج حالًا الآن.

– سأفعل يا سيدتي، وبكل سرور. آسف جدًا، لأنني كنت عن غير قصد سببًا في إزعاجك فلم تزد السيدة على أن أشارت بسبابتها إلى الباب. وهنا ظهرت بأجلى بيان مزية من أعظم مزايا خلق مستر بيكويك الجميل المتين، فمع إنه كان يمشي حاملًا حذاء به في يده، وسترته وصداره

فوق ذراعيه، إلا أن ذلك كله لم يستطع التغلب على أدبه الفطري، فانحنى للسيدة انحناءة عميقة وقال: «أنا آسف غاية الأسف يا سيدتي».

وأخرج مستر بيكويك رأسه كلها من بين الستائر وصاح: «سيدتي. سيدتي. أرجوك»

– إذا كنت كذلك حقًا، فأترك الغرفة فورا!

– في الحال يا سيدتي. في هذه اللحظة يا سيدتي.

ومد يده ففتح الباب، ولكن كان هذا سببًا في إسقاط حذائه الثقيل من يده، فأحدث وقوعه على الأرض قرقعة عالية. فراح يلم شمل حذاءيه، والتفت بعد ذلك فانحنى ثانية وقال:

– أنا واثق يا سيدتي. واثق أنني أستطيع أن أجد لديك بعض العذر.

ولكن قبل أن يتم مستر بيكويك عبارته، كانت السيدة قد دفعته إلى الدهليز دفعًا وأغلقت الباب بالمفتاح والمزلاج.

وهكذا نجا مستر بيكويك من موقف حرج جدًا، بيد أن موقفه الراهن لم يكن مما يحسد عليه بحال من الأحوال، فهو يقف وحيدًا في ممر مفتوح، في بيت غريب، في نصف الليل، نصف عار، ولم يكن من المرجح أن يستطيع العثور على مخدعه في هذه الظلمة الحالكة (لأنه ترك الشمعدان في حجرة السيدة)، ولا سيما أنه عجز عن العثور على جرته

والنور في يده وهو يخشى أن يتخبط ويحدث أي ضوضاء، فربما ظنه بعضهم لصًا سرق هذه الملابس فيطلق عليه النار.

فكان أنسب ما يستطيع أن يبقى حيث هو على حاله إلى أن يطلع النهار. فبعد أن تحسس طريقه في الدهليز بضع خطوات، وتعثر في الأحذية الموضوعة أمام أبواب الغرف، لاذ مستر بيكويك بتجويف في الحائط، وقبع ينتظر ظهور الشمس بما ينبغي له من صبر فلسفي.

بيد أن القدر لم يكتب عليه أن يحتمل هذه المحنة الإضافية، يمتحن بها صبره الجميل، فبعد بضع دقائق لاح له رجل في الدهليز حمل ضوءًا، فعرف فيه مستر بيكويك خادمه الأمين سام ويلر. وكان سام بعد أن قضى السهرة في الحديث مع ابن صنعته القديمة ماسح أحذية الفندق قد أخذ طريقه إلى حجرته لينام، فناداه فجأة: «سام. أين حجرة نومي؟».

فحملق مستر سام ويلر في سيده وهو في غاية الدهنة، حتى إنه لم يفقه السؤال حتى كرره سيده على مسامعه ثلاث مرات، وحينئذ دار على عقبيه ونادى سيده إلى الجناح الخاص به.

مأزق حرج

عندما هبط مستر بيكويك في الصباح إلى الغرفة التي قضى فيها السهرة في الليلة السابقة مع مستر بيتر ماجنوس، وجد سام ويلر يقوم بإعداد مائدة الإفطار، فتقدم سام إلى سيده ما يوحي من هيئته أن لديه سرًا عظيمًا ثم قال في صوت هامس:

– لقد وجدتهما يا سيدي.

فقال مستر بيكويك وقد ظهرت عليه لهذه العبارة علائم الهشة: «أتقول إنك وجدتهما؟».

– أجل، أعني وجدت مستر جنجل والمخلوق البكاء الحزين ذا الشعر الأسود، فهما في هذه المدينة فعلًا.

فقال مستر بيكويك في لهفة عظيمة ونشاط:

– هذا مستحيل يا سام، أين هما إذن يا سام؟ أين هما؟

فبين له مستر سام ويلر أنهما يقيمان في منزل غير بعيد من هذا الفندق، وهو منزل يتميز ببوابة خضراء تفضي إلى حديقة. وقد رأى سام مستر جوب تروتر يمرق من خلالها.

وكان على وشك أن يشرح بالتفصيل الخطة التي يقترح على مستر بيكويك أن ينتهجها حيالهما، حين قطع عليه ذلك كله دخول مستر بيتر ماجنوس، وعليه الجانب الأكبر مما كانت تحتويه الحقيبة الحمراء وصندوق البرانيط الجلدي واللفافة البنية اللون. وقد فرش كل ذلك على جسمه في أحسن وضع يمكن أن يجدي فرش هذه الأشياء على شخصه العظيم، وبادر مستر بيكويك قائلًا: «طاب صباحك. ما رأيك في هذا يا سيدي؟».

فأجاب مستر بيكويك وهو يرمق ملابس مستر بيتر ماجنوس بابتسام يدل على طيبة القلب والسماحة: «رأيي أنك تبدو مؤثرًا للغاية وفعالًا».

– أظن ذلك، وأعلم يا مستر بيكويك أني أرسلت بطاقتي يا سيدي.

– أأرسلها حقًا؟

– أجل. وقد عاد إلى الساقي برد شفوي مؤداه أنها ستراني في الحادية عشرة يا سيدي– آه، لم يبق إلا ربع ساعة. ثم .. ثم .. ثم تراني.

– لقد قرب الوقت.

– نعم قرب الوقت، وقرب الوقت أحيانًا لا يكون عاملًا مريحًا. أليس كذلك يا مستر بيكويك، يا سيدي؟!

– إن الثقة في الواقع هي العنصر الأساسي في مثل هذه الأشياء. إن الإفطار جاهز، ينتظرك يا مستر ماجنوس، فهيا.

وجلسا إلى مائدة الإفطار، وعندئذ تبين بوضوح أن مستر بيتر ماجنوس كان يعاني من اضطراب عصبي شديد، كان من نتيجته فقدان الشهية ومن أعراضه الرغبة الملحة التي لا تقاوم في النظر إلى الساعة ما بين ثانية وأخرى. بيد إنه تكلف المرح فراح يقول:

– هي هي هي لم تبق إلا دقيقتان يا مستر بيكويك يا سيدي، هل أبدو شاحب اللون يا مستر بيكويك يا سيدي؟

– لا إلى حد كبير.

فانتفض مستر بيتر ماجنوس، وحلق في وجه مستر بيكويك الذي يدل على الذكاء برهة قصيرة في صمت، ثم (وكانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة وعشر دقائق) هز يده بحرارة واندفع خارجًا لا يلوى على شيء.

وكانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة والنصف حين فتح الباب مرة أخرى فجأة، فالتفت مستر بيكويك ليرحب مستر ماجنوس متأهبًا لتهنئه، ولكنه وجد بدلًا منه مستر تابمان ومستر سنود جراس، ومستر وينكل، وفيما كان مستر بيكويك يصافحهم، دخل مستر بيتر ماجنوس الغرفة مسرعًا، فقام مستر بيكويك يقدم أصحابه إليه، ثم قدمه إليهم قائلًا:

– هذا هو السيد حدثتكم عنه الآن، مستر بيتر ماجنوس.

فقال مستر بيتر ماجنوس، وقد بدا عليه التوتر واضحًا:

– كيف أنتم أيها السادة؟ يا مستر بيكويك، اسمح لي أن أتحدث إليك لحظة على انفراد.

وأخذ بيد مستر بيكويك وانتحى به عند النافذة وقال له:

– لك أن تهنئني يا سيدي. فهي لي.

فراح مستر بيكويك يشد على يد صديقه الجديد بحرارة وقال:

– أهنئك من كل قلبي!

فقال مستر بيتر ماجنوس في هيام:

– يجب أن تراها يا سيدي. تعال، من هذا الطريق من فضلك، عن إذنكم لحظة واحدة أيها السادة.

ثم راح يسرع الخطى بمستر بيكويك، خارجًا به من حجرة الجلوس، ولم يلبث أن وقف به عند الباب التالي في ذلك الدهليز وطرقه بلطف جملة مرات، فسمعا صوتًا أنثويًا يقول من الداخل:

– ادخل!

ودخلا. فقال مستر بيتر ماجنوس السيدة:

– يا آنسة ويذرسبون [ومعنى ويذرسبون بالعربية «الملعقة العجفاء»] اسمحي لي أن أقدم إليك صديقي مستر بيكويك.

وكانت السيدة في صدر الغرفة، فانحنى لها مستر بيكويك، ولما انتصبت قامته أطلق صيحة دهشة، أما السيدة فأطلقت صرخة مكتومة، ثم أخفت وجهها بين يديها وتهاوت فوق مقعد.

وكان من أثر هذا أن مستر بين ماجنوس بغت وجمد في مكانه، وراح يحملق متنقلًا ببصره منها إليه وإليه منها، في هيئة تدل على منتهى الرعب والعجب. فإن هذا الذي حدث كانت تدل مظاهره جميعًا ولا شك على سلوك شاذ.

بيد أن الواقع أن مسير بيكويك عرف في هذه السيدة زوجة ماجنوس المقبلة، السيدة التي دخل غرفتها في الليلة الماضية، بوجه الخطأ. أما السيدة فقد عرفت في هذا الوجه ذلك المحيا الذي لا ينسى، والذي رأته بارزًا من بين ستائر السرير وهي وحيدة في مخدعها، ولهذا صرخت السيدة وانتفض مستر بيكويك.

وأخيرًا وجد مستر بيتر ماجنوس لسانه المفقود فقال:

– مستر بيكويك. ما معنى هذا كله يا سيدي؟

فارتبك مستر بيكويك بعض الشيء لجفاف اللهجة، وقال:

– سيدي. إني أرفض الإجابة على هذا السؤال!

– هل ترفض الإجابة يا سيدي؟

– أجل أرفض. وأعترض على التصريح بأي شيء يمكن أن يسبب التصريح به ألمًا لهذه السيدة، إلا إذا وافقت وأذنت بالتصريح.

– يا آنسة ويذرسبون.. هل تعرفين هذا الشخص؟

فراحت السيدة النصف تقول في تلعثم: «الحق أنني رأيته ذات مرة، أما أين رأيته، فذلك ما لا يمكن أن أبوح به بأي ثمن؟ »

– بشرفي يا سيدتي، إني أراك وأنت مخطوبة للزواج مني، تواجهين هذا الأمر بهدوء واستهانة. نعم باستهانة فاترة يا سيدتي.

– يا لك من قاس يا مستر ماجنوس!

ثم أخذت السيدة في البكاء بكاء حارًا منطلقًا.

فتدخل مستر بيكويك وقال لمستر ماجنوس في شجاعة:

– إذا كانت لديك ملاحظات أو تعليقات، فأرجو أن توجهها إلي يا مستر ماجنوس، فإن الذنب في الموضوع السالف الذكر يقع على وحدي، إذا وقع الذنب في هذا على أي إنسان!

– أتقول إن اللوم يقع عليك وحدك يا سيدي؟ لقد فهمت إذن طبيعة الموضوع يا سيدي. وأراك قد غيرت رأيك الآن.

– غيرت رأيي.. أتقول غيرت رأيي؟!

– نعم غيرت رأيك يا سيدي، ولا تنظر إلي هكذا يا سيدي؛ فقد اعترفت لي أمس أنك حضرت إلى هذه المدينة أيها السيد كي تفضح غش واحتيال شخص وضعت في شرفه ثقتك الوطيدة. ألم تقل لي ذلك أمس؟ انطق يا سيدي!

وأخذ مستر بيتر ماجنوس يدير عينيه الصغيرتين في محجريهما على طريقة جعلت منظره مرعبًا حقًا، ولا رأي بيكويك يلوذ بالصمت، زاد من بشاعة حملقته ودوران عينيه في محجريهما وهدر قائلًا:

– أجب يا سيدي! انطق!

فتح مستر بيكويك الباب وصاح في حدة:

– يا تابمان. تعال هنا!

ومثل مستر تابمان أمام رئيسه في الحال، وقد بدت عليه علائم الدهشة البالغة. فقال له بيكويك:

– تابمان.. إن سرًا على جانب من الدقة، له علاقة بهذه السيدة، كان سببًا في نشوب خلاف بين هذا السيد وبيني. فحين أؤكد له في حضورك أن ذلك السر لا علاقة له به، وليست له أدنى صلة بحال من الأحوال بمسألته الشخصية، فلست بحاجة أن أرجوك أن تلاحظ إنه إذا استمر بعد ذلك في التشكك في هذا القول، فكأنه يشك في صدقي، وذلك أمر أعتبره ماسًا بكرامتي غاية المساس.

وكان مستر بيكويك ينظر نظرًا شزرًا إلى مستر بيتر ماجنوس وهو يقوم بهذه العبارات في لهجة جدية تنذر بخطورة العاقبة.

ومع هذا فقد رفض مستر بيتر ماجنوس الإصغاء إلى إيضاح مستر بيكويك، واستمر في الصياح والغضب، في ثورة هائجة حتى لقد تضرج وجهه بحمرة ملتهبة، وهو يصيح متحدثًا عن شرفه الذي أهدر، وما إلى ذلك من العبارات.

وكان من نتيجة هياج مستر بيتر ماجنوس وعنفه، أن حمي غضب مستر بيكويك ففقد هدوءه المألوف، وراحت الكلمات من الجانبين تتطاير وتتنافس في الارتفاع والحدة. وأخيرًا قال مستر ماجنوس لمستر بيكويك إنه سيسمع عنه، فأجابه مستر بيكويك أن خير البر عاجله (فمعنى إنه سيسمع عنه في اصطلاح ذلك الزمان إنه سيرسل إليه شهوده لمطالب المبارزة).

وعندئذ تدخلت السيدة، ولكن تدخلها كان سلبيًا، لأنها اندفعت خارجة من الغرفة، وقد استقر في ذهنها أن السيدين سيتبارزان في التو واللحظة، فما كان من مستر تابمان إلا أن جر مستر بيكويك إلى الدهليز الخارجي، تاركًا مستر بيتر ماجنوس لينفرد بنفسه ولما عادت السيدة إلى مخدع نومها، أقلت بابه بالمزلاج، وراحت تفكر في المشهد الذي حضرته منذ هنيهة، فتراءت لمخيلتها أبشع صور الموت والخراب والدمار، وكان من أقل هذه الصور خطورة وبشاعة صورة مستر بيتر ماجنوس محمولًا إلى داره على أيدى أربعة رجال، وقد استقرت في جنبه الأيسر الطلقة النارية

القاتلة. وكلما أمعنت السيدة في تقليب الأمر على وجوهه، زاد ارتياعها، وأخيرًا صممت على الذهاب إلى كبير قضاء المدينة، كي تتوسل إليه أن يلقي القبض على مستر بيكويك ومستر تابمان بدون إمهال.

فلنتحدث الآن عن الحزم جورج نابكنز كبير قضاة المدينة. فقد كان هذا الرجل شخصية كبيرة. وكان يمتاز على الخصوص بأن لديه فكرة هائلة عن خطورته وأهميته.

وفي هذا الصباح بالذات كان مستر نابكنز جالسًا في مقعده الكبير المريح، حين أعلن إليه مثول سيدة لمسألة مهمة خاصة بها وملحة. فأمر مستر نابكنز بدخول السيدة. فنفذ أمره في الحال، شأن جميع أوامر الأباطرة والقضاة وكبار ذوي السلطان من حكام الأرض. وبناء عليه أدخلت الآنسة وبذرسبون. فصاح كبير القضاة قائلًا:

– مازل!

وكان مازل هذا حاجبًا قزمًا، طويل الجذع، ولكنه قصير الساقين جدًا، فلبى مازل نداء مولاه قائلًا:

– لبيك يا صاحب العظمة!

– ضع كرسيًا هنا، وأترك الغرفة.

– سمعًا وطاعة يا صاحب العظمة.

– والآن يا سيدتي، هل لك في بسط مسألتك؟

– إنه ليؤسفني كثيرًا يا سيدي أن أسوق إليك هذا البلاغ، ولكن أخشى أن تكون مبارزه قاتلة على وشك النشوب.

ففزع كبير القضاة غاية الفزع لهذا النبأ وصاح:

– أفي ابسويتش يا سيدتي؟ مبارزة في ابسويتش!؟ هذا مستحيل يا سيدتي، فلم يحدث شيء من هذا القبيل ولا تكن تصور حدوثه في هذه المدينة. وأنا على ثقة من هذا. عجبًا يا سيدتي، وكيف يحدث؟ أنا هنا كبير القضاة في هذه المدينة.

– إن معلوماتي للأسف الشديد صحيحة، فقد كنت حاضرة حين نشب الخلاف المشئوم .

فصاح كبير القضاة المشدوه:

– يا مازل. ابعث إلى مستر جينكس هنا فورًا .. في الحال!

وانسحب مازل بسرعة كما دخل، ولم يلبث أن دخل الغرفة بعدئذ كاتب متوسط العمر زري الثياب، مدبب الأنف، شاحب الوجه، فابتدره كبير القضاة قائلًا:

– يا مستر جينكس. اسمع يا مستر جينكس. إن هذه السيدة يا مستر جينكس حضرت للإدلاء ببلاغ عن مبارزة في هذه المدينة توشك أن تقع مع سبق الإصرار والتعمد.

ولما كان مستر جينكس لا يدري ما هو التصرف الواجب بالضبط في مثل هذه الحالة، فقد ابتسم ابتسامة المرؤوس فقال القاضي:

– ماذا يضحكاك من هذا الأمر يا مستر جينكس؟

فغاضت الابتسامة من وجه مستر جينكس فورًا وبدا جادًا كل الجد، فقال له رئيسه كبير القضاة:

– أنت أبله يا مستر جينكس!

فنظر مستر جينكس إلى الرجل العظيم نظرة خنوع وأخذ بعض طرف قلمه بأسنانه، واستطرد كبير القضاة قائلًا:

– قد ترى في هذا البلاغ يا سيدي ما يدعو إلى التفكه والضحك، ولكن أقول لك يا مستر جينكس مؤكدًا، أن دواعي الضحك الحقيقية لديك قليلة للغاية في واقع الأمر.

فتشهد مستر جينكس الذي تم سحنته عن الجوع وسوء التغذية، وكأنه بتنهده يعترف بأنه مدرك الحقيقة المرة، وهي إنه لا يملك إلا النزر القليل من بواعث المرح والسرور، وبعد أن تنهد شرع في تسجيل بلاغ السيدة التي جاءت الإدلاء به.

فلما انتهى البلاغ قال كبير القضاة:

– تقولين يا سيدتي أن اسمي المشاغبين ما بيكويك وتابمان. لابد أن يكونا من شرار القتلة الذين نزلوا المدينة للقضاء على رعايا جلالة الملك،

واهمين أن ذراع العدالة يقصر عن إدراكهم وهم على هذه المسافة من العاصمة. لتجعلن منهم أمثولة وعبرة! حرر أمري القبض يا مستر جينكس. وأنت يا مازل، ابعث إلى جرامر.

فانصرف مازل الخاضع الطبع، ولم يلبث أن عاد ومعه سيد كهل يلبس حذاء طويلًا، فقال له كبير القضاة وهو يمضي أمري القبض:

– يا جرامر، عليك أن تحضر هذين الشخصين للمثول أمامي بعد الظهر، وستجدهما في خان الحصان الأبيض الكبير.

فأدى جرامر التحية وتناول الأمر وانصرف قائلًا:

– سمعًا وطاعة يا صاحب العظمة.

وقال كبير القضاة: «يا مازل. أوصل السيدة إلى الباب» وخرجت الآنسة ويذرسبون، وقد رسخ في ذهنها أن كبير القضاة رجل عظيم حقًّا!

وبينما كانت هذه الإجراءات الأزمة الصارمة تتخذ لصيانة أمن جلالة الملك العام، كان مستر بيكويك وأصحابه غافلين عن هذه الأمور التي توشك أن تدهمهم، وقد جلسوا ينعمون بالطعام في أمان الله. وكانوا يتحدثون حديثًا سهلًا سائغًا حينما فتح عليهم الباب، وبرز من فتحته وجه يحمل نشر الوعيد، وكان هذا الوجه المنذر بالويل والثبور هو وجه مست جرامر الذي لم يلبث أن تقدم في أعقاب وجهه داخل الحجرة.

وكان دخول مستر جرامر بطريقة فنية، ولكنها أيضًا طريقة خاصة به، خارجة عن المألوف، فقد أغلق الباب من الداخل بالمزلاج، ثم أخرج من جيبه الداخلي عصا صغيرة يتوجها تاج من النحاس، فأشار بها إلى مستر بيكويك بطريقة مخيفة أشبه ما تكون بمحركات الأشباح.

وكان مستر سنود جراس أول من استطاع قطع حبل الصمت الذي ساد تحت وقع المفاجأة فرمق مستر جرامر بنظرة ثاقبة ثم قال له بحدة:

– هذه غرفة خاصة أيها السيد. غرفة .. خاصة.

فهز مستر جرامر رأسه سلبًا وأجاب في عزم وثبات:

– ليست هناك أي غرفة تعتبر خاصة بالنسبة لجلالة الملك، ما دام الإنسان قد تجاوز عتبة باب بيته. وهذا هو القانون.

فصاح به مستر تابمان وقد وثب واقفًا:

– ماذا تعني بهذه الوقاحة؟ أترك الغرفة!

فتراجع مستر جرامر بسرعة نحو الباب، وفتحه مقدار بوصة أو بوصتين ثم صاح من هذه الفرجة قائلًا:

– هوى، يا رايلى! مر رجال الشرطة الذين تحت إمرتك بالدخول .

وصدع مستر رايل بالأمر، فدخل ستة رجال يحمل كل منهم عصا صغيرة يعلوها تاج من النحاس، ووقفوا كالقطيع الصغير، تنهض مستر بيكويك ورفاقه من مجلسهم نهوض رجل واحد وصاح مستر بيكويك:

– ما معنى هذا الإجتراء الذي لا مبرر له على الحرية الشخصية؟

وصاح مستر تابمان:

– من ذا الذي يجسر على إلقاء القبض علي؟

أما مستر سنود جراس فقال:

– ماذا تريدون هنا أيها الأوغاد؟

فلما رأى الشرطة أن مستر بيكويك ورفاقه عازمون على مقاومة قانون جلالة الملك، وبدا من هيئتهم أنهم مصممون على استعمال العنف إذا اقتضت الضرورة ذلك، وكان لهذا المظهر أثره الحاسم في مستر بيكويك، فقد أبدى استعداده للتوجه إلى منزل القاضي، لأنه رأى أن الشرطة يتفوقون عليهم تفوقًا عدديًا.

ولكن برزت مشكلة جديدة لم تكن منظورة، فقد رفض مستر بيكويك– مع احترامه الشديد للقانون وسلطانه– أن يظهر في الطريق العام تحيط به وتحرسه قوة الشرطة، شأن المجرمين العاديين، ولم يقبل مستر جرامر أن يرتبط مستر بيكويك بكلمة الشرف، أن يذهب فورًا إلى منزل القاضي، وأن يسير رجال الشرطة في الجانب الآخر من الطريق.

ودام هذا الخلاف وقتًا طويلًا، وأخيرًا كان رجال الشرطة على أهبة إلزام مستر بيكويك بالذهاب كنص القانون في وسطهم وتحت حراستهم، وإلا حملوه على ذلك عنوة وقسرا. وإذا بأحدهم يتذكر إنه رأى في فناء

الخان مقعدًا ما يحمل على أكتاف رجلين، وذاك المقعد مكن أن يتسع لمستر بيكويك ومستر تابمان.

وكان هذا هو الحل الموفق السعيد. فسرعان ما اكترى هذا المقعد، وحشر مستر بيكويك ومستر تابمان نفسيهما فيه، ثم أسدلت ستائره، وحمله حمالان، وبعد ذلك اتجه الركب على هذه الصورة الفخمة إلى دار القضاء، فرجال الشرطة يحيطون بالمحفة، ومستر جرامر ومستر رايلي يسيران أمامها بافتخار، ومستر سنود جراس ومستر وينكل يسيران وقد اختلف ذراعاهما من امن ورائها، وكان أهالي ابسويتش يكونون مؤخرة هذا الموكب الذي تحرك الهوينا في جلال ووقار.

وكان مستر سام ويلر عائدًا من رحلة استطلاعية للمنزل ذي البوابة الخضراء، فقابل الموكب في الطريق ووقف يتفرج عليه باهتمام عظيم، فراي مستر وينكل ومستر سنود جراس فصاح بهما:

– ماذا جرى أيها السيدان؟

فأجاب كلاهما في نفس واحد بكلمة واحدة لها فعل السحر، قالا:

– بيكويك.

وكان في هذا الكفاية، فقد اقتحم مستر ويلر الجميع، ثم أوقف الحمالين، وجابه بعد ذلك مستر جرامر البدن، الذي صاح به وقد كادت تخرسه الدهشة والاستنكار: ارجع!

وكما يزيد من قوة هذا الأمر، دفع بعصاه التي يعلوها التاج النحاسي في صدر سام ويلر، وقبض على خناقه يده الأخرى. فرد سام ويلر على هذه التحية بأن لكمه لكمة أوقعته على الأرض، بعد أن كان قد أوقع أحد الحمالين، فسقط جرامر فوق الحمال.

وأعقبت ذلك فوضى شاملة هائلة، أبلى فيها سام بلاء حسنًا، إذ راح يقذف في الهواء برجال الشرطة من كل جانب، إلى أن تغلبوا عليه بكثرة عددهم وأخذوه أسيرًا.

وبعد ذلك أعيد تنظم الموكب، وعاد الحمالان إلى مكانهما، ثم استؤنف المسير إلى بيت القاضي.

افتضاح مستر جنجل

من المستحيل أن نصف مبلغ غضب مستر سام ويلر واستنكاره، وقد سيق مقبوضًا عليه، بيد أن هذه الانفعالات سرعان ما تلاشت ليحل محلها التطلع الواعي، حينما انعطف الموكب اليسير في ذلك الشارع الذي يقع على قارعته البيت ذو البوابة الخضراء. تلك البوابة التي رأى جوب تروتر مرق منها، وطغت على ذلك التطلع وحشة وبهجة عظيمة، إذ أمر مستر جرامر بوقوف المحفة أمام هذه البوابة الخضراء بعينها، ثم جذب يد الجرس المعلقة إلى جوار البوابة جذبة قوية، فاستجاب لرنين الجرس مستر مازل، الذي فتح مصراعًا واحدًا من مصراعي باب العربات كي يسمح للمحفة بالدخول، وكذلك دخل المقبوض عليهم، ورجال الشرطة، ثم أقفل ذلك الباب بعنف في وجه الغوغاء. ووقفت المحفة بعد ذلك أمام درج سلم يؤدي إلى باب البيت، الذي كان يحرس جانبيه شجر صبار أمريكي في براميل خضراء. وسبق مستر بيكويك وأصحابه نورًا حيث مثلوا في حضرة مستر نابكنز كبير القضاة.

وكان المشهد في الحق رهيبًا، لأنه روعي في تصميمه أن يلقي الرعب في قلوب المجرمين، فينطبع في سريرتهم ما للقانون من جلالة ووقار. فأمام خزانة كتب ضخمة، في مقعد ضخم، وراء مائدة ضخمة، جلس مستر نابكنز وفي يده مجلد ضخم، وقد بدا في ضعف حجم هذه الأشياء جميعًا،

على ضخامتها. وكان مستر جينكس الكاتب مشغولًا جدًا في الظهور بمظهر المشغول جهد طاقته، وقد جلس عند أحد طرفي المائدة. ونصب مستر نابكنز قامته في جد شديد، وراح يمتحن وجوه زواره المقهورين بنظرات ثاقبة، وأخيرًا قال مستر نابكنز، وهو يشير إلى مستر بيكويك. وكان مستر بيكويك بوصفه لسان حال أصدقائه ممسكًا قبعته في يده، وقد انحنى بكل أدب واحترام، موجهًا السؤال إلى مستر جرامر:

– والآن يا جرامر، من هذا الشخص؟

– إنه بيكويك يا صاحب العظمة.

فقاطعه سام في حنق وهو يتقدم نحو الصف الأول قائلًا:

– إياك وهذا أيها الرجل، وتكلم بمزيد من الاحترام عن هذا السيد، فهذا السيد هو س. بيكويك، المحترم، وهو سيد فاضل أريحي، وسوف يسعدك كثيرًا أن تعرفه.

ولما فرغ سام ويلر من كلماته هذه أومأ برأسه في مودة نحو جينكس الكاتب الذي كان يصغي لما يقال في وجل واحترام.

وسأل القاضي مرة أخرى جرامر مشيرًا إلى سام:

– ومن هذا الرجل يا جرامر؟

– إنه شخصية خطرة يا صاحب المظلمة، فقد حاول تخليص الأسيرين، وهاجم رجال الشرطة واعتدى عليهم.

فصاح مستر نابكنز بصوت كالرعد:

– ما اسمك يا هذا؟

– ويلر.

– إنه اسم جميل جدًا يصلح لسجل سجن نيوجيت، ليمان لندن.

وكان المفروض أن هذه العبارة الأخيرة نكتة، فإذا جينكس وجرامر، ورايلي، ورجال الشرطة، ومازل، وقد انفجروا جميعًا في نوبة من الضحك استمرت خمس دقائق كاملة. وبعد انتهائها قال القاضي: «اكتب اسمه يا مستر جينكس».

فقال سام لجينكس: «لا تنس أن تكتب شدة فوق اللام أيها الصديق!»

وشاء سوء الطالع لأحد الشرطة أن يضحك مرة أخرى لنكتة سام، فإذا بحضرة القاضي يتوعده بالحكم عليه بالسجن في الحال، فإنه من الخطر جدًا أن يضحك الإنسان من نكتة رجل غير مرغوب فيه أمام المحكمة.

وأخيرًا قال القاضي: «والآن يا مستر جينكس، حلف جرامر اليمين القانونية».

فخلف جرامر فورًا، وبدأ كبير القضاء تحقيقه، وكانت نتيجة هذا التحقيق أن أثبتت ضد مستر ويلر جريمتنا اعتداء، وجريمة تهديد ضد مستر وينكل، ودفعة باليد ضد مستر سنود جراس. فلما تم هذا كله، انتصب

القاضي في مقعده، وسعل سعلة تحضيرية للكلام، وكان على وشك أن يبدأ، حين قاطعه مستر بيكويك قائلًا:

– أستميحك عفوًا يا سيدي لهذه المقاطعة، ولكن أراني مضطرًا قبل أن تتعلق بحكمك أن أطالب بحقي في أن تسمع أقوالي.

فزمجر حضرة القاضي وصاح فيه:

– اعقل لسانك يا سيدي، وإلا أمرت شرطيًا بإخراجك من القاعة.

– لك أن تأمر شرطييك بما تشاء يا سيدي، ولكن مع هذا سأظل أطالب بحقي في سماع أقوالي، حتى ولو أخرجت بالقوة.

رشق مستر نابكنز مستر بيكويك بنظرة تفيض بالدهشة العميقة تجاسر على إبدائه من الجرأة. وأخيرًا تغاضى عن تصميمه ألا يسمع مزيدًا من الأقوال، والتفت إلى مستر بيكويك وقال له بحدة:

– والآن، ماذا تريد أن تدلي به من الأقوال؟

فقال مستر بيكويك وهو يرسل من خلال نظارته نظرة وهن لها مستر نابكنز على جلده وصلابته:

– أريد أولًا أن أعرف لماذا جيء بأصدقائي وبي إلى هذا المكان؟

فقال حضرة القاضي في وقار شديد يناسب صاحب المظلمة:

– لقد أدلى أمامي ببلاغ معزز باليمين القانونية، أنك تعتزم أن تبارز، وأن الرجل الآخر، المدعو تابمان، هو شاهدك في المبارزة. ولهذا سأطلب ضمانًا لكما خمسين جنيهًا لكل منكما، على أن يكون الضامن بقيمة هذا المبلغ من أصحاب العقارات.

فقال مستر بيكويك الذي كان في غاية الدهشة والحنق مثله في ذلك كمثل صديقه مستر تابمان:

– ولكن ما الحيلة يا سيدي، ونحن غرباء عن هذه المدينة، وليس لي معرفة بأي مالك من ملاكها، وكذلك لا علم لي عن أي نية في المبارزة مع أي إنسان.

فسأله القاضي عندئذ، في لهجة من يظهر بجلاء إنه لا يصدق كلمة من كل ما قاله مستر بيكويك:

– هل تريد الإدلاء بأي أقوال أخرى؟

– والواقع إنه كان لدي مستر كوبك كثير جدًا من الأقوال. ولا شك إنه كان حريًا أن يدلي بها، لولا أن مستر سام ويلر جذبه من كمه، ثم انهمك معه في الحال في محادثة استغرقت انتباهه، فظل سؤال صاحب العظمة القاضي بغير جواب، ولما كان مستر نابكنز ليس من طراز الرجال الذين يلقون مثل ذلك السؤال مرتين، فقد شرع يسعل سعاله التحضيري للكلام والنطق بالأحكام، وتأهب وسط الصمت المطبق وإعجاب رجال الشرطة، لإعلان قراره في الموضوع.

وكان ذلك القرار يتضمن تغريم سام ويلر جنيهين عن الاعتداء الأول، وثلاثة جنيهات عن الاعتداء الثاني، وتغريم مستر وينكل جنيهين ومستر سنود جراس جنيهًا. أما بيكويك وتابمان فقد ألزمهما بالكفالة والضمان.

وما إن ختم القاضي نطقه السامي حتى تقدم مستر بيكويك إلى الأمام وقد ارتسمت على وجهه الصبوح ابتسامة عريضة، وقال:

– استميحك العفو يا سيدي القاضي، ولكني استأذن في طلب محادثتكم محادثة خاصة بضع دقائق، في أمر له أهميته القصوى لديكم.

– ماذا؟

فكرر مستر بيكويك طلبه، فقال القاضي مستغربًا.

– هذا أعجب التماس رأيته، محادثة خاصة على انفراد مع القاضي؟

– أجل سيدي محادثة خاصة وعلى انفراد. ولكن بما أن جانبًا من البلاغ الذي سأدلي به في هذه الحادثة قد وصلني الآن عن طريق خادمي هذا، فإني أحب أن يكون حاضرًا معنا!

ونظر حضرة القاضي إلى جينكس الكاتب، ونظر جينكس الكاتب إلى حضرة القاضي، وتبادل الشرطة النظرات في استغراب، ثم اصفر وجه مستر نابكنز، ذلك أنه خطر بباله سام ويلر ساوره الندم فجأة فباح بسر مؤامرة دبرت لاغتيال عظمته. وكان هذا الخاطر فظيعًا، فهو رجل عام،

واغتيال الرجال العموميين أمر مألوف من قديم الزمان، وقد زاد اكفهرار وجهه حين تذكر مصرع يوليوس قيصر!

وفكر مستر نابكنز في الموضوع بضع ثوان، ثم نهض من مقعده ورجا مستر بيكويك وسام ويلر أن يتبعاه، وسار أمامها إلى غرفة صغيرة. فلما دخلوا ثلاثتهم أمر مستر بيكويك أن يقف في الجانب الآخر من الحجرة، ووقف هو وقد وضع يده على الباب الموارب بحيث يسهل عليه الهروب عند ظهور بوادر أي محاولة لاستعمال العنف. ثم قال:

– إني على استعداد لسماع التبليغ، مهما يكن من شأنه.

فقال مستر بيكويك:

– سأدخل في الموضوع مباشرة، فهو يمس شخصك وسمعتك عن كثب. فلدي من الأسباب ما يحملني يا سيدي على الاعتقاد أنك تنزل في دارك هذه نصابًا ومحتالًا كبيرًا.

فصاح سام ويلر مقاطعًا:

– بل نصابين محتالين. فلا تنس ذلك النذل البكاء لابس البدلة التي بلون التوت!

– يا سام، إذا كان لي أن أوضح لهذا السبد ما أريد، فإني أرجوك أن تملك زمام عواطفك ولا تسترسل في المقاطعة والتعليق.

فقال مستر ويلر:

– إني آسف جدًا يا سيدي. ولكنى حين أفكر في ذلك المخلوق المدعو جوب تروتر، لا أستطيع كتمان بخار الغيظ المكتوم.

واستأنف مستر بيكويك بعد ذلك كلامه مخاطبًا حضرة القاضي:

– وقصارى القول يا سيدي، هل خادمي صادق ومصيب فيما يعتقده من وجود شخص يسمى الكابتن فيتز مارشال، من عادته أن يتردد بالزيارة على هذا البيت، لأنه إذا كان ذلك صحيحًا، فأنا أعلم أن ذلك الشخص إن هو إلا ...

فأسرع القاضي نابكنز يغلق الباب في فزع وهو يقول:

– صه صه. تقول إنك تعرف إنه ماذا يا سيدي؟

– إنه مغامر أفاق لا ضمير له، وشخص ساقط المروءة يعيش عالة على المجتمع، ويوقع في أحابيل استغفال البسطاء والسذج يا سيدي، فيقعون ضحية لاحتياله ومكره.

وسرعان ما تغيرت سحنة مستر نابكنز، فصار وجهه بلون القرمز، وقال لمستر بيكويك في أدب واضطراب:

– ويحي. اجلس يا مستر بكويك. أرجوك أن تجلس. هل تعني هذا حقًا؟ أتعرف هذا عن الكابتن فيتز مارشال؟

فصاح سام مقاطعًا مرة أخرى:

– لا تدعه كابتن، بل ولا فيتز مارشال، فليس هو هذا ولا ذاك. إن هو إلا ممثل متجول، واسمه الحقيقي جنجل. وإذا كان من الممكن لذئب أن يرتدي كسوة بلون التوت فإنه يكون تابعه جون تروتر!

وقال مستر بيكويك، ردًا على نظرة القاضي الاستفهامية:

– هذا صحيح كل الصحة. ولا هم لي في هذه المدينة إلا فضح الشخص الذي نتكلم عنه الآن، لنكفي الناس شره.

ثم راح مستر بيكويك يصب في أذن مستر نابكنز المروع الخاطر خلاصة مركزة لآثام مستر جنجل. فقص عليه كيف التقى به، ثم كيف هرب بالآنسة واردل، ثم كيف تخلى مسرورًا قريرًا عن هذه السيدة مقابل مبلغ من المال، ثم كيف أوقعه في شرك مدرسة البنات الداخلية في نصف الليل، ثم بين له كيف إنه (أعني مستر بيكويك) أصبح يشعر أن واجبه كشف ستر هذا الشخص وزيف ما يدعيه لنفسه في الوقت الحاضر من الاسم والكنية والرتبة.

وكان مستر نابكنز كلما سمع جانبًا جديدًا من الموضوع، يصعد الدم في رأسه حتى يتجمع في أطراف أذنيه، فهو قد التقى بالكابتن في حلبة السباق ببلدة مجاورة، فافتتن بقائمة أصدقائه الطويلة من طبقة النبلاء، وبكثرة زملائه وسلوكه التقدمي. ثم بعد ذلك كان هم زوجته مسز نابكنز وابنته الآنسة نابكنز أن تعرضا على الجميع صديقهما الجديد الكابتن فيتز مارشال، وأن تتمثلا بعبارات من كلام الكابتن فيتزر مارشال، وأن تزهوا

بأن رأس قائمة أصدقاء الأسرة هو الكابتن فيتز مارشال، حتى لقد أوشكت صديقتاهما مسز بوركن هامز والآنسة بوركن هامز أن تتفجرا غضبًا وتنشقا غيرة وغيظًا. وكان المظنون فيه إنه زوج مناسب جدًا للآنسة نابكنز كريمة صاحب العظمة القاضي.

ولكن ما هو يسمع بأذنيه بعد كل هذا أن الكابتن فيتز مارشال ليس إلا مغامرًا فقيرًا، أو ممثلًا متجولًا، ونصابًا محتالًا. فيا للسماء! ماذا عسى أن يقول آل بوركن بعد كل هذا؟ يالشماتة هذه الأسرة حين يعلم الجميع كيف كان آل نابكنز مغفلين!

وأشرق وجه مستر نابكنز لحظة وقال لمستر بيكويك:

– ولكن هذا على كل حال مجرد كلام. فالكابتن فيتز مارشال رجل مهذب جدًا، وأجسر على القول بأن له أعداء كثيرين. فأي دليل لديك على صدق هذه الرواية؟

– واجهني به. فلست أطلب شيئًا فوق هذا. واجهني به ولن تحتاج بعد ذلك إلى أي دليل..

– هذا أمر ميسور، لأنه سيكون حاضرًا هنا هذه الليلة. ولكن لنختم أولًا هذا الموضوع القانوني الذي كنا بصدده، فتفضل بالعودة معي إلى الحجرة الأخرى.

وعاد الثلاثة إلى تلك الحجرة:

وصاح صاحب العظمة القاضي بصوت رهيب:

– جرامر!

فأجاب جرامر وعلى وجهه ابتسامة المحسوب المقرب:

– مولاي صاحب العظمة!

فقال له القاضي في حدة وعنف ظاهرين:

– تعال هنا. إياك أن أراك مرة أخرى متلبسًا بالضحك في هذا المكان. فهذا أمر لا يليق، وأنا أؤكد لك أن دواعي الابتسام لديك أقل ما يكون. والآن، هل كان التقرير الذي قدمته إلى منذ قليل صادقًا كل الصدق؟ حذار يا سيدي من التحريف أو المراوغة.

فتلعثم جرامر وقال:

– يا صاحب العظمة، إنني ..

– آه.. ها أنت ذا تتلعثم وترتبك وتتناقض أقوالك، يا مستر جينكس هل رأيت كيف اضطرب وناقض نفسه؟

– لا شك يا سيدي.

– والآن عليك أن تعيد الإدلاء بأقوالك يا جرامر، ولكن بوجه الأمانة والصدق، وأنذرك مرة أخرى بأن تكون دقيقًا. يا مستر جينكس، سجل ما سيدلى الآن به من الأقوال.

وشرع جرامر المسكين يعيد شكواه، ولكن مقاطعة القاضي المستمرة وزجره إياه زاد من اضطرابه ولعثمته، وزاد من تناقضه، حتى لقد صاح مستر جينكس معلنًا إنه كذاب، وأنه لا يصدق دعواه.

وبناء على هذا ألقيت الغرامات، ثم سرعان ما أحضر الضامنان اللازمان لبيكويك وتابمان ولما سوي هذا الموضوع، أمر مستر جرامر في ازدراء مغادرة الغرفة، فكان ذلك مثلًا رهيبًا لغرور متاع الدنيا وسرعة زوال أمجادها وعدم استقرار طوالع اليمن في بروج أصحاب السلطان.

وكانت مسز نابكنز امرأة سيئة الطبع متعجرفة. كما كانت الآنسة نابكنز على غرار أمها. وكانتا حين يوقعهما سوء طبعهما في المشاكل– وذلك كثيرًا ما يقع– تتفقان معًا في إلقاء التبعة واللوم على كتفي مستر نابكنز. ولهذا حينما أخبر مستر نابكنز زوجته بما أفضى به إليه مستر بيكويك، تذكرت مسز نابكنز في الحال أنها كانت تتوقع دائمًا شيئًا من ذلك القبيل، وإنها كانت دائمًا تقول إن الأمر سينتهي بهذه الخاتمة، وإن رأيها كان يضرب به دائمًا عرض الحائط، وهلم جرا.

أما الآنسة نابكنز، فقد لمعت في جانب عينها دمعة صغيرة وقالت:

– إن ما يزعجني هو تفكير الناس في إنني كنت ساذجة مغفلة إلى هذا الحد.

فقالت أمها تطيب خاطرها:

– الفضل في هذا يا عزيزتي لأبيك، فأشكريه. فكم من مرة رجوت وتوسلت إلى هذا الرجل أن يسأل عن أسرة الكابتن وعلاقاته، ونسبه، وكم من مرة دفعته دفعًا إلى ذلك العمل، ولكن لا سميع ولا مجيب.

فقال مستر نابكنز مهدئًا روعها:

– ولكن يا عزيزتي ...

– لا تكلمني. أيها الرجل المزعج، إياك أن تكلمني؟

– اسمعي يا حبيبتي، لقد كنت دائمًا تقولين إنك مغرمة للغاية بهذا الكابتن. وكنت دائمًا تدعينه يا عزيزتي للحضور، ولم تتركي فرصة إلا وانتهزتها لتقدميه إلى جميع من تعرفين من الناس.

فصاحت مستر نابكنز، وقد راحت تستشهد بابنتها وعلى وجهها سيماء الشهداء:

– ألم أقل هذا يا هنرييتا؟ ألم أقل مرارًا أن والدك سوف يلقي اللوم كله على أنا؟ ألم أقل لك هذا بربك؟

ثم انطلقت تنشج بالبكاء، فتدخلت ابنتها مؤيدة لها ومتضامنة في النشيج، واندفعت مسز نابكنز تقول وهي تبدأ شوط بكاء جديد:

– أليس هذا أكثر مما يطاق. أبعد أن يجلب على رأسنا الهزء والزراية والعار، ألام أنا لإني كنت السبب في هذا كله؟

واستمرت دموع مسز نابكنز في الانهمار، إلى أن انفسح لها بعض الوقت في تقليب الموضوع على وجوهه في رأسها، وأخيرًا رأت أن خير ما تستطيع أن تصنع، أن تدعو مستر بيكويك وأصدقاءه للبقاء حتى يحضر الكابتن، ثم تعطي مستر بيكويك الفرصة التي طالب بها فإذا اتضح صدق روايته، فمن المستطاع طرد الكابتن من البيت بدون فضيحة علنية، ويمكن تبرير اختفائه بسهولة، كأن يقال مثلًا إنه عين حاكمًا لسييرا ليونه، أو ما إلى ذلك من البلدان البعيدة عن العمران.

فلما مسحت مسز نابكنز دموعها، مسحت الآنسة نابكنز هي الأخرى دموعها، وسر مستر نابكنز بتسوية الموضوع على النحو الذي ارتأته زوجته، وهكذا قدم مستر بيكويك وأصدقاؤه إلى السيدتين، ثم قدم بعد ذلك العشاء. أما سام ويلر، الذي تمكن القاضي الآن من اكتشاف أنه شاب ذكي حاد الذكاء، فقد سلم إلى مستر مازل ليرعى شأنه، وأمر بأن يأخذه إلى المطبخ في الطابق الأسفل، وأن يحتفي به جدًا.

وطوعًا لهذا الأمر، ساق مستر مازل مستر سام ويلر إلى أسفل، محوطًا بآيات المودة، ثم قدمه إلى الطباخة والخادمة، وما أن تم ذلك التعارف حتى فتح باب المطبخ ودخل منه مستر جوب تروتر.

ولعل الأوفق ألا تقول إنه دخل، بل ظهر فقط. فقد كان من الممكن أن يدخل، بل أنه كان يهم فعلًا بالدخول، حينما التقت عينه بعين مستر سام ويلر فتراجع خطوة أو خطوتين، ووقف يحملق في المنظر غير المتوقع

الذي تمثل له، فظل لهذا ساكنًا جامدًا لا حراك به، لفرط دهشته وفزعه. فقال له سام:

– كيف حالك؟ أين كنت؟ ادخل

ومد يده فأخذ بتلابيب جوب الذي لم يقاوم، ثم جذبه من ياقته التوتية اللون إلى داخل المطبخ، وأقفل الباب بالمفتاح وصاح:

– والآن ها قد التقينا. وتصور يا صاحبي مبلغ ابتهاج سيدي بمقابلة سيدك في الطابق العلوي، ومبلغ سروري بمقابلتك أنت هنا. إني سعيد بلقائك، وأن سعادتك لأظهر من أن تخفي. فتفضل بالجلوي. اجلس ولا تحتشم.

وسمح مستر تروتر لنفسه أن يوضع عنوة في مقعد بجوار النار، ثم راح يحدق بعينيه الصغيرتين، أولًا في مستر سام ويلر، ثم في مستر مازل، ولكنه لم ينطلق بحرف.

وساد الصمت، فتقدم سام من مستر تروتر وانتزعه من مقعده، فلم تدع وحشية مسلكه أدنى شك في ذهن جوب الذي كان يرتعد خوفًا، في أن سام، ينوى مصارعته بأسرع ما يمكن، وقال سام أخيرة:

– إن المطبخ الخلفي خال، فإذا دخلت هناك، سيتسنى لمستر مازل أن يشهد نزالًا عادلًا، وبهذا نسوي الموضوع، فهيا بنا.

وكان سام وهو يتفوه بهذه الكلمات يخطو نحو الباب، وفي الوقت نفسه يخلع سترته توفيرًا للوقت واستعجالًا للنزال، وفي هذه اللحظة دق الجرس، فقال سام جوب تروتر:

– هذه الدقة لك يا جوب تروتر

ولكن قبل أن يتمكن جوب تروتر من الجواب، كان سام قد أمسكه من أحد ذراعيه، كما أمسكه مستر مازل من الذراع الآخر، ثم رفعاه بينهما وصعدا به السلم، ودخلا به على هذه الصورة إلى القاعة.

وكان المشهد هناك رائعًا فقد كان ألفريد جنجل المحترم، المتخذ لنفسه اسمًا مستعارًا هو الكابتن فيتز مارشال، واقفًا قرب الباب، وقبعته في يده، وعلى شفتيه ابتسامة، وغير بعيد منه وقف مستر تابمان، وقد تعلق به صديقاه الشابان، يحاولان منعه من الهجوم عليه. وفي الطرف الآخر من الحجرة وقف مستر نابكنز، ومسز نابكنز، والآنسة نابكنز وقد بدا عليهم جميعًا الإباء والحنق الوحشي. فقال مستر نابكنز بوقاره القضائي، حين رأى جوب وقد أدخل على هذه الصورة.

– لست أدري ماذا يمنع من إلقاء القبض على هذين الرجلين، باعتبارهما من الأشرار المتشردين. إنها الرحمة البلهاء، بالله ماذا يمنعني من هذا؟

فقال مستر جنجل من دون أي تحرج أو اضطراب:

– يمنعك من هذا كبرياؤك يا صاح! فإنك ستبدو في نظر الناس كافة سخيفًا مضحكًا. لقد ظننت أنك وقعت على كابتن؟ ها ها! زوج صالح للآنسة كريمتكم. حاول أن تعلن الحقيقة على الملأ. ولكن مستحيل أن تعلنها بأي ثمن، لأنك ستبدو في نظر الناس جميعًا نموذجًا للغباوة والبلاهة.

فصاحت مسز نابكنز:

– أيها التعس، إني أحتقر مزاعمك السافلة المنحطة!

أما هنرييتا فقالت:

– لقد كنت دائمًا أكرهه!

– طبعًا طبعًا. شاب طويل القامة، وثرى أيضًا، وكابتن. أي شيء مباح للكابتن. لا أحد عندنا مثل الكابتن. كل البنات مجنونات بالكابتن. أليس كذلك يا جوب؟

وعندئذ قهقه مستر جنجل ضاحكًا، فتشجع جوب وفرك يديه ابتهاجًا، وأخرج أول صوت صدر منه منذ دخل البيت في هذه الليلة. وكان ذلك الصوت عبارة عن ضحكة مكتومة، دل انحباسها على أنه كان مستمتعًا بها جدًا، بحيث كان يضن أن يضيع منها شيء إذا خرجت على هيئة أصوات مسموعة.

وأخيرا قالت زوجة القاضي لزوجها:

– يا مستر نابكنز، مر بإخراج هذين الشقيين ..

فأجاب مستر نابكنز طلبها، وأشار بيده في احتقار قائلًا:

– غادرا هذا البيت حالا!

ابتسم جنجل وتحرك نحو الباب، وحينئذ قال مستر بيكويك:

– انتظر ..

فوقف جنجل، واستطرد مستر بيكويك قائلًا:

–كان في وسعي أن ألجأ إلى انتقام أقسى من هذا، للمعاملة التي تلقيتها على يديك ويدي صاحبك هذا المنافق.

فانحنى جوب تروتر في أدب تهكمي، واستطرد مستر بيكويك وقد أخذ غضبه يزداد شيئًا فشيئا:

– أقول إنه كان بوسعي أن أنتقم منك انتقامًا أقسى من هذا، ولكن أكتفي بفضح أمرك، مما أعتبره واجبًا على نحو المجتمع.

فلما بلغ مستر بيكويك هذه النقطة، وضع جوب تروتر يديه حول أذنيه كمن يضن على مقطع واحد من هذه الكلمات بالضياع، واستأنف مستر بيكويك كلامه وقد بلغ غضبه غايته:

– وليس عندي ما أضيفه يا سيدي سوى أني أعتبرك وغدًا، سافلًا، وأحط من أي إنسان قابلته قط أو سمعت به، فيما عدا ذلك الأفاق المنافق المتظاهر بالورع الذي يلبس ثيابًا بلون التوت.

فقهقه جنجل وقال:

– يا لك من رجل طيب يا بيكويك. قلب من ذهب، ولكن تجنب الغضب، فإنه ضار جدًا بالصحة. أما الآن فوداعًا، ونراك بخير يومًا ما.

ثم ضرب رأسه بقبعته، وغادر الغرفة، فتمهل جوب تروتر وابتسم، ثم تمادى في تهكمه لمستر بيكويك، وغمز بعينه لام ويلر، ثم اقتفى خطوات سيده الموهوب. وحاول سام ويلر أن يلاحقه، بيد أن مستر بيكويك استبقاه وألح عليه، فأمتثل على مضض، لأنه كان حريصًا أشد الحرص على أن ينتقم من جوب ترور بضربه علقة مليحة في الحديقة، أو قذفه إلى الشارع برفسة قوية في إليته، ولهذا أسف كثيرًا على ضياع هذه الفرصة، وشعر لأول مرة منذ التحاقه بخدمة مستر بيكويك بخيبة أمل وتعاسة.

بيد إنه سرعان ما انقلب إلى المرح، عندما علم أن مستر مازل الخبيث من وراء باب الشارع ثم وثب في اللحظة المناسبة وثبة عنيفة أوقعت مستر جنجل وخادمه على درج السلم، فنزلاه برأسيهما، وانتهيا إلى براميل الصبار فانغرسا بين طينها وأشواكها. وقال مستر بيكويك بعد ذلك لمستر نابكنز:

– أما وقد أدينا واجبنا يا سيدي، فإني أودعكم أنا وأصدقائي، كي نعود إلى لندن غدًا. أما سركم فهو عندي مصون.

وانحنى مستر بيكويك للسيدتين، ثم غادر الغرفة مع أصدقائه، غير مستجيب للدعوة الملحة التي وجهت إليهم للبقاء.

خاتمة جنجل وصاحبه

ذات صباح، وقد انقضت على حوادث الفصل الأخير في بيت مستر نابكنز قرابة ستة أشهر، شوهد مستر بيكويك ومستر باركر المحامي النحيل جالسين معًا في مكتب الأخير، وقد استغرقا في الحديث.

وفي هذه الشهور السنة كان الحظ قد تخلى عن مستر جنجل وصاحبه جوب، فدفعا غاليًا ثمن آثامهما، ولم يجدها نفعًا دهاء السيد ولا نفاق خادمه ودموعه الكواذب، حتى هبطا إلى درجة مهينة من الفاقة، ثم حكم عليهما بالسجن لتراكم الديون.

وكانا حريا أن ينهكا في ذلك السجن جوعًا ومرضًا لولا أن قيض الله لهما أن تبلغ أخبارهما آذان مسن بيكويك! فتجاهل ذلك الرجل العظيم حقًا ما لحقه منهما من الإساءات، وسعى في الحال لإطلاق سراحهما، ولم يكن جلوسه للتشاور مع المحامي في هذه الساعة إلا لرسم الخطة لإقرار مستقبلهما في مزرعة للمطاط بجزر الهند الغربية.

وأخيرًا مال مستر بيركر في مقعده إلى الوراء وقال بارتياح:

– لقد تمت جميع الترتيبات اللازمة.

– هذا عظيم، ويسرني أن أسمع ذلك.

وكان المحامي الضئيل الجسم على وشك أن يسترسل في البيان، لولا إنه قوطع بدقات على باب، وبصوت يسأل هل مستر بيركر موجود.

فقال بيركر مستر بيكويك:

– اسمع. هذا أحد صاحبينا المتشردين. إنه جنجل نفسه يا سيدي العزيز، فهل تحب مقابلته؟ فقال مستر بيكويك مترددًا بين الرفض والقبول:

– ماذا تظن أنت؟

– أجل، أظن إنه من الخير أن تقابله.

ورفع المحامي صوته مخاطبًا الطارق:

– أدخل أيها الطارق إذا سمحت.

واستجابة لهذه الدعوة الخالية من الحفاوة، دخل جنجل وجوب، فلما أبصرا مستر بيكويك في الحجرة وقفا وقد بدا عليهما الارتباك.

فقال بيركر:

– ألا تعرفان هذا السيد؟

فتقدم مستر جنجل إلى الأمام وقال:

– بل أعرفه تمام المعرفة. يا مستر بيكويك، إني مدين لك دينًا عظيمًا، فقد أنقذت حياتي، وجعلت مني رجلًا، وسوف لا تندم على هذا أبدًا يا سيدي إن شاء الله.

فقال مستر بيكويك:

– إني لمسرور أعظم السرور أن أسمع منك هذا الكلام. وإنك لتبدو لي أحسن بكثير من آخر مرة رأيتك فيها.

– شكرًا لك يا سيدي، نعم تغيرت تغيرًا كبيرًا، السجن مكان لا تتوافر فيه الشروط الصحية مطلقًا.

وراح مستر جنجل يهز رأسه أسفًا وحسرة. وكان مرتديًا ثيابًا مليحة، وكذاك جوب، الذي جلس وراءه منتصب القامة، محملقًا في وجه مستر بيكويك وقد جمدت ملامحه كأنها قدت من حديد.

وسأل مستر بيكويك المحامي في صوت منخفض:

– متى يتوجهان إلى ليفربول كي يقلعا من هناك؟

فتقدم جوب خطوة إلى الأمام وقال:

– هذا المساء يا سيدي في الساعة الحادية عشرة بالعربية الثقيلة

– وهل حجزت محلاتكما؟

– نعم يا سيدي.

فقال مستر بيركر موجهًا الكلام إلى مستر بيكويك:

– أما فيما يختص بالتجهيزات الضرورية لكليهما، فقد رتبت خصم مبلغ تافه من مرتب مستر جنجل للوفاء بها. وأنا أعترض بشدة على أن نفعل لهما أي شيء إلا على أساس اعتمادهما على عملهما واجتهادهما وحسن سلوكهما في الوفاء به.

فقاطعه مستر جنجل في عزم شديد قائلًا:

– طبعًا. يا لك من مفكر فطن، خير الدنيا ..

واستطرد مستر بيركر، متجاهلًا تعليقات جنجل:

– لقد تكلفت يا مستر بيكويك في سبيل سداد ديونهما، ولبس ثيابهما من الرهن، وإخراجها من السجن، ودفع أجر عبورهما البحيرة ما يزيد على خمسين جنيها من حر مالك، فقدتها بلا رجعة.

فأسرع جنجل يقول:

– إنها لم تضع. بل سأسددها جميعًا، اللهم إلا إذا أصابتني الحمى الصفراء.

وتوقف مستر جنجل فجأة، ثم ضرب نفسه على أم رأسه بعنف شديد، ومر بعد ذلك بيده فوق عينه، ثم جلس.

قال جوب تروتر، وقد دمعت عيناه بدموع حقيقية للمرة الأولى:

– إنه يعني إنه إذا لم تقض عليه الحمى الصفراء، فيسدد هذا المبلغ. وإني لأعلم إنه سيسدده إذا عاش يا مستر بيكويك.

فقال مستر بيكويك الذي كان يرمق مستر بيركر المحامي بنظرات قاسية حتى يحمله على عدم الإمعان في هذا الموضوع الجارح:

– لا بأس. ولكن حذار أن تمنح نفسك رتبًا عسكرية بعد اليوم، أو أن تحتال على كهول الرجال، كما أخشى ألا تصون صحتك.

فابتسم مستر جنجل، ولكن ابتسامته كانت خالية من المعني، وغير مستر بيركر موضوع الكلام بأن قال:

– سلم هذا الخطاب للوكيل حينما تصل إلى ليفربول. واسمحا لي أن أنصح لكما أن تتجنبا «الشطارة» في جزر الهند الغربية، فإنه إذا ضاعت عليكما الفرصة الحالية، فإنكما خليقان أن تشنقا. وهذا هو اعتقادي الشخصي في مصيركما. والآن أرى من الخير أن تتركاني مع مستر بيكويك، فإن لدينا أمورًا أخرى نبحثها، والوقت ثمين.

وكان مستر بيركر ينظر إلى الباب وهو يتكلم، شأن من يريد أن يقصر أمد الوداع. فشكر مستر جنجل المحامي بكلمات سريعة، ثم التفت إلى رب نعمته ووقف بضع لحظات مكن لا يدري ماذا يقول أو ماذا يفعل، فأسرع جوب تروتر لنجدته، وذلك بأن أنحنى لمستر بيكويك انحناءة عرفان الجميل، ثم أخذ بذراع صديقه وانصرف به.

ولما أغلق دونهما الباب، قال مستر بيركر: «مخلوقان لهما شأن!».

– أتمنى أن يغدوا كذلك. ما رأيك؟ هل هناك أمل في إصلاحهما؟

فهز مستر بيركر كتفه مبديًا شكه. ولكنه إذ رأي نظرة مستر بيكويك الملتهفة قال في حماسة ومرارة غير مألوفتين في رجال القانون في الغالب:

– هناك أمل بطبيعة الحال. ولكن لا تنس أن هدفك سام، بصرف النظر عن النتيجة.

فحتى لو ارتكب هذان المخلوقان غدًا جريمة نصب، لما قلل هذا من القيمة العالية لإحسانك إليهما في نظري.

الفهرس